عِزَّت القمحاوي





بيت الدِّيب

رِوَايَة

دار الآداب

عزّت القمحاوي

بيت الدّيب

رواية



دار الآداب ـ بيروت

بيت الديب

بيت الديب

عزّت القمحاوي/ روائي مصري

الطبعة الأولى عام 2010

ISBN 978-9953-89-191-0

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

rana.adab@hotmail.com

Website: www.adabmag.com

Face Book: dar al adab

عاشت مباركة الفولي حتى رأت أحفادها يخاطبون أصدقاء من أطراف الكرة الأرضيّة لم يروهم أبدًا؛ فأخذت تطلب منهم أن يبعثوا برسائل إلى الله.

ـ رسالة صغيرة بسّ تفكّروه بيّا.

تطلب من الصبيّ الجالس أمام الكمبيوتر؛ فيهيّئ، بسمت جادّ، صفحة جديدة ويطلب منها إملاء الرسالة. تشرع في إنشاء ديباجة فخمة، ويجاريها كاتب الشكوى حتى ينطلق في الضحك من حيرتها في انتقاء الكلمات. يتوقّف عن الضرب على لوحة المفاتيح، ويسألها مازحًا عن سرّ استعجالها.

ـ أصله عيب، بجدّ عيب قوي.

تخشى أن تبدو قليلة الحياء بعيشها حتى هذه السنّ. وتتحدّث بألم من يحاول أن يتبرّأ من حرج الوجود في وضع غير لائق رغمًا

عنه، لكنّها تحسّ بتجاوز حدودها؛ فتخفّف من لهجتها:

ـ عتاب خفيف كده، ما هو معذور، هيفتكر مين ولّا مين!

وكانوا يضحكون؛ لأنّهم يعرفون استعدادها لسحب شكواها عندما يذكّرونها بمنتصر؛ إذ تهبّ على أنفها رائحته قويّة، تصيبها بالخدر وتجعلها تتراجع عن كلّ الشكوى والعتاب للموت.

ـ ريحة راجل.

أجابت باختصار باتر، عندما سألوها عن سرّ الرائحة التي أبقت رجلاً كلّ هذه السنين في ذاكرة معطوبة. ولم تعرف كيف تفسّر لهم رائحة منتصر التي حاصرتها يومًا في صيف من جهنّم، شهد اشتعال الحرائق في أجران القمح، ولم تر العشّ مثله أبدًا.

أتعبتهم التكهّنات حول مشعل النيران في وقت محدّد يوميًا. حبسوا مجنونًا تصوّروا أنّه ينتقم من قذف أولادهم له بالطوب؛ فلم تتوقّف الحرائق، أخذ كلّ متضرّر ينبش ذاكرته بحثًا عن عداوات قديمة قد تكون استيقظت لأيّ سبب لجأ بعضهم للاستعانة بمعمّرين من قرى مجاورة، وراجت تجارة الوصفات المقوّية للذاكرة.

ولأنّ التقليب في الماضي كالنبش في الخراء؛ فقد وجد كلّ منهم في تاريخ عائلته خصومة أو أكثر، بعضها توقّف عند حدود مشاجرة، أو حشّ زرع، أو تسميم بهائم، بعضها أوقع قتلى في العائلتين وانتهى بالصلح، والبعض انتهى بقتيل من طرف واحد يمكن أن تكون روحه قد تململت طلبًا للثأر المنسي، وعادت بهذه الحرائق الغامضة التي لا تشتعل إلّا عندما يأوي الإنس إلى دورهم

في ذروة الحرّ، تاركين الحقول والأجران للأرواح الهائمة.

كادت حرائق القمح تشعل نار الحرب بين العائلات، لولا جهود مجموعة من الشباب المخلصين لحالة السلام التي عاشتها العشّ قرونًا، بسبب المساواة الكاملة التي أرساها المؤسّسون. أقاموا مجموعات حراسة حول الأجران للإمساك بمشعل الحرائق، لكنّهم رأوا القشّ يشتعل من دون أن تقترب منه ذبابة. تأكّد للجميع أنّ الحرائق تشتعل ذاتيًّا في التوقيت نفسه، عندما تتعامد الشمس على الأرض، وتصل درجة الحرارة إلى أقصاها.

حملهم الاكتشاف على تنظيم فرق إطفاء، حيث يرابط شابّان عند كلّ جرن للإبلاغ عن الحريق، بينما ينقسم الآخرون إلى مجموعات جاهزة للإطفاء، وأخرى على شاطئ الترعة الكبيرة تملأ الجرار للنساء والفتيات اللائي يشكّلن طابورًا طويلاً، جاهزًا للانطلاق نحو الجهة التي يصدر منها نداء الاستغاثة.

كان وهج الأرض مرئيًّا، تحت قدمي مباركة الحافيتين، وهي توازن جرّة الماء على رأسها، وتكاد تسمع وشيش البخر، عندما أنصتت لهرولة منتصر الديب المضطربة خلفها. حيّاها بصوت مرتعش، واستبقها بثلاث خطوات. كانت تشعر بوخز نظرات الشغف في عينين خلف رأسه، بينما يمشي أمامها مرتبكًا، يكاد يتعثّر، يشدّ قامته في قميصه الأبيض الذي يصل إلى ربلتي ساقيه، متعمّدًا إظهار قدرته على تحمّل سياط الأرض اللاهبة.

بدأ منتصر يكثر من زيارة عمّته نبيهة في نهاية الحارة، منذ مدّة، دون أن يجرؤ على مخاطبة مباركة؛ الفتاة الغامضة التي لا

تتحدّث إلّا نادرًا. لكنّه كان متأكّدًا أنّها بدأت تشعر به؛ فكانت تنتظره بشقّ الباب، يلمحها فتضطرب خطوته، ويلتفت وقد ارتسم على شفتيه ظلّ شاحب لابتسامة متردّدة. وعندما لا يرى خيالها يتعمّد رفع صوته بالغناء، أو بالنداء على شخص وهمي، بينما تخترق عيناه الخلل الرفيعة بين خشب شبّاكها؛ فيراها هناك، تلصق وجهها بالضلفة المهتزّة.

أخيرًا تجرّأ. وكان لذلك التلاقي العابر للعيون و«إزّيّك يا مباركة» المتهدّجة فعل السحر ببدنها. لم تردّ، لكنّ عذوبة الرجولة الخام في صوته اخترقت أحشاءها؛ فغمرتها قشعريرة لذيذة تشبه ألم الحمّى. أخذت تنزّ عرقًا باردًا يختلط برشح ماء الجرّة المتدحرج في بلّورات على الوجه، فالرقبة، فالصدر، متّخذًا طريقه بين حبّتي الطماطم ليصل إلى منتهاه: دكّة اللباس الباتيستا، التي تتشرّبه قبل أن يصل إلى منطقة الزغب السرّي.

بعد اكتشاف مؤامرة الحرّ المسبّبة لاشتعال الأجران، صار النهار مخصّصًا للإطفاء، والليل لدرس القمح، وسط حالة من التضامن لم تشهدها القرية إلّا في جيل المؤسّسين الذين تولّوا تجفيف المستنقع، ثم التزامل في بناء البيوت وتمهيد الأرض للزراعة، حتى إنّهم لم يجدوا الوقت لاختيار اسم لتجمّعهم المتناغم. وبعد سنوات من مواظبة اللقالق على مهاجمة القرية، سمّوا قريتهم باسم العشّ. وكأنّما كان ذلك الاسم تعويذة أوقفت غزوات اللُقلق، ثأرًا للآلاف من صغاره وبيضه المجهض في أعشاش قوّضها حصد بوص المستنقع وقطع شجيراته.

أعاد التضامن في مواجهة الشمس دفن الذكريات غير المرغوبة التي نُبشت في أيّام الريبة، وصارت العشّ بيتًا واحدًا. لم يعد هناك من يستغرب وجود شابّ أو رجل في غير حارته. يسقطون في التعب؛ فيأكلون وينامون في أقرب بيت يمكنهم الوصول إليه. ولم يعد منتصر بحاجة إلى التظاهر بزيارة عمّته لكي يرى مباركة، لكنّه لم يعاود الاقتراب.

بينما ساد السلام العشّ، فقدت مباركة سلامها. لم تعد كما كانت. صارت تشعر بالخجل والخوف من أبيها بسبب الخراب الذي يحلّ بكلّ ما تقع عليه يداها.

ـ يمكن مِسِكتِ ديل قطّة!

يُعنِّفها متحيّرًا، دون أن يدري أنّها هي القطّة التي أشعل أحدهم ذيلها وتركها. أخذت تواصل نهاراتها زائغة تحوم بالقرب من الباب انتظارًا لمجيئه، وتفتعل المشاوير لكي تراه. وعندما تدخل إلى فراشها في الليل تبقى مفتوحة العينين، تنصت لطقطقة أعضائها مثل حفنة من الذرة تتفجّر فوق النار، قبل أن تهمد فشارًا هشًّا. كادت تصدّق أنّ بها مسًّا يُخيف الرجال. تنتظر من قيلولة إلى أخرى لكي تقترب منه. وفي كلّ مرّة تتلاقى عيونهما ويتجاوزها مرتبكًا، إلى أن تجرّأ مرّة أخرى.

ـ ورا داركم بعد العشا.

قالها باضطراب أقلّ من المرّة الأولى، لكن بصوت خفيض جعلها غير متأكّدة إن كان تكلّم أم إنّها تتخيّل، وإن كان تكلّم فهل كان يقصدها؟ لم تطمئنها استعادة كلماته التي كانت انبعاجاتها

تمّحي، مرّة بعد مرّة، حتى تتحوّل في رأسها إلى دفقة هواء، تشبه الأنين. لكنّها ذهبت إلى الموعد فوجدته هناك.

كان ينتفض، وأخذت هي الأخرى ترتعش بعنف، على الرّغم من أنّهما يعلمان أنّ الدور لا تحوي في هذه الساعة إلّا العواجيز كليلي البصر، والأطفال الذين لا يدركون شيئًا.

جذبها إلى حضنه، بينما يستطيع كلّ منهما أن يسمع قلب الآخر صاخبًا مثل طبلة. رائحته أصابتها بالدوار. لم تكن جميلة أو قبيحة. فقط كانت رائحة رجل يهصرها فينكمش جلدها ويتمدّد بقشعريرة لذيذة.

أحسّت بشيئه يتخبّط في سرتها مسعورًا. غابت عن الوعي للحظات، ثم صرخت وهي تنفلت من بين يديه، مهرولة إلى داخل الدار، بينما تجمّد في مكانه قبل أن يعيده البلل بين فخذيه إلى إحساس الخوف السابق لرعشة اللذّة. دسّ يده في فتحة الجلباب، يتحسّس لزوجة السائل ويطمئنّ إلى أنّها لن تعوّقه عن الانطلاق إلى أحد الأجران، إن لم يكن للمساهمة في العمل؛ فعلى الأقلّ من أجل التسلّي بين الناس، حيث لن تسعه دار هذه الليلة.

مباركة هي الأخرى لم تنم ليلتها. كانت خائفة من أن يكون أحد قد رآهما. وكانت سعيدة.

أخذت تستعيد مرارًا ما حدث، تستقطر الرائحة من سخونة التنفّس المحموم، تتحسّس نهديها وتفرك الحلمتين اللتين تنتصبان تحت ملامسات يديها، تحاول استرجاع قرصة يديه القويّتين، فتنبض رحمها بالرغبة وتتسارع ضربات قلبها.

تابعت حياتها مضطربة وسعيدة، بعد أن اكتسبت أشواقها الغامضة ملمسًا ورائحة. كانت قبل ذلك تشعر بتحوّلات جسمها وآلام تفتّح نهديها، يلفّها إحساس مبهم باللذّة مثلما يحدس نبات الظلّ الاتّجاه الصحيح للشمس. وكما يواصل نبات الظلّ صعوده المحموم إلى الأعالي، تتلمّس نفسها بحثًا عن اللذّة الدفينة في جسد لم يقترب منه رجل، لا لأنّها دميمة، بل لأنّ جمالها مقلق.

لم يكن منتصر أوّل من انتبه إليها، لكنّه أوّل من تجرّأ. كانت ترى الوله في وجوه الشباب، لكنّهم كانوا يجمدون على اللحظة التي تتلاقى فيها عيونهم مع عينيها، وتصبح لهم هيئات موتى لم يجدوا من يغمض لهم عيونهم. لم تعرف إن كان حبًّا ما أحسّت به تجاهه أم امتنانًا وإعجابًا بجرأته. صارت تنجز أعمالها بقلق، تهرول إلى الشبّاك عندما تستمع إلى صوته، توشك أن تدعوه للدخول، فتغرق في خوفها وتغادر الشبّاك مذعورة، بينما لم يعد يكفّ عن الدوران لأيّ سبب ودون سبب حول بيتها. يتعلّل لنفسه بأيّ شيء كي يتوجّه إلى دار عمّته، وأحيانًا كان يستدير من أمام باب العمّة، لأنّه ليس لديه ما يقوله لها، يلمح مباركة على السطح، أو في باحة الدار تطعم طيورها، يغمغم لها بموعد ومكان لقاء جديد، فتقضي نهارها في وضع الخطط للخروج، وعندما تتعب تقرّر أنّها لن تذهب فتحسّ براحة حزينة، وسرعان ما تنقلب على القرار، هكذا مئات المرّات، حتى تجد نفسها بين يديه في الموعد، تتشمّمه ويلعقها، يتقلّبان على بيدر تبن فتلتصق قصاصاته الذهبيّة بجسديهما، أو فوق كومة قمح يهبط بهما فيكافحان ليتمسّك أحدهما بالآخر ويخرجان إلى السطح.

مرّة بعد مرّة، لم تعد تسقط في الغيبوبة وذهول الموت الذي يطويها بمجرّد أن يضع منتصر كفّه أسفل أذنها. وجدت أظافرها طريقها إلى جلده، وعرفت كيف تتحرّك وتداعب أعضاءه، وهي تتشمّم تحت إبطيه بينما تنتفض أحشاؤها تحت تدليكه لما بين فخذيها. وعندما يهدآن يهمس لها حول ليلة عرسهما المرتقبة، يفحش في وصف اللقاء؛ فتضربه على صدره، يحكي لها عن دارهما وعدد الأطفال الذي سينجبون، وهكذا دائمًا في هذيانات منفردة.

لم تكن فاقدة لملكة الكلام، لكنّها لم تكن تجازف باستخدام الكلمات من طول عشرتها الصامتة لأبيها الذي لا تكرهه، لكنّها لا تجد ضرورة أو موضوعًا للحديث بينهما. ولم ير منتصر في صمتها أيّة غرابة، بل وجده لعبة مشوّقة تتحدّى فضوله، وتجعله يواصل الحديث أملاً في اعتراف بالحبّ، دون أن ينجح في أن يجعلها تنطق بأكثر من كلمة أو كلمتين بلا معنى خاصّ. ولم يكن في مسيس الحاجة إلى سماع كلمة الحبّ، معتبرًا خطوط أظافرها على صدره وظهره طريقتها الخاصّة في الكلام.

لم ينته صيف الحرائق حتى طلب من عمّه أن يخطبها له.

ـ المجنونة بنت بدر الفولي؟! دي كلّ العشّ بتقول مخاوية.

قال مجاهد الديب، مستغربًا أن يطلب ربيبه خطبة هذه الفتاة بالذات. وفي ظنّه أنّ منتصر متعاطف معها لأنّها يتيمة مثله.

ـ لا مجنونة ولا مخاوية.

أكّد منتصر، مصرًّا على طلبه، ولم يكن لدى مجاهد سبب آخر للرفض؛ ففاتح بدر بعد صلاة العصر.

ـ عايز أشرب شاي عندك.

رحّب بدر، وعندما طلب من مباركة الاستعداد لزيارة ضيف، توهّج وجهها. وانصرفت بكلّ همّة لجلي الكنكة النحاس والأكواب الزجاجيّة بالرماد والقشّ، لأنّها ستكون الإشارة الأولى إليها كسيّدة بيت محتملة. بعد أن اطمأنّت إلى نظافة أدوات الشاي، وضعتها على الصينيّة النحاس الحمراء أمام قصعة النار في المنضرة، وأخذت تكنس الدار والحارة أمامها، وترشّها بالماء.

بعد صلاة العشاء اتّخذ أبوها مكانه أمام قصعة النار، وصعدت مباركة السلالم الطينيّة المؤدّية إلى السطح الدار، واختفت عند دوران السلّم بحيث ترى من يدخل ولا يراها. وعندما سمعت الطرق على الباب وصوت أبيها من الداخل يرحّب بالقادم أطلّت برأسها فوجدته مجاهد الديب.

ـ اللهمَّ صلِّ على النبي.

قال، وكأنّه يعتذر عن النظرة التي غرسها في جسدها، بينما لم تتمالك نفسها تحت اختلاط مشاعر الفرح بالخجل؛ فقفزت من ذلك الارتفاع، وانطلقت مهرولة لتختفي في آخر قاعة بالدار.

بعد أن هدأت أنفاسها، تسلّلت، وألصقت أذنها بباب المنضرة تتسمّع مضطربة.

ـ يا سلام.. دي تروح خدّامة.. إحنا ها نلاقي أعزّ منك؟!

قال أبوها، وردّ مجاهد:

ـ على بركة الله.. الفاتحة.

لم يشعرها الاتّفاق بالفرح كما كانت تتوقّع، بل أصابها بالألم كرشقة سكّين. وما أدركته بقلبها على نحو غامض، قاله أبوها بعد انصراف الضيف.

ـ مجاهد طلب إيدك وأنا وافقت.

قال أبوها. ولم تردّ، ولم يبد على ملامحها أثر لمشاعر من أيّ نوع. وأدرك بدر أنّ ابنته لم تعد تشبه أمّها في الملامح فقط؛ بل في القدرة على إغلاق نوافذ روحها؛ فلا يرى منها شيئًا. وأدركت هي قسوة أن تكون عروسًا بلا أمّ. تمدّدت طوال الليل مفتوحة العينين تتأمّل أخشاب السقف المقطرنة في حجرة الخبيز، وفي أذنيها تتردّد الجملة الأخيرة لأبيها: «إحنا ها نلاقي أعزّ منّك؟».

قال مجاهد لمنتصر إنّه تحدّث بوضوح، لكنّ أباها الذي أبدى تشرّفه بالمصاهرة، اشترط أن يزوّجها له شخصيًّا، لأنّ ابنته صغيرة ويتيمة وتحتاج إلى رجل يحميها وليس إلى طفل مثلها.

لم يقل بدر ذلك؛ لأنّه يعرف أنّ مجاهد يعيش عالة على زوجته وأبنائه، وليس بوسعه أن يحمي دجاجة، لكنّه في الوقت نفسه لم يعرف أنّه يطلبها لابن أخيه، وكان يعرف سحر ابنته التي تأخّر خُطّابها، واثقًا من أنّ مجاهد لن يقوى على إيذائها، مهما بلغ استهتاره. المهمّ أنّه رأس أسرته، والمتحكّم فيها، وستكون مكانة مباركة من مكانته.

أقسم منتصر على الانتقام. ترك الدوّار الذي تربّى فيه، وكأنّه البكر بين أبنائه، وذهب إلى عمّته نبيهة. ولم تكن حفيظة، زوجة مجاهد وابنة عمّه، أقلّ حزنًا.

ـ هيشوف.

أقسم منتصر على الانتقام لنفسه ولزوجة العمّ التي يناديها تحبّبًا «أختي». طلب منتصر أرضه ليستقلّ بحياته؛ فإذا بمجاهد يقول له إنّ جدّه سجّل له قبل أن يموت كلّ الأرض بيعًا وشراء، ثم بدأ يعيّره بأنّه فعل له ما لم يفعله لأحد من أبنائه الذين من صلبه، منذ تلقّاه قطعة لحم حمراء. وكان يتوقّع أن يوقّره كأب.

لم تفلح وساطات من لجأ إليهم منتصر في ثني مجاهد عن قراره. ولم تقدّم العمّة نبيهة أكثر من استبقاء منتصر في دارها لكي تباعد بينهما، ونصحته بألّا يخسر عمّه من أجل هذا الأمر، حتى لو كان مجاهد هو الذي طلب، فأبوها وافق، ومن العيب أن يلاحق فتاة مخطوبة لعمّه، والأفضل أن يبحث لنفسه عن فتاة غير هذه المسحورة، وألّا يتوهّم أنّ ما لديها ليس لدى امرأة أخرى.

ـ كلّها شخّاخات.

قالت المرأة العجوز، مختصرة مباركة في عضوها الأنثوي، باستخفاف جمّد الدمعة في عينيه، وأجابها:

ـ مابقاش ابن سلامة لو ما خدتش حقّي.

عندما توجّه مجاهد إلى بيت أخته نبيهة في نهاية سهرته قرب الفجر، رفض منتصر العودة معه إلى الدوّار، ولم يتوقّع الصفعة

التي وقعت على خدّه. رفع يده وأوقف يد مجاهد قبل أن تقع على خدّه الآخر. أخذ مجاهد يرتعش بعصبيّة متملّصًا من قبضة رجل حسبه طفلاً حتى هذه اللحظة. أطلقه منتصر مطوّحًا بيده ومضى خارجًا. جذبه مجاهد من الشال فانقطع في يده. ترك له نصف الشال وواصل سيره. تبعته عمّته نبيهة مولولة؛ فخرج الناس على جانبي الحارة يستطلعون ما يجري. سدّت حفيظة وأبناء عمّه عليه الطريق، لكنّه ودّعهم وواصل انطلاقه بجلباب وحيد ونصف شال يتلفّح به، لا يعرف إلى أين يمكن أن يذهب، تخنقه مشاعر متناقضة شلّت يده ومنعته، ليس فقط عن ردّ الصفعة، بل عن تنفيذ الخطط التي وضعها ونقضها طوال ليالي أرقه الماضية.

•

لم يكن سلبه الفتاة التي عشقها آخر أسلاب مجاهد منه، بل أقساها. ذلك الذي يعيّره بتربيته، لم ير حنانه يومًا. كانت حفيظة هي التي تطعمه، وتغطّيه في ليالي البرد، وتغسل ملابسه، وتحمّمه في ليالي العيد، وتتساقط دموعها على رجليه، بينما تدعكهما بالحجر لإزالة طبقات القشف عنهما. وعلى الرّغم من أنّ أقدام أبنائها، بمن فيهم نجيّة الحدباء، لم تكن أكثر نعومة من قدميه، إلّا أنّها تشعر بأنّهم، وإن لم يتمتّعوا بأب حنون، لم يُحرموا حضن الأمّ، بينما لم يعرف منتصر أمّه، ولم ير أباه الفتوّة الذي جعل للعائلة والعشّ كلّها قيمة.

لم يكن يزعجها أن يركل مجاهد أحد أولاده، بينما تطوّق منتصر لتمنعه من ضربه، فيضربها هي الأخرى، ويتركهما يبكيان ويمضي، لا يعود إلّا قرب الصبح.

في العاشرة صار منتصر رجلاً. وصار التضامن بينه وبين حفيظة متبادلاً. أخذا يديران شؤون البيت والغيط، وسرعان ما انضمّ إليهما ابنها البكر، سلامة، الذي يصغره بعامين، ثم ناجي وعليّ. استطاعوا، عامًا بعد عام، أن يعيدوا ازدهار الحقول والمواشي التي كانت متروكة لمرابعين لا يرعونها جيّدًا. سمنت الجواميس، وتضاعف ما تدرّه من لبن، وتكاثرت. وأصبح من المتعذّر السير بين البطّ والإوزّ والأرانب في النصف الداخلي من الدوّار، بينما تمتلئ الكوى في الحوائط والجرار المعلّقة في السقف بأزواج الحمام. وكان الشابّان ينتهيان من حشّ البرسيم للمواشي، ثم يبدآن في مساعدة الصبيّين ناجي وعليّ في فرم كمِّيَّة كبيرة يحملانها إلى الطيور التي تعتني بها حفيظة، تذبح منها وتبيع ما يكفي لكسوتهم؛ لأنّ مجاهد لم يكن يفكّر بهم، لا يعرف شيئًا عن الدار، إلّا عندما يحتاج نقودًا لتسديد ثمن الأفيون والحشيش.

فرض عليهم تخصيص فدّان كامل من ثلاثة أفدنة هي كلّ ما تبقّى من الأرض، يزرعه شعيرًا لعليق المهرة. ولا يكفّ عن تحميمها وتزويقها، وتعليمها الرقص. يزفّ بها العرائس، أو يمضي إلى موالد المنطقة للسباق أو الاستعراض.

كان لا يستيقظ إلّا قبل أذان العصر بقليل، يذهب إلى الجامع يصلّي الظهر والعصر، وعندما يعود لا بدّ أن يكون الديك المحمّر جاهزًا، يشرب بعده شايًا أسود مع فصّ أفيون، يستمع إلى حمحمة المهرة تناديه؛ فيدخل إليها، يسرجها ويخرج بها، يربطها في حديد شُبّاك المنضرة، ثم يعود ليرتدي جلبابًا نظيفًا وينطلق بها في جولة يمشّي فيها رجليها حتى غروب الشمس. وبعد صلاة العشاء لا

تنطفئ الجوزة، يسهر ويدخّن، منفردًا أو مع أصدقاء يتغيّرون من فترة إلى أخرى. اعتبروه غير موجود، على الرّغم من خجلهم من حياته التي لا تشبه حياة الفلّاحين الأصلاء، بل الغجر، ومن سهرات الحشيش التي تجمعه بحثالة الناس وشباب في عمر أولاده. ومع كلّ هذا كان يحرص على إثبات سلطته، يلوي لجام المهرة متحوّلاً عن الزراعيّة التي اعتاد أن يروّضها عليه، ويتوجّه بشكل مفاجئ إلى الحقل ليراقب الأولاد في عملهم الذي لا يعرف عنه شيئًا، وبلا سبب يبدأ في توجيه الشتائم.

ـ إنتو عيّانين؟!

وينطّ من فوق ظهر المهرة، ينزع الفأس من يد أحدهم. ويريهم كيف يكون العمل. عندما كانوا صبية، كانت أذرعهم الغضّة لا تقوى على حمل الفأس، بعكس يديه، ولكنّه مع ذلك لا يملك جَلَدهم على العمل. يُنهي تجربته لاهثًا، ثم يفرغ غيظه من تعرّقه السريع في ضربتين من الخيزرانة الرفيعة، تتركان آثارهما على ظهر كلّ منهم.

خطط القتل التي وضعها منتصر في الليالي الماضية، فكّر فيها آلاف المرّات من قبل. والفرق أنّه صار قادرًا؛ بينما كانت مخطّطاته السابقة، وهو صبي، ردّ فعل عاجز، كلّما ثار عليهم مجاهد بلا سبب، وكلّما تسبّب في ضياع فرصة لزيادة مساحة أرضهم، بسبب ما ينفقه على مزاجه ومزاج المهرة «عزيزة» التي طلب منه منتصر ذات يوم أن يبيعها ليشتري فدّانًا ملاصقًا لحقلهم.

ـ والله عال، إنت بقى لك كلمة؟!

زعق وصفعه. لم يهتزّ منتصر أو يحرّك يده لردّ الكفّ. كان يعتبر أنّ ردّه سيكون موجّهًا في الوقت ذاته إلى أخته حفيظة وأبناء عمّه الذين يدعوهم إخوته، وأنّ ذلك سيهدم صورة للعائلة بناها سلامة؛ أبوه الذي لم يره، ويحبّه من وصف الآخرين له.

بعد أن يعبر الأزمة، كان في كلّ مرّة، يشعر بالرضا عن نفسه، ويعتبر التزامه الأدب مع عمّه إجراءً حكيمًا منه، لكنّه هذه المرّة يؤنّب نفسه على السهولة التي تنازل بها عن مباركة وعن ميراثه، بينما يجتهد ليبلغ مكانًا قبل حلول الليل.

كان مثل غريق تختصر غريزة الحياة مشاعره وتفكيره في سبل النجاة. أحسّ بفقد أبيه كما لم يحسّه من قبل، وسيطر عليه شعور بالخجل من كونه وحيدًا مظلومًا ومثيرًا للشفقة. مضى في تلك الساعة المبكرة حذرًا، فوق التراب المبلّل بالندى الهشّ كالرماد تحت قدميه. وعندما اختفت العشّ خلف الشبّورة، تذكّر أنّه ترك وراءه مباركة، شاعرًا بقبضة تضيّق تنفّسه، وبنار حقيقيّة تنهش قلبه، لكن كان عليه أن يتقدّم في طريقه.

كان يعرف أنّ مدنًا وبلدانًا توجد خارج العشّ، ولكنّه كان يتلقّى أخبارها كما لو كانت شيئًا من الحكايات الخرافيّة. لم يحاول من قبل أن يتصوّر أين تكون طالما أنّه لن يحتاجها. ولكنّه وجد نفسه فجأة مقذوفًا خارج الرحم. العمّة التي لجأ إلى بيتها لم تنصفه من أخيها، ولم يكن بوسعه أن يواصل العيش ضيفًا عليها، بل عليه أن يبحث لنفسه عن مأوى ويبدأ العيش أجيرًا؛ هو الذي كان يتصرّف حتى الأمس كأحد أغنياء القرية، متغاضيًا عن أفعال

عمّ، يخجل من تسيّبه وسهره مع من يراهم أدنى مكانة من عائلة الديب، وليته اكتفى بهذا، بل أسفر فجأة عن وجه عدوّ.

فكّر منتصر في إحدى المدينتين: بلبيس أو الزقازيق اللتين يقصدهما الناس على الركائب، لم يكن يعرف أيّهما يختار ولا كيف يتّجه لإحداهما، فقرّر أن يترك نفسه للطريق بين حقول البرسيم والقمح الذي اصفرّ لونه ونضجت سنابله، تقوده رائحة بول الركائب وآثار روثها، وكلّما تعب استلقى قليلاً تحت توتة وغيّر طعم المرارة في فمه ببعض ثمارها.

واصل سيره، تحت شمس أخذت تتحرّك بثقل إلى الاتّجاه المعاكس، يظلّله سرب من طيور اللقلق التي لم يرها أحد منذ مئات السنين، لكنّها باقية في الذاكرة بسبب اسم العشّ، الذي يستدعي دائمًا قصّة التأسيس، ويجعلها حيّة تتوارثها الأجيال. بعض من لمحوا منتصرًا يسير تحت السحابة السوداء حذّروا من عودة الطيور إلى مهاجمة العشّ التي لم تستطع أن تحمي شابًّا من شطط عمّه وظلمه، بينما أكّد البعض الآخر أنّها لم تكن طيورًا؛ بل سحابة ظللت اليتيم.

قرون عاشها أهل العشّ بغبطة النسيان، قبل أن تفاجئهم عاصفة من الغبار، انحسرت عن سبعة رجال فوق ظهور الخيل يعلّقون البنادق في أكتافهم، ويحملون دفاتر كبيرة. توقّفوا في حيرة من تنظيم القرية التي بلا ساحة رئيسيّة، وتبدو كلّ نقطة فيها مركزًا. وليس بها حارات مسدودة النهايات، بل شوارع متساوية يفضي أحدها إلى الآخر، وتفضي كلّها إلى الحقول. وليس بها بناء مميّز يمكن أن يشير إلى أبرز سكّانها؛ حيث كلّ الدور من طابق واحد من اللبن بلا تمايز في الحجم أو الشكل.

سأل الغرباء عن كبير القرية بلغة مبهمة أكملوها بالإشارة. ولم يكن لدى من تحلّقوا حولهم أدنى فكرة عمّن يجب أن يتكلّم باسمهم. قالوا:

ـ كلّنا.

كانوا حتى تلك اللحظة مخلصين لحالة المساواة الكاملة التي وضعها أجدادهم، وقد شملت كلّ شيء: أشكال الدور وأحجامها، مساحات الحقول، وتتابع الأجيال في العائلات. كان الأجداد المؤسّسون ينتمون إلى قرى مختلفة التقت بهم طرق الهرب من الضرائب الباهظة عند مستنقع، شرعوا في تجفيفه وتأسيس قريتهم على أرضه السبخة قليلة الرجاء. ولكي يضمنوا عدم تخلّي أحدهم عن الآخرين والعودة إلى قريته، تعاهدوا على نسيان كلّ ما تركوه وراءهم من ذكريات، حتى الأسماء القديمة استبدلوا بها أسماء من حياتهم في هذه البقعة العنيدة.

بدأوا باسم قريتهم، ثم جاءت أسماؤهم؛ من نجح في استنبات القمح للمرّة الأولى سمّوه القمحاوي، ومن غلّت أرضه أعلى معدّل فول صار الفولي، ومن أنجبت جاموسته أوّل عجل ذكر حملت عائلته لقب الفحل، ومن اعتاد لحس إصبعه بعد الأكل سمّوه اللاحس، ومن عضّ أذن جمله الحرون سُمّي العضّاض، ومن سار أمام حماره بدلاً من أن يركبه سُمّي الجحش، ومن اختار صناعة الحصير سمّوه الحُصَري.

بعد قرون نشأت قرى جديدة بالقرب من العشّ، لكنّها ظلّت بغير حاجة إلى الاتّصال بغيرها، ولم يكن لدى أحدهم تصوّر عمّا يمكن أن يفعله بزيادة مفاجئة في محصول الذرة أو القمح، فكان يبقيه حتى يطلبه جار لم تغلّ أرضه كما يجب، وإذا فاجأته جاموسة أو بقرة بعجلين توأم، ينذر أحدهما لوليمة.

ظلّت منسية، حتى جاء من أوروبا مغامر جديد، حلم بوضع

مصر درّة على تاجه. وسرعان ما فسّر حلمه على هيئة سفن تحمل مدافع لم تخطر على بال الحكّام العبيد المهرة في القتال المتلاحم بالسيوف. ولم يعن اندحار المماليك سقوط البلاد ثمرة ناضجة في حجر نابليون الذي حمل علماءه معه للإسراع في فحص الجوهرة. أبلى المصريّون حسنًا في الدفاع عن بلادهم. وعندما رأى السلطان العثماني كيف تمكّنوا من إعادة الإمبراطور مكتئبًا إلى باريس، شاركهم ازدراءهم للمماليك، وحقّق مطلبهم بتعيين الملازم الألباني محمّد علي واليًا.

ولم يتصوّر أحد أنّ انتفاضة عمر مكرم، التي نجحت في تحرير مصر من حكم العبيد، هي التي ستؤدّي إلى احتلال العشّ.

بعد أن ذبح الضابط الطموح منافسيه الخطرين في وليمة القلعة، وقف أمام خريطة مفصّلة لمصر والبلاد المجاورة؛ ليقرّر أيّها سيحتلّ أوّلاً. مرّر يده على منابع النيل، ثم تطلّع شرقًا إلى الأناضول وغربًا إلى رمال ليبيا، ورسم دائرة طوّقت مصر مع برقة والسودان والحجاز والشام، وتحرّكت شفتاه بابتسامة غبطة، ثم أطرق طويلاً، منتبهًا إلى نقطة متناهية الصغر بلون مراوغ، بين خضرة الوادي وصفرة الصحراء. ضغط إصبعه؛ فلم يشعر بالبلل. ولم يغص الإصبع في الرخاوة المفترضة لطين مستنقع لم يجفّ. هزّ رأسه دهشة من تطلّعه إلى غزو دول أخرى، بينما توجد جيوب داخل مصر نفسها لا يعرف عنها شيئًا، ومن المحتمل أن يلجأ إليها المماليك الفارّون، خاصّة أنّ الأكثر مهارة هم الذين تمكّنوا من القفز بأحصنتهم من فوق أسوار القلعة.

أمر الملازم، الذي حمل لقب باشا فيما بعد، بتجهيز الحملة الأصغر من كلّ الحملات التي سيرأسها ابنه إبراهيم بعد ذلك إلى الحجاز والشام والسودان، لكنّها كانت كافية لتغيير الحياة في العشّ إلى الأبد.

أمضى الغرباء أسابيع طويلة. متنعّمين بضيافة كريمة. أحصوا البشر والبهائم ومساحات الأرض، واطّلعوا على مخزون كلّ بيت من الغلال في الصوامع، والجبن القديم في الجرار المدفونة وسط الحطب على الأسطح، والسمن ودهن الذبائح في الخوابي والجرار المعلّقة في السقف بعيدًا عن الحشرات. لم يلاحظ رجال الحملة الإحصائيّة أنّ أيًّا ممّن استجوبوهم كان يخفي شيئًا من أملاكه أو يضلّلهم عند الإدلاء بأيٍّ من البيانات. لكنّ المشكلة أنّهم كانوا يتلقّون البيانات أكثر من مرّة، لأنّهم يخطئون الاتّجاهات، ويدخلون الشارع الواحد بعد لحظات من مغادرته؛ فيجيبهم السكّان من دون أن يتذمّروا من إعادة إملاء بيانات أدلوا بها من قبل. كان عليهم أن يقضوا الليالي على ضوء مصباح زيت شحيح، يحذفون التكرار الذي خلقه تشابه الشوارع وتشابك شجرات العائلات. وعندما انتهوا من مهمّتهم رحلوا في حالة من التشوّش، حتى إنّهم توقّفوا على الطريق أكثر من مرّة استجابة لنداءات، تلاحقهم لاسترجاع أشياء نسوها.

كاد النسيان يطوي الزيارة، لكنّ عاصفة جديدة أقبلت، وأسفرت عن تركيٍّ آخر على حصانه يكبس طربوشه الأحمر حتى أذنيه، فيبدو بلغده المترجرج مثل ديك رومي، يحرسه سبعة من الجنود المسلّحين فوق سبعة من الحمير.

أبرز متين آغا مرسوم تعيينه عمدة للعشّ، ومخطّطًا دقيقًا للقرية، عليه علامات بالألوان. أشار إلى الدائرة الحمراء في الوسط، وأمر أصحاب البيوت الواقعة داخل نطاقها بإخلاء بيوتهم، لكي تُبنى سراي العمدة حتى يكون على مسافة متساوية من الجميع. وقال إنّ التعويض عن دورهم سيأتيهم في بداية السنة الجديدة. ثم أشار إلى نجوم رُسمت في نهايات بعض الشوارع، مشدّدًا على ضرورة إغلاقها لتتحوّل إلى حارات؛ حيث يجب تقليل عدد المداخل، حتى لا تكون العشّ مباحة أمام اللصوص.

لم يعرفوا حجم التعويضات التي سينتظرونها جيلاً بعد جيل، إلى يوم القيامة، لكنّهم أطاعوا الأمر حيث لم يكن الرفض مطروقًا بعد. لم يعرفوا، حتى تلك اللحظة، اختلاف المصالح بين من يطلب ومن يلبّي الطلب.

بدأوا في عجن الطين بالتبن لصبّ قوالب الطوب، ثم شرعوا في بناء بيوت بديلة خارج القرية لأصحاب البيوت المُزالة. كما بنوا حوائط تسدّ الشوارع في مواضع النجوم.

وبدأت عربات تجرّها البغال تتدفّق على العشّ، محمّلة بالأحجار البيضاء وموادّ البناء الأخرى. وشرع البنّاؤون في بناء السراي وأحاطوها بسور، زُرعت داخله شتلات المانجو والبرتقال والليمون التي لم يرها أهل العشّ من قبل، مع ورد ونخيل للزينة. وفي مواجهة السراي بُنيت من الطوب اللبن دار لسكن الجنود، وتخزين السلاح، بغرفة مفتوحة على الشارع، يسهرون فيها لمراقبة أسوار السراي.

وعندما اكتمل كلّ شيء، جاءت العربات تحمل الأثاث، يتقدّمها الجنود السبعة الذين خرجوا لاستقبال الركب خارج العشّ، بينما كان العمدة في الكاريتة مع زوجته وولديه وابنته. توقّفت العربات وهرولت أسرة متين أفندي أوغلو إلى داخل السراي في احتياط أمني، لم يفهمه الذين اصطفّوا لرؤية عائلة بيضاء كاللعب. لم يقترب أحد من السراي لمدّة طويلة، ولم يرهم أحد خارج السور، وكان كلّ ما يشغل أهل العشّ هو معرفة إن كانوا يستطيعون الحديث، وبأيّة لغة يتفاهمون. وحتى عندما بدأت بعض النساء دخول السراي للمساعدة في التنظيف، كُنّ يندهشن من تلك الشقشقات الغريبة التي تشبه التعاويذ السحريّة وتتبادلها الأسرة، ويتعجّبن كيف يكون لتلك الطلاسم الصوتيّة معنى.

واصل الجنود حراسة السراي عدّة أشهر، ولم يرحلوا إلّا بعد تدريب الخفراء من أبناء العشّ على استخدام السلاح وتنظيفه وصيانته. راعى متين أفندي أوغلو في اختياره للخفراء أن يكون كلّ واحد من عائلة؛ بحيث يضمن ولاء أكبر عدد ممكن من العائلات. وللمرّة الأولى أصبح بين أبناء العشّ من يعملون شيئًا آخر غير فلاحة الأرض، ويتقاضون نقودًا مقابل سهر لا يعرفون الحكمة من ورائه، لكنّه حقّق تسلية كبيرة لعائلاتهم؛ فكانوا يشبعون فضولهم برؤية أبنائهم الخفراء مستغرقين في لعبة فكّ وتجميع أجزاء البنادق التي لم تعرف مواسيرها الإحماء في ذلك الجيل، ولا في الجيل الذي تلاه.

كانت أوامر متين أفندي، ومن بعده أوامر ابنه أورهان، تُنفّذ

من تلقاء نفسها. ولم يعرف الرفض طريقه إلى قاموس العشّيّين إلّا عندما أثقل العمدة الحفيد عصمت عليهم بالضرائب والأوامر المذلّة. ضاعف الفِردة التي سنّها جدّه على المواليد وحفلات الطهور والزفاف وعقود البيع والشراء التي صارت شائعة، وأنهت حالة المساواة بين عائلات القرية، كما زادت أوامر العمل المجّاني في حقول العمدة ومزارع الدواجن والمواشي التي أنشأها متين، وتضاعفت على مدى الأجيال الثلاثة. وفوق كلّ هذا كان على كلّ راكب أن يترجّل عن حماره أمام السراي.

كان عليّ الديب عائدًا من الحقل بجاموسة وحيدة تبقّت له من مواشيه التي تبدّدت بالبيع والموت جوعًا. وفعلتها الجاموسة أمام السراي، عندما كان عصمت جالسًا يستمتع بمراقبة غروب الشمس كما اعتاد، فأمر الخفراء بإيقافه وإجباره على حمل روث الجاموسة في حجره.

عندما دخل داره، ألقى بالجِلّة في الزريبة، والتقط عصًا غليظة وأخذ يضرب الجاموسة بغضب حتى أدمى ظهرها وتورّمت يداه، ولم يبد عليه أنّه ينوي التوقّف. حمله ابنه سلامة بعيدًا عن الجاموسة قبل أن يقتلها، واستلّ نبّوتًا وخرج باتّجاه السراي. منعه الخفراء من مهاجمة عصمت الذي أمرهم بإلقائه في زنزانة كان قد أضافها إلى المبنى الأمني.

في الصباح، وجدوا باب الزنزانة مفتوحًا، وليس هناك من أثر لسلامة. أوقف العمدة خفراءه صفًّا واحدًا يسألهم كيف شقّ سلامة طريقه بينهم، وهم ساهرون أمام باب السجن. صفعهم واحدًا

واحدًا، وأمرهم بأن يدخلوا الزنزانة وأغلق بنفسه الباب خلفهم.

ـ مكانه يا بقر، لحدّ ما تقولوا فين راح فلّاح كلب.

وبعد أيّام قليلة، طلعت الشمس على أرض عصمت وقد صارت شجيرات القطن حصيرة خضراء. لم يبق عود واحد واقفًا في أفدنته الخمسين. ولم ينجح الخفراء الذين عاد إلى إطلاقهم، ولا تعزيزات الأمن التي جاءته من المديريّة، في حماية أملاكه. على مدى ثلاث سنوات لم تكمل نبتة نضجها في أرضه، ولم تبق بهيمة واحدة في زريبته. فَقَدَ عصمت هيبته ورأى الشماتة في العيون، حتى الخفراء أصبحوا يتغامزون ويهمسون، بعضهم للبعض الآخر، في وجوده، ويتراخون في تنفيذ الأوامر. أصبح بقاؤه مستحيلاً؛ فبدأ في عرض أرضه للبيع قطعة قطعة، ولم يجد مشتريًا للسراي فأغلقها، وحمل ما تمكّن من حمله من الأثاث على مجموعة من العربات، وغادر بأسرته العشّ بالطريقة نفسها التي وصل بها جدّه متين، منذ ثمانين عامًا.

وعادت العشّ إلى حالة المساواة التي تمتّعت بها في قرون التأسيس الأولى. لم يقبل أحد من أبنائها بتولّي منصب العمدة، ولم تجد السلطات المشغولة بمطاردة سلامة ضرورة لإرسال عمدة جديد.

أخذت سرقة مواشي العمد والأغنياء بالمنطقة تتوالى، وأصبح حشّ الزرع أو حرقه أقلّ عقاب يمكن أن يتلقّاه عمدة في مديريّة الشرقيّة، عندما يتجاوز حدوده مع أحد من عائلات أفراد العصابة التي شكّلها سلامة من أصدقائه في قرى المنطقة.

لم يعد أحد يراه في العشّ، لكنّ الجميع يعلم أنّه لم ينقطع عن النوم في فراشه ليلة واحدة، يعود في جوف الليل، ويخرج قبل الشروق، حتى الليلة المشؤومة، عندما قام بسرقة مواشي الخديو من زرائبه في أنشاص. وزّع المهامّ على أفراد جماعته، وتولّى تأمينهم من فوق السطح، وعندما تمّت العمليّة قفز نازلاً ليلحق بهم، لكنّ كعب بندقيّته انغرس في جنبه.

لم يشعر في البداية بأيّ ألم، حتى إنّه استمرّ في تبادل النيران مع حرّاس الزرائب الخديويّة إلى أن تأكّد من ابتعاد السحّابين بقطيع الجاموس والبقر. وتمكّن من الإشراف على ذبح العجول وتوزيع لحومها في الليلة ذاتها، ولم يعد إلى العشّ إلّا بعد أن وصل كلّ المشاركين إلى قراهم بأنصبتهم من البقر والجواميس الولّادة.

بعد ثلاثة أيّام كانت الكدمة الزرقاء بجنبه قد صارت ورمًا مخيفًا، وبدأت الآلام غير المحتملة في كليته. فشلت كلّ أنواع اللبخات في وقف تضخّم الورم. ومات سلامة في اليوم السابع من دون أن يتألّم أو يسعى إلى طبيب. حاصر الأمن المعزّين في المضيفة، وتمّ إلقاء القبض على نصف عصابته أثناء الجنازة، بينما فرّ من استطاع الفرار.

كانت هذه العمليّة هي اللقمة الكبيرة التي اختنقت بها جماعة سلامة، ولم يبرأ من ألمها الخديو عبّاس حلمي، الذي عاش طوال ما بين الحربين منفيًّا يهتف المصريّون بمطلب عودته. كان يردّد لحاشيته، طوال ثلاثين عامًا في منفاه بإيطاليا، أنّ أكثر ما يؤلمه هو أن يموت من دون أن يرى الإنجليز خارج مصر، أو يرى سارقي

عزبته داخل السجن، وعندما مات وجدوا بين أوراقه قائمة بأسماء أعدائه احتلّ فيها سلامة المرتبة الثانية بعد الحاكم الإنجليزي اللورد كرومر، وقبل الشابّ المأجور محمود مظهر الذي أطلق عليه النار في تركيا، عند زيارته الباب العالي.

كان منتصر جنينًا في بطن أمّه عندما مات أبوه. وواصلت الأرملة الشابّة الحياة في بيت زوجها حتى ولدته. وكانت تنتظر اليوم الذي يطلبون فيه موافقتها على الزواج من مجاهد، لكي يربّي ابن أخيه، لكنّها فوجئت بخطبته لابنة عمّه حفيظة. ألقت إليهم بمنتصر، وقالت إنّها تريد هي الأخرى أن تتزوّج، ولن تترمّل لترعى لهم لحمهم.

تمّ التعجيل بزفاف حفيظة إلى مجاهد الذي كان مجنّدًا في ذلك الوقت، لكي تتولّى رعاية منتصر اليتيم. في ليلة عرسها الحزين، تدهور مجاهد وسقط بها عندما تلقّفها من فوق ظهر الحصان؛ فصفعه عمّه غاضبًا. وعندما أغلق عليهما الباب افترعها بإصبع وضع فيه كلّ غيظه من إهانة أبيها له أمام الجميع، ثم أعطاها ظهره وهو ينشج حتى سقط في النوم.

في منتصف الليل طرقت حماتها ألحاظ الباب تطلب منها الخروج لتغيير أقمطة منتصر الذي وجدته ملتاثًا في برازه. كان عمره تسعة أشهر فقط، وكان عليها أن تتعلّم كيف تتعامل مع رضيع قبل أن تعرف الحمل أو الولادة. تحلب له المعزاة وترضعه حتى يشبع، ثم تستلقي بجواره وتخرج له نهدها، بعد مجّتين لا تبلّلان شفتيه كان يلفظ النهد، لكنّه يواصل خمشه بأصابعه حتى تنام،

فتكمل الليل في حضنه، أو ينام هو، فتتركه لجدّته وتنصرف إلى غرفتها مع مجاهد، تغفو وأذنها متيقّظة تنتظر صرخة حماتها عليها في أيّة لحظة.

تمنّت لو كان منتصر ابنها، مدفوعة بحبّ غامض لأبيه الميّت، لا علاقة له بحبّ النساء للرجال، لكنّها أحبّت مهابة ابن عمّها الذي كان مجرّد ذكر اسمه يُثير الرعب في القلوب، والذي صنع للعائلة هيبة ليس في العشّ وحدها، بل في كلّ المنطقة.

لم يجمعها بمجاهد إلّا التسافد الكسول في إجازاته القصيرة. لم يكن يصل إلى العشّ حتى يخرج إلى أصدقائه في جلسات تحشيش تنتهي قرب الفجر، يعود بعدها ليرتقيها ناعسًا.

واصلت حياتها مع أبويه ستّ سنوات، مثل أرملة تقطع ترمّلها في إجازات قصيرة، تكاد لا تراه فيها. تعمل في البيت والغيط، تتحزّم على وسطها بسلخة تيل، وتمسك بالفأس كرجل. وعندما تكون هناك ضرورة للاستعانة بأحد الأجراء تمنحه رغيفًا من الخبز الحاف ليأكله بشيء من خضرة الموسم في الأرض، أعواد من الفجل أو الجرجير في الصيف والجعضيض أو السريس الذي ينمو تلقائيًّا وسط البرسيم في الشتاء، وعندما يطلب منها الأجير أن تضيف رغيفًا آخر، تجيبه:

- رغيف كفاية قوي.. بسّ ابقى صغّر اللقمة وكتّر الجعضيض!

عندما تمّ تسريح مجاهد من الخدمة العسكريّة، عاد إلى العشّ مولعًا بالخيل التي عرفها أثناء خدمته. اشترى فلوة صغيرة وبدأ

بتدريبها، وانصرف بها عن كلّ شيء. ورأت فيه حفيظة ما لم تتمكّن من رؤيته أثناء الإجازات القصيرة. اعتبر عملها في الحقل شيئًا مفروغًا منه، وعاش مستغرقًا في نفسه. سهر بالليل، وتوحّد مع المهرة بالنهار، حتى إنّه لم يكن يلحظ وجود الأطفال، كأنّهم يخصّون حفيظة وحدها.

كانت نجيّة ـ أوّل حظّها ـ قطعة لحم مجعّدة بدأت بالنموّ، ويومًا بعد يوم نمت لها أطراف وتركّزت التجعيدة في الوجه وحدبة كبيرة تتحرّك بها الفتاة مثل عجوز، بعدها توالى ميلاد الذكور: سلامة، ناجي، وعلي؛ الذين صاروا، مع منتصر، سندها وعالمها السعيد.

لم تجمعه بهم مائدة إلّا في الأعياد والمواسم. كانت ألحاظ، المرأة النحيلة الصلبة مثل مسمار، قد رتّبت الأكل في البيت على ثلاث طبقات. زوج الحمام أو الديك لمجاهد وأبيه، العسل الأسود والجبن وربّما قليل من القشدة للأطفال الذكور، وبينهم منتصر الذي دخل في زمرة الرجال منذ بلوغه، مستعيدًا مكان أبيه على الطبليّة، وفي النهاية طعام الإناث لها ولحفيظة مع نجيّة: أحرف خبز جافّة كالأظافر من بقايا الأرغفة، مع المشّ أو نارنجة مخلّلة، وقليلاً ما يحظين بطبق من الملوخيّة أو البامية عندما تتوافران في الحقل، مطبوخًا على مرق الطيور التي يأكلها الرجال.

مرّة واحدة عادت حفيظة من الحقل ووجدت بانتظارها طاجنًا من اللحم أخرجته الحماة من الفرن، ووضعته أمامها. أصابتها دهشة لم تمنعها من الأكل بشهيّة، وعندما أُتخمت صارحتها بأنّ ما

تصوّرته أرنبًا كان قطّة، لكي تعلّمها ألّا تنظر ثانية لطعام الرجال. كانت ألحاظ تقول إنّ النساء لا يحتجن الغذاء مثل الرجال، وصار اعتقادها قانونًا لم تقو حفيظة على مخالفته، حتى بعد وفاة الحماة.

لم تشعر بإنسانيّتها إلّا بعد أن كبر منتصر وسلامة، وتبعهما ناجي وعلي، وأغنوها عن العمل في الحقل. وجدت نفسها ملكة لخليّة نحل قائمة على الحبّ، ليس من بين سكّانها مجاهد، على الرّغم من ازدياد شراسته، وتبديده ناتج كدّهم. ظلّ بعيدًا عنهم، لا تجمعه معهم جلسة، ولم يعد يجمعه بها فراش. ولم تعرف غريزة الغيرة، على رغم ما سمعته عن علاقاته بغجريّات الموالد.

وعندما سلب مباركة من ابن أخيه، لم يكن همّها أنّه سيتزوّج بأخرى؛ فقد كان رأيها أنّ قرفه يجب أن يوزّع على خمسين امرأة، لكنّها تألّمت على هجاج منتصر، ابن الغالي، كما اعتاد كلّ أهل العشّ الإشارة إليه.

ـ آه، لو عضام القبر بتتكلّم!

قالت حفيظة متأسّية، وهي تتذكّر عندما قبَّل منتصر يدها وجبهتها وأزاحها وإخوته برفق من طريقه. خنقتها الدموع وبصقت على الدنيا، الزريبة، التي لا تبقي على مزاودها إلّا شرّ البقر.

نقل مجاهد سهرته إلى بيت العروس. يأتي بعد صلاة العشاء بينما تكون قصعة النار جاهزة أمام بدر مع الجوزة وأدوات الشاي. يخرج ورقة المعسّل وقطعة الحشيش من جيبه، ويشرع في تقطيع الحشيش قطعًا صغيرة بحجم حبّات القمح، يدفنها وسط كمشة المعسّل بالحجر تحت عيني بدر المندهش.

بدأ يتصرّف كصاحب بيت؛ يخلع عمامته ويضعها بجواره على الحصيرة، فتبدو مثل رجل ثالث ابتلعته الأرض. وبدأ بدر، الذي لم يعرف من قبل أكثر من كوب الشاي، يشاركه التدخين بشغف طفل يكتشف الحياة، غامرًا مجاهد بغبطة التفوّق التي لا تتوفّر في السهر مع الحشّاشين المحترفين، ومتعة الإحساس بأنّه مصدر إعجاب، بدلاً من عدم الاحترام الذي يلاقيه في بيته، حتى ولو بالنظرات المقتحمة الصامتة. لكنّ كلّ هذا لا يمنعه من الفضول الدائم لتجلّي مباركة التي لا تظهر إلّا عندما يطلب منها أبوها بعض

القوالح، أو تغيير ماء الجوزة. تدخل صامتة، تلاحقها عينا مجاهد، تتأمّلان جسمها وتتلصّصان على فتحة صدرها عندما تنحني، تتّسع حدقتاه تلتهمان نهديها، تشعر برشقة عينيه فتلمّ فتحة صدرها بهدوء، لكنّ عينيه تظلّان معلّقتين بحلمتين بطول عقلة الإصبع، متوهّجتين تحت الجلباب.

يومًا بعد يوم كانت تواصل الانزلاق إلى قعر أحزانها خلف قناع من اللامبالاة التي تتصرّف بها مع الرجلين. تسرح أحيانًا فيرفرف قلبها للحظات وهي تتصوّر منتصر قادمًا من ورائها، تغمض عينيها وتستحضر الصوت:

ـ إزّيّك يا مباركة!

وسرعان ما تعود ليأسها. تشمل منتصر بغضبها، وهي تفكّر في البساطة التي غادر بها العشّ. لماذا لم يقاتل من أجلها؟ لماذا لم يجبر عمّه على مجلس يحكم بينهما؟ هل نسيها؟ هل سيعود ليقتصّ لها ولنفسه؟

وسرعان ما تتحوّل مشاعرها تجاهه إلى الشفقة، وتتخيّل الصعوبات التي واجهها بعيدًا عن العشّ، مجرّدًا من أيّ شيء. تومض عيناه الشبقتان وتتكاثران حتى تمسيا نجومًا ترصّع السماء فوقها، ومن عمقهما تولد صورة أمّها التي بدأت تلحّ عليها، وتتذكّر تعليقها عندما حكّمتها إحدى جاراتها بين خطيبين تقدّما لابنتها، أيّهما تختار، أجابت باقتضاب:

ـ الراجل الجميل زيّ الكردان ع السدر.

لا تذكر من كانت الجارة التي طلبت المشورة، ولكنّ تلك اللحظة صارت من اللحظات النادرة التي تستحضر فيها أمّها بلا أيّ تشوّش: استدارة وجهها الأسمر بحمرة النحاس، الشعر الأسود الناعم الذي كانت تُدلّي منه مقصوصين على العينين العسليّتين المرسومتين بأناقة بالكحل القادم رأسًا من الحجاز، الوشم الأخضر أسفل الذقن الموسوم بطابع الحسن.

هي اللحظة الوحيدة التي تستحضر فيها أمّها مكتملة بالصوت الأكثر عذوبة في الدنيا؛ لم تتحيّر في الاختيار، وإنّما خرج صوتها واثقًا وباترًا.

- كانت حاسّة باللّي هيجرى لي؟

تسأل مباركة نفسها، متأسّية من ذلك الحسم في الردّ الذي يبدو الآن دفاعًا عنها، حيث لم تحظ بأكثر من نظرات العطف ومصمصة الشفاه والترحّم على الأمّ، من نساء يدركن معنى أن تُدفن وردة لم يكتمل تفتّحها مع كهل في سنّ أبيها.

اتّفق مجاهد مع بدر على موعد الزفاف بعد جني القطن، وأقسم أن يشتري لها سريرًا يصلح لزوجة حكمدار الشرقيّة. وعندما أخبرها أبوها أنّهم سيذهبون صباحًا إلى بلبيس لشراء جهاز عرسها، أومأت بما يفيد سماعها الرسالة. لم يبد عليها خوف أو فرح أو غضب. مجرّد ظلّ خفيف من فضول إلى رؤية المدينة.

وعندما عاد بدر من صلاة الفجر أيقظها لتسرج الحمار ببردعة المناسبات المكسوّة بفرشة من الصوف الملوّن. وجاء مجاهد فوق مهرته، يسحب حمارًا لأبيها، ووجدت نفسها تنطلق مع الرجلين

على ثلاث ركائب تترك وراءها نقوش أرجلها على تراب الطريق المبلّل بالندى.

تحت أوّل شعاع لشمس الصباح الحنون لاحت بلبيس، فغمر مباركة خليط من الفرح والاضطراب. وكان أوّل انطباع لها على أبواب المدينة هو الإحساس بالبذخ. أحسّت بأنّها في عالم خيالي من عوالم الحواديت، كأنّه الجنّة ببيوته المبنيّة بالحجر، والفرندات الواسعة المطلّة على حدائق صغيرة أمامها. فتحت عينيها على مشهد امرأة شقراء ينسدل شعرها تحت قبّعة، وترتدي فستانًا يكشف ربلتي ساقيها وصدرها، تتأبّط رجلاً أشقر مثلها، يرتدي سروالاً ضيّقًا تبرز فيه إليتاه.

ترجّلوا أمام وكالة كبيرة لإيداع الدوابّ، يقف على بابها حارس، سلّموه الركائب. وانطلقت خلف رجلين يتداولان حول ما سوف يشتريانه من أجلها. كلّما تقدّموا خطوة تصبح الأرض البازلتيّة أكثر هشاشة تحت قدميها، ويزداد دوارها لمرأى الدكاكين النظيفة ورائحة الشواء التي تتصاعد من حوانيت الطعام.

وفجأة سيطر عليها هاجس ظهور منتصر في زاوية من الزوايا. كيف سيكون التصرّف في تلك اللحظة؟ ماذا سيفعل الرجلان؟ أخذ الهاجس يتصاعد وهي تمسح الفضاء بعينيها. وللمرّة الأولى منذ أبلغها أبوها بخطبة مجاهد أحسّت من نظرته المندهشة إليها أنّه يعرف ما تفكّر فيه. اضطربت للحظة، ثم استعادت تماسكها ومضت خلفهما، تدير الأمر في رأسها: ماذا لو ظهر وطلب منها الهرب معه؟ ماذا لو نشبت معركة بينه وبين الرجلين؟! تمنّت أن يظهر وأن تتبعه مثل بطلات الحواديت.

مضوا إلى القيسريّة المسقوفة بالخشب المشغول، تنظر إلى أعماق الدكاكين لعلّها تراه، تعشي عينيها حركة الضوء والظلّ على قفف الكركدية والخرّوب والفلفل الأسود والكمّون، من خلال خصلات الضوء النافذة من الفرج في سقف السوق، تشمّ اختلاط الروائح، تتبع الرجلين بين دكاكين القماش، لفائف ضخمة من كلّ الألوان تصل من الأرض إلى السقف. يتحسّس الرجلان القماش، ويجريان الاختيارات والمساومات أمامها كما لو كانت في حلم، حتى انتبهت على جدلهما أمام حمّالات الصدر بعد أن توقّف مجاهد أمامها، من دون أن يفلح في تسمية الشيء الذي غمر ملامحه بالنشوة:

- **عاوزين من ده!**

وحاول بدر أن يصرفه، بلهجة الآمر:

- **يا عمّ.. امش مش وقت البزّازات!**

الألوان الصاخبة للحمّالات المقبّبة برسم النهود، ولهجة الأب الحانقة خلقت ما يشبه الحرج بين الثلاثة، وكأنّ شيئًا مسفًّا يجري في العلن، ولم يكن أمام بدر إلّا أن يصمت ويترك الأمر لمجاهد، من أجل سرعة الخروج من الموقف، دون أن يعلم أنّ هذا الشيء بالذات سيكون أهمّ ما تتحدّث عنه العشّ عندما تتناقل تفاصيل جهاز ابنته.

مع الغروب عادوا بركائبهم، مجاهد وبدر متحاذيين يسدّان الطريق المترب، وخلفهما مباركة وقد ازدان صدرها بكردان ذهبي ضخم يعكس أشعّة الخريف المجهدة فترتدّ وهجًا على وجهها،

بينما طوّق كاحليها زوج من الخلاخيل الفضِّيَّة الضخمة.

بدا الثلاثة مقدّمة شرف لعربة يجرّها بغل، تحمل جهاز عروس لم تر العشّ مثله من قبل. في مقدّمتها دولاب ملابس بمقابض في لون الذهب ومرآة في إحدى ضلفه الأربعة، وخلف الدولاب ثلاث كنبات خشبيّة ينام فوقها سرير من النحاس المشغول، تتخلّل قضبانه مرايا مستديرة وزجاج ملوّن، وفوقه طقم النحاس: حلل وطشوت من كلّ الأحجام وأطباق وإبريق بصنبور مثل عنق الإوزّة، وعدد من الحصر. وفوق كلّ هذا مقاطع من الدمور والقماش المشجّر لكسوة المراتب، وحرير أطلس فيروزي لكساء الألحفة، وفي بقجة من الدمور فستان من الحرير الأبيض مع طرحة زفاف وثلاثة من قمصان النوم من الحرير المطرّز بالدانتيلّا؛ أمّا أعجوبة الأعاجيب فقد كانت تنام هناك داخل القمصان؛ ثلاث من حمّالات الصدر، حمراء وسوداء وبيضاء.

مضت مباركة في الاستعداد للعرس؛ تطرّز أكياس الوسائد وملاءات السرير، تذهب إلى الطاحونة لإعداد دقيق الفرح، تسحق الكحل، تفتل الشعريّة وتحملها فوق الغرابيل إلى الشمس، ثم تحمّصها في الفرن لتأخذها معها خزينًا لبيتها الجديد.

الذين رأوا عدم اكتراثها بجهازها الباذخ، ولاحظوا اللامبالاة التي تواصل بها استعدادها للعرس، أعادوا التأكيد على غموضها، كما أعادوا التهامس حول زواجها من جنّ جعل الشباب يخشونها، وجعلها لا تأسف على منتصر، معتبرين أنّ الذلّ الذي عاشته حفيظة مع مجاهد ستردّه له هذه الصبيّة التي تمضي في أعمالها طوال

اليوم، وكأنّ ما تجهّزه شأن يخصّها وحدها، لا علاقة له بالرجلين اللذين يعودان معًا كلّ ليلة بعد صلاة العشاء وتمتدّ سهرتهما إلى بعد منتصف الليل.

عندما اقترب موعد الزفاف، لم تعد تترك لأبيها وخطيبها قبل أن تنام ما يحتاجانه فقط، من شاي وسكّر، وقوالح أو خشب للنار، بل تكون قد تركت مطالبها بما تريده في بيت الزوجيّة. بكلمات مقتضبة إلى الأب في اللحظة التي يرد فيها الطلب على بالها، عندما تضع أمامه غداءه، أو عندما يطلب منها ثوبًا نظيفًا، أو عند خروجه إلى الحقل. وهو يتولّى بدوره نقل الطلب إلى مجاهد.

ـ البنت طالبة بيت لوحدها.

قال بدر. ورجاه أن يقبل؛ لأنّها ترفض الدخول في غرفة ببيت تشاركها فيه زوجته. ولم يكن أمام مجاهد إلّا أن يستجيب. اشترى دارًا من ثلاث غرف، لكنّها لم ترض بها.

ـ مباركة عايزة الدوّار.

قال بدر، وهو يصبّ له الشاي. صمت مجاهد طويلاً قبل أن يجيب بالموافقة. وهو لا يعرف كيف سيحقّق هذا الطلب على الرّغم من أبنائه الذين يخاصمونه منذ الخطبة التي حرمتهم من منتصر، العمّ والأخ والصديق. وقد حدث ما توقّعه.

عندما نقلت حفيظة لأبنائها طلب الأب، ثار سلامة، وألقى له بملابسه في عرض الشارع، وأغلق باب الدوّار ووقف وراءه بنبّوت

مصمّمًا على قتله إن حاول اقتحام الباب أو نقلهم بالقوّة.

ـ بيكفي عار السهر مع أرازل الناس، والجوازة اللّي خلّتنا فرجة.

ولم يتراجع عن موقفه إلّا بعد أن انحنت أمّه على قدمه تقبّلها.

ـ أرجوك يا بني، كفاية فضايح، أبوك دماغه ناشفة.

وطلبت من مجاهد فرصة، لترضية أبنائه، والانتقال بهم إلى الدار الجديدة. ولم يظفر بهذا حتى كان طلب مباركة الجديد: طلاء الدوّار، فلا يصحّ أن تدخل عروس إلى بيت مهرهر الطلاء. بيّضه بالجير الأبيض كما أرادت. وكان مستعدًّا لتلبية أيّ طلب، إلّا طلبها الجديد بأن تُزفّ على المهرة.

ـ إلّا ده.

قالها مجاهد وهو ينتفض، وأحسّ بدر أنّه لم يكن عليه أن ينقل هذا الطلب بالذات، لأنّ الزمن لم ينجح فيما يبدو في محو الذكرى السيّئة لدى مجاهد ليلة زفاف حفيظة إليه. حتى الآن لم يعرف مجاهد إن كانت تلك الكفّ التي تلقّاها من عمّه في تلك الليلة هي سبب الفتور الذي عاش به مع حفيظة، أم أنّ هناك أسبابًا أخرى.

ـ دي تبقى جرسة، أنا مش صغير عشان أعمل زفّة.

بدا وكأنّه يحدّث نفسه، بعد أن هبّ واقفًا، وانطلق مشيحًا يد بدر الذي حاول تهدئته. لكنّهما في الليلة التالية عادا من الصلاة معًا كما يفعلان دائمًا، وأخذا يتهامسان، حيث تمكّن بدر في

النهاية من إقناعه بالاستجابة لرغبة اليتيمة التي لا يستطيع أن يحرمها من فرْحتها بيوم زفافها. والزفّة حقّها، لأنّها بنت بنوت وليست عزباء.

في يوم الزفاف تكاثفت في السماء سحب اعتبروها فأل خير في هذا الوقت المبكر من الشتاء. بعد العصر تجمّع المدعوّون لمرافقة موكب عشاء العروس الذي تقدّمته حاملات حلل الحمام المحشوّ والأرزّ المعمّر، ثم الجمل حامل المفروشات، ثم العربة التي تحمل السرير والدولاب وأدوات المطبخ. وفي المساء كان مجاهد فوق ظهر مهرته في جلباب صوفي جديد، وعمامة ناصعة، بادي الخجل مصفرّ الوجه، ووراءه عروسه بفستانها من الحرير الأبيض وكردان الذهب الذي يغطّي المساحة المكشوفة من فتحة الفستان، يبرق في ضوء المشاعل فوق نهدين فتيّين يطلّ منبتهما من حمّالة صدر سوداء سبق لكلّ الأيدي أن تحسّستها عندما دارت الملابس على الدور.

لم يكن الفستان جديدًا، فقد أخبرهم البائع أنّه لابنة أحد البكوات تخلّصت منه بالبيع، لكنّه كان الأوّل في العشّ، حيث تُزفّ العروس بعد غسل قدميها وارتداء مركوبها الأوّل في جلباب عادي. وفي مرّات قليلة كان للعروس فستان من الساتان يُراعى في لونه وفتحة صدره المحتشمة أن يكون صالحًا للاستعمال بعد العرس، ولذلك بدت مباركة في الفستان المنفوش تحت خاصرتيها التجلّي الأوّل لمعنى الجسم الأنثوي المنذور للمتعة، وسرت شرارة بدائيّة في الموكب المتوحّد تحت هدير الطبل.

فأل الخير في سحاب العصر تحوّل فجأة إلى سياط من المطر فوق موكب العرس. انطفأت المشاعل وتحوّلت الشوارع سريعًا إلى مخاضة لم يستطع الكثيرون حفظ توازنهم فيها. الطبّالون والزمّارون الذين بدأوا في الهرولة أسرعوا من إيقاعهم، وكأنّ هناك قدرًا من الزمر لا بدّ من إنجازه في نهاية المطاف، فاكتسبت موسيقاهم إيقاع نفير الحرب، وهي آخذة في التباعد، بينما يحاول مجاهد تهدئة المهرة حتى لا تتعرّض للانزلاق.

وعندما وصلوا أمام الدوّار ترجّل بحذر، ومدّ يديه إلى عروسه. قفزت متحاشية يده الممدودة، وتبعته إلى داخل الدوّار الذي امتلأت باحته بالمشاركين في الزفاف. انفتح باب الغرفة التي استقبلت فرشها منذ ساعات قليلة، مضت وراءه بالصمت والحياد نفسيهما اللذين تلتزمهما منذ خطبته لها. أغلق الباب عليهما مع اثنتين من المسنّات. خلّصتها المرأتان من الفستان ودفعتاها فوق السرير، حيث ثبّتتها إحداهما من خصريها وتولّت الأخرى جذب سروالها، وأشرن لمجاهد الواقف بجوار السرير كي يتقدّم.

استمع الصاخبون أمام الباب للصرخة، وتخاطفوا الشاش الملوّث بالدم الذي خرجت به العجوزان. صافح مجاهد صهره والرجال المشاركين في الزفاف، وأخذوا في الانسحاب إلى دورهم. أغلق باب الدوّار وعاد إلى الغرفة حيث تكوّرت مباركة على نفسها مثل جنين، تتساقط دموعها في صمت. تجرّد من ملابسه واندسّ إلى جوارها، بدأ يتحسّس وركيها، فتحرّكت يداها تلقائيًا لتلطمه على رأسه، صرخت من ألم يديها. تشبّث غاضبًا

مهتاجًا بحمّالة صدرها، رفسته بين فخذيه، فأخذ يتلوّى ألمًا، عاضًّا على أسنانه، بينما قفزت من السرير، وأخذت تعالج باب الغرفة. تبعها راكعًا ممسكًا بخصيتيه. ووعدها متوسّلاً بأنّه لن يضايقها هذه الليلة. عادت إلى السرير، لكنّها ظلّت جالسة، ترقب الممدّد بجوارها متقلّصًا من الألم، تتأمّل سقف الغرفة، الذي بدأ يرشح لأنّ السماء لم تتوقّف عن دفق الماء، بينما يكاد عصف الريح أن يقتلع الدوّار من أساسه.

أخرجها شخيره من تأمّلاتها، وأحسّت بسكينة حزينة تنغّصها حرقة جرح غشائها الذي مزّقه ظفر متّسخ. وضعت وسادة على رأسها لتكتم صوته، ومرّت الأحداث بذاكرتها كما لو كانت لعبة تنويم استمرّت أشهرًا حتى وجدت نفسها في هذه الغرفة، التي ربّما كان من الممكن أن تنام فيها مع منتصر لا مجاهد.

ـ معقولة؟!

اشتعل غضبها على منتصر وعلى نفسها؛ فأخذت الغرفة تعبق برائحته، وتردّد في أذنها لهيب صوته: «إزّيّك يا مباركة؟» فانبسطت رحمها المتألّمة رغبة في الغائب. ونامت تحلم بحضنه يسحق ضلوعها، بينما حبلت في العشّ سبعون امرأة على شرف ارتجاج نهديها داخل حمّالة صدرها عندما قفزت من فوق المهرة.

تعرف حفيظة حدود قدرتها على الإغواء وقدرة مجاهد على الاستجابة. لم تحاول أن تدخل في منافسة مع الصامتة المسحورة التي يمكن، بنظرة واحدة، أن توقع في حبائلها النساء، وليس الرجل فقط. حاولت أن تتقرّب إلى مجاهد بالحديث عن أمور أولاده كلّما مرّ بهم لاستطلاع أحوالهم، وأن تذكّره بوجود نجيّة الحدباء، التي لا يبدو أنّها ستجد زوجًا، ولن يفكّر إخوتها في الزواج قبلها.

تشجّعت على مفاتحته في أمر ابنته التي عاش يحاول نسيانها، عندما لاحظت أنّ شيئًا ما تغيّر فيه. لا تستطيع أن تعرف ما هو، لكنّه أصبح أقلّ ضيقًا بها، وأكثر قدرة على الاستماع إليها. واعتبرت هذا التحوّل نتيجة الغبطة التي يحياها مع المرأة الصغيرة، بينما كان سارحًا بذهول من اكتشف الحياة حديثًا، ليس اكتشافًا سعيدًا كما خمّنت حفيظة، لكنّه الاكتشاف المؤلم.

كان يعتقد أنّ الجنس هو ما يفعله الرجل بالمرأة؛ فهو الذي وضع بانصرافه حدود حفيظة في الفراش. وهو الذي يشعل غجريّات الموالد. لكنّه عرف في فراش مباركة كيف تكون الرجولة مهانة وعديمة النفع.

بعد رفسة ليلة الزفاف لم تعد مباركة إلى منع يده عن تعريتها، بل صارت تبادر بالتجرّد من ملابسها تمامًا، ثم تستلقي على ظهرها، ونهداها مشرّعان. ينام جنبها يستحلب ريقه. يدلك جسمها، يقرص حلمتيها؛ فلا تصدر عنها استجابة من أيّ نوع، حتى عندما يدسّ إصبعه مخترقًا جفاف ما بين فخذيها، لا يحظى بأثر لجفول الرفض الذي قابلته به ليلة الزفاف، كما لا يجد سبيلاً لتحريك رغبتها. تظلّ على ثبات الموتى، يسحب نفسه بحيث لا يعود يمسّها ليرى إن كانت ستقترب، لكنّها لا تفعل، يعود ليلتصق بها مستلذًّا دفئها، منتظرًا اللحظة التي يتحرّك جسمها بإشارة قبول تقوده إلى حركة تالية. لكنّها لا تأتي بأيّة حركة. ينهمك ذهنه في وضع الخطط لأخذها عنوة، ثم يتراجع خوفًا من الفضيحة؛ فحتى الآن لا أحد يعرف عنهما شيئًا، باستثناء الخالة حميدة التي تنام في الغرفة المجاورة.

عرف معنى الأرق انتظارًا لرضى امرأة. عاد إلى السهر بعيدًا عن الدوّار، لكنّه ينهي السهرة مبكرًا ويعود منجذبًا إلى سرير مباركة، مثل فراشة تدخل النار باختيارها. ينصت إلى تنفّسها المنتظم، وعواء الكلاب ومواء القطط طوال الليل، وبين وقت وآخر يرفع نفسه قليلاً، ينظر في عينيها، ليرى إن كانت مستيقظة، ويتداعى مغتاظًا من استغراقها.

لا ينتشله من هذا العذاب إلّا أذان الفجر. يقوم إلى الجامع، ويعود من الصلاة محتميًا بنور الصبح، وحركة الخالة حميدة المنهمكة في إعداد إفطاره.

الجارة التي كانت تساعد بدر في رعاية مباركة عندما كانت طفلة، وكانت تقول إنّ المرحومة فاطمة أوصتها بها قبل أن تموت، طلب منها مجاهد البقاء لخدمة العروس الشابّة، وأمله أن تساعده على إلانة دماغها وتعويدها على حياة الزوجيّة. ولم تمانع العجوز وصارت الخادم الأولى التي تبيت في دار المخدومين في قرية لم تعرف الخدم الملازم للبيوت، حتى بيت العمدة التركي قبل أن يفرّ ويترك السراي لسُكنى الأشباح. ولكنّ الخالة حميدة التي وجدت نفسها وحيدة بوفاة زوجها لم تر أيّة مشكلة في إغلاق دارها والعيش في الدوّار مع مباركة، مستلهمة دور الأمّ لا الخادم.

فعل كلّ ما يستطيع لاستمالة مباركة. لم يتأخّر في تلبية طلبها السفر إلى بلبيس، ممنّيًا نفسه برحلة يردفها فيها وراءه على المهرة، قد تقرّبها منه، لكنّها طلبت عربة تأتي خصّيصًا لها. واستيقظت العشّ في ساعة مبكرة ذات يوم لترى كاريتة أثار وقوفها أمام الدوّار فضول الكافّة؛ إذ لا تحضر عربة إلى العشّ إلّا من أجل مريض ميسور في حالة حرجة، وتكون هذه في العادة رحلته الأولى والأخيرة إلى الحكيم الذي يعلن دائمًا أنّهم جاؤوا به بعد فوات الأوان، فيخرجون به إلى مقام سيدي سعدون لتخفّف زيارة الوليّ رحلة عودته الشاقّة من بلبيس. وأحيانًا يموت أمام الضريح نفسه فيحملونه، حيث يُغسّل ويصلّون عليه قبل أن يعودوا به ليُدفن في

العشّ، محسودًا على نفحة البركة التي تمهّد له طريقًا سهلاً إلى الأبديّة.

لم يخل باب موارب ولا نافذة أو كوّة ولا سطح من عين مستطلعة، قبل أن يخرج مجاهد مع مباركة ويستقرّ بجوارها داخل الكاريتة، ويسوط الحوذي الجالس في المقدّمة حصانه فتبدأ العربة في الصرير، بينما تفري تحت عجلاتها قشرة التراب المندّاة.

استقامت العربة بين صفّي الكازورينا اللذين يجعلان من الطريق نفقًا من الظلّ، وسط وهج الشمس الطالعة لتوّها على فضّة الندى الكاسية لخضرة البرسيم. تتحاشى مباركة ملامسة الجالس بجوارها، يحاول التمسّح بها مع اهتزازات العربة، وتتأمّل من مكانها مباغتات أشعّة رفيعة من الشمس تتسلّل من بين الأشجار مثل أحزمة من نور تتوالى على ظهر الحصان العجوز البائس، بينما تهدل يمامة على الأرض وترقّص ذيلَها أمام الحصان، حتى لا يكون بينها وبينه سوى خطوة واحدة فتطير بضعة أمتار وتحطّ ثانية في طريقه.

عندما صارت العربة في مدخل المدينة انتبهت مباركة إلى أنّها لم تترقّب ظهور منتصر، مثلما فعلت يوم شراء جهاز عرسها. لم تكن لديها أدنى فكرة عمّا يمكن أن يحدث إذا ما فوجئت بوجوده فعلاً. غادر مجاهد العربة قبلها، وتبعته مستندة إلى يده التي مدّها باتّجاهها، ثم سارت وراءه تتأمّل الشارع، وكان اقتراب روائح البهارات كافيًا لتعرف أنّهما صارا في سرّة المدينة، على بُعد خطوات من القيسريّة؛ السوق التي سارت بين حوانيتها من قبل.

لم يشعر مجاهد بأنّ الرحلة أفادت في إخراجها من حزنها، أو قلّلت من الجفاء الذي تعامله به. ظلّت طوال اليوم شاردة، زائغة البصر، لم تعبّر عن دهشة أو امتنان، لا في السوق حيث اشترت كلّ ما خطر ببالها، ولا في ضريح سيدي سعدون الذي ألقت عليه نظرة غير مكترثة وسط جموع من الباكين المتدافعين من أجل لمس قضبان حديد الشبّاك.

ورغم ذلك لم يتردّد في الاستجابة كلّما طلبت العودة إلى بلبيس أو الذهاب إلى الزقازيق. وكانت كلّ رحلة تسفر عن شرود أكثر لمباركة ومشتريات جديدة تُثير دهشة الآخرين، مثل طلمبة الماء التي توسّطت باحة الدوّار، وكانت الأولى لرفع المياه النظيفة في العشّ، ولم تسفر عن توقّف الخالة حميدة عن الخروج لجلب ماء الترعة فحسب، بل قصدتها نساء القرية، مأخوذات بنظافة الماء الذي يخرج من باطن الأرض باردًا في أكثر أيّام الصيف حرارة.

لم يدع مجاهد فرصة للشماتة به. يتحمّل الليل في سريرها كمعتقل إجباري يتحرّر منه في الصباح، حيث صار أكثر مواظبة على الاهتمام بأرضه، كما بدأ يكثر من التردّد على حفيظة، مستكينًا إلى حالة ألفة بين أخ وأخته.

كانت حفيظة مستغرقة في رواية الكوابيس التي تهاجم ابنتها العانس وتقلق نومها كلّ ليلة، عندما قال مجاهد سارحًا:

ـ ما عادش غير سوق رفح.

وأجابته مذعورة:

ـ رفح؟! ها تبيع بنتك يا مجاهد؟

ورغم ردّها، أخذت تدير الموضوع في رأسها. وكلّما فكّرت أكثر شعرت بأنّه ليس من العدل أن تعيش البنت وتموت وحيدة، من دون أن تتذوّق طعم الحياة، أو تكون لها ذرّيّة تؤنس شيخوختها. وشيئًا فشيئًا استسلمت للقرار، فربّما أهداها الحظّ شيخًا لم يزل يحتفظ بجذوة الحياة وبذر فيها بذرة طفل. كانت رفح سوقًا للرقيق، ألغي منذ مئات السنين، لكنّه بقي مكانًا للقاء المتوحّدين من المسنّين الذين فقد الجمال أهمّيّته بالنسبة لهم، ويريدون زوجة تؤنس وحدتهم، والعوانس الدميمات اللاتي يأتي بهنّ ذووهنّ لكي يحظين بدفء رجل قد يكون من رفح نفسها، من القدس، العريش، الطور، أو حتى من العقبة أو عمّان.

يومان، مهلة منحها مجاهد للاستعداد للسفر إلى ساحة النكاح برفح. حمّمت حفيظة ابنتها جيّدًا، وجمعت لها ملابسها في بقجة، مع لفّة خبز وجبن قديم وزجاجة ماء. وانطلق مجاهد على مهرته تحت ستار شبّورة البكور، مردفًا خلفه نجيّة، تحتضنه بيد، وتمسك بالأخرى صرّة ملابسها. لم يكن في شوارع العشّ بتلك الساعة سوى ثلاثة رجال، يقبضون على أحبال جاموسات نافدات الصبر في انتظار أدوارها تحت الفحل، لا تكفّ عن النعير والتلويح بذيولها، موزّعات رشاش البول الذي يتدافع منها متوتّرًا، بينما وقفت جاموسة رابعة تستقبل الفحل الذي يحاول التوازن فوقها بتوجيه من صاحبه وصاحب الجاموسة اللذين يخفّان إلى الإمساك بإحليله الأحمر الرفيع المقوّس كمنجل، ويدفعان به إلى حياء

الجاموسة، ولكنّه يخطئه فيعود إلى الأرض معدّلاً من وضعه، ويقفز من جديد طاعنًا الهواء بقائمتيه، والجاموسة التي أمالت رأسها إلى الأرض تباعد بين خلفيّتيها ويخفق حياؤها بنبض متوتّر يكشف عن قلبه الوردي الرطب.

دفع المشهد رحم نجيّة إلى الانقباض والانبساط، محاكيةً حياء الجاموسة. وانشرح قلبها للرحلة، لكنّها لم تلبث أن انكمشت ثانية، عندما وجدت نفسها على أطراف العشّ. أرسلت نظرة مستوحشة لا يمكن تفسيرها على نحو واحد. نظرة تحتوي القرية، فيها عتاب للإخوة الذين لم تشعر يومًا بانتمائها إليهم، ويغطّون الآن في نومهم، فرح الخلاص والحلم بالمجهول، والأسف لفراق الأمّ التي ارتمت على الأرض لحظة خروجهما، بعد أن أطلقت صرخة طويلة أطارت الحمامات التي كانت تهدل في مغازلات مرحة على أسطح الدور.

مضت المهرة بوقع منتظم على تراب الزراعيّة، يحثّها مجاهد بربلتي ساقيه، ولا يكفّ عن وشوشتها بالعتاب أو التشجيع كلّما تعثّرت بطوبة على الطريق، أو نجحت في التوازن فوق رقعة طين سببها فيضان ماء المصرف في موضع منخفض من الشاطئ.

ـ لأ يا حلوة، آه كدا، اسم الله عليكي.

عندما وصلا بلبيس كانت نجيّة تشعر بالجفاف والدوار من رجرجة المهرة وحرارة الشمس. أمام وكالة إيواء الدوابّ ترجّل مجاهد وساعدها على النزول، وسلّم مقود المهرة للكلّاف، مع أجر ضيافتها لمدّة ثلاثة أيّام.

ـ أهه، أستلمها عروسة، زيّ ما هي.

قال، محذّرًا الكلّاف من إهمالها، ودخل معه يطمئنّ على نظافة مربطها، ثم عاد مشيرًا إلى نجيّة لتتبعه. مضت تتأمّل الشوارع، كأنّها في حلم أو في مدينة مسحورة من مدن ألف ليلة وليلة التي يصفها رواة الحكايات في ليالي المولد. دخلت وراءه محطّة القطار، وجلست على الرصيف تتطلّع إلى الجهة التي سيأتي منها. وعندما استمعت إلى الصافرة القويّة لم تكن وحدها التي انتفضت لاقتراب وحش الحديد. عندما توقّف القطار خطت ببقجتها إلى داخل العربة خلف أبيها تراقب النساء الأخريات، لتفعل مثلهنّ. جذبها مجاهد من يدها وأجلسها بجواره على أحد المقاعد الخشبيّة.

ساعات من الصمت، تراقب فيها الأشجار وأعمدة البرق التي تجري في الخارج، وكلّما أوشكت على الغثيان تغلق عينيها، حتى تستقرّ أحشاؤها، ثم يدفعها الفضول للنظر مجدّدًا بإثارة تدفعها إلى التفكير في القفز.

عندما وصلوا إلى رفح انتشر المسافرون مهرولين باتّجاه الساحة التي تصطفّ حولها خيام يعرض أصحابها استضافتهم. مال مجاهد إلى أوّل خيمة، حيث وقف شيخ في مدخلها، رمق الحدباء وسحب نظرته بخيبة أمل أصابتها بغصّة، بينما كان يلمّ باب خيمته كأنّه يريد التراجع عن التلويحة الداعية، لكنّ مجاهد كان قد صار أمامه مباشرة، فدعاه للدخول بلا حماس. تبعته نجيّة متردّدة مثل حيوان مذعور، تتأمّل الخيمة، تكاد تطير وهي تمسّ زرابيّها الملوّنة

بخوف. أشار الشيخ إلى مجاهد كي ينضمّ إلى الرجال المتحلّقين حول النار، وسار أمام نجيّة ليريها الطريق إلى خيمة الحريم، أزاح طرف الخيمة، ونادى:

- يا ولاد.

أطلّت امرأته من الخيمة الأخرى ودعت نجيّة للدخول.

قبل طلوع الشمس دفعت الخيام بضيوفها ومضيفيها إلى ساحة السوق. وقف الرجال ببناتهنّ، وقد تخفّفت كلّ منهنّ من بعض ملابسها كاشفة عن الموضع الذي تراه أكثر جاذبيّة فيها. أفلتت نجيّة شعرها الناعم الطويل، انساب من تحت تربيعتها، متموّجًا على ظهرها مموّهًا حدبتها.

كان الرجال الذين تعرّف عليهم أبوها في خيمة الشيخ مسعود أوّل من داروا حولها، ثم جاء غيرهم لكنّهم كانوا ينسحبون واحدًا وراء الآخر.

أوشك اليوم على الانتهاء، وهي تعلم حجم ما يشعر به أبوها من حزن، ويعلم حجم ما تعانيه ابنته من ألم، دون أن ينظر أحدهما في عين الآخر. في كلّ مرّة يفتعل مجاهد حديثًا مع الوسيط أو مع المرافق، موليًا ظهره للخاطب الشيخ الذي يرفع بعصاه ثوب نجيّة ليرى خرطة ساقها، أو يحدّق في وجهها مندهشًا من فم الضفدع أو يثني شفتها السفلى ليرى أسنان فكّ بلا ذقن تحته.

عندما أكمل شيخ دورته حول نجيّة، بامتعاض أقلّ ممّن

سبقوه، أحسّت بأنّها في مواجهة نصيبها. أخذت هي الأخرى تتأمّله، بينما كان يبدأ بالتعارف مع أبيها. ردّ مجاهد السلام مستبشرًا، وانتظر الكلمة التالية، لكنّ الرجل مدّ يده تحت شعرها في حركة مباغتة، وجفل للحظة قبل أن ينطق:

ـ الله يمشّي سوقك يا بنتي.

قالها، وانصرف بعد أن تبيّن حجم الحدبة تحت الشعر الكثيف.

عندما رأت حفيظة زوجها على ظهر مهرته والحدباء المسكينة خلفه، وفي يدها الصرّة التي ذهبت بها، انتابتها مشاعر متناقضة؛ فرحت بعودة قطعة منها امتنعت عن الطعام حزنًا على ذهابها، وحزنت لاكتشافها قدر الدمامة التي عليها المسكينة التي لم تجد شيخًا طاعنًا مجهول الأصل يقبل بها.

عندما أصبحا وحدهما، حكى مجاهد لحفيظة باقتضاب عن الرحلة. ولم يقل أحدهما شيئًا للآخر، لكنّ كلًّا منهما كان مصمّمًا على رحلة ثانية قَبِل فيها نجيّة شيخٌ من بلدة بفلسطين اسمها المجدل، حيث لعبت المصادفة دورها الخيِّر الذي تحبّ أن تلعبه أحيانًا.

أخفت عاصفة رمليّة شديدة قضبان القطار الذي توقّف بين العريش ورفح، ممّا جعل كثيرًا من المسافرين يحجمون عن إتمام رحلتهم، والقليل منهم فقط واصلوا التقدّم سيرًا في صفّ يشبه طابور أسرى منكسرين تحت عصف ريح تطيح برؤوس النخيل.

مجاهد الذي خرج هذه المرّة مصمّمًا على العودة وحيدًا، كان ينقل قدمه ويغرسها مثل وتد، خشية الطيران. يمسك عمامته بيد ويضرب بالأخرى جلبابه الذي ينتفخ بالهواء فيردّه إلى الوراء مثل شراع في الاتّجاه المعاكس للرّيح. ووراءه كانت الحدباء ترتجف وهي تتشبّث ببقجتها على رأسها، حتى وصلا إلى ساحة السوق المقفرة التي لم يبق منها سوى جذوع النخيل، بينما تطايرت عرائش السعف مخلّفة شكل الفوضى في ساحة معركة انتهت توًّا.

كانت الشمس المختفية خلف حجب الرمال الناعمة توشك أن تكمل غيابها، ولم تلبث العاصفة أن هدأت، وبدأ رذاذ خفيف يتطاير، تحوّل تدريجيًّا إلى سيول من ماء وبَرد تسوطهم في العراء الممتدّ إلى جوار الدور الصغيرة والخيام المتراصّة.

توجّه مجاهد إلى خيمة الشيخ مسعود، شاعرًا بالاطمئنان إلى شخص يعرفه، على الرّغم من أنّه لم يبد أيّ حماس في الوساطة بالمرّة السابقة. لم يكن في الخيمة سوى شيخ فلسطيني وابنه الشابّ المرح الذي لا يكفّ عن المزاح، بينما يسدل الشيخ شاله على رأسه تحت عقال يعبث به بين لحظة وأخرى وهو صامت، يكاد لا يُرى، ولا يتكلّم إلّا ليؤمّن على قول أو يجيب عن سؤال. دارت فناجين القهوة، وقال الشيخ إنّه استراح لمجاهد، وطلب نجيّة للزواج، من دون أن يراها. وقال الابن إنّها ستكون أختًا لخمسة من الرجال، وستكون في عيونهم إذا ما راعت الله في خدمة أبيهم الذي يتوغّل في وحدته يومًا بعد يوم، ويستثقل أعباءه على زوجاتهم.

قرأوا الفاتحة، وكتب مضيفهم العقد وأخذ عمولته، وسهروا حول النار، حتى غفا كلّ منهم في مكانه، متدثّرًا بعباءته.

وفي الصباح ودّعهم مجاهد ومضى إلى محطّة القطار، وفي جيبه جنيه ذهبي وعقد زواج عليه بصمة الشيخ ربعي أبو شرخ، وحكايات عن ثروته من الكروم وأنوال النسيج. وفي الاتّجاه الآخر انطلق حصانان، حمل أحدهما الشيخ أبو شرخ، وفوق الثاني كان ابنه زياد ممسكًا بلجام حصان أبيه ومردفًا وراءه العروس.

أغرق الفيضان العشّ.

اكتسحت المياه شاطئ الترعة، عامت أكوام الذرة المحصودة، وانغمرت شجيرات القطن، وطفت لوزاتها المتفتّحة مثل قناديل تُضيء سطح الماء المزبد العكر الذي حملها مع الحشائش الميتة وأوراق الذرة الجافّة مقتحمًا الدور، وسبح على سطح المياه البطّ والإوزّ حيًّا، بينما غاصت جثث الأرانب والأفراخ الصغيرة التي لم يَنْمُ ريشها بعد. بدأوا بإجلاء الأطفال والمسنّين، على ظهور الجواميس إلى ميت سهيل والبلاشون، الأقلّ تضرّرًا شمال وجنوب العشّ، بينما حمل اليافعون ما يستطيعون من أجولة الحبوب وجرار الجبن، حتى لا يعيشوا عالة على مضيفيهم في المهجر القريب الذي ستختاره كلّ عائلة، حسب علاقات القرابة والمصاهرة.

وأصرّت مباركة على البقاء وحيدة في الدوّار. استعان مجاهد ببدر لإجبارها على الرحيل، لكنّها كانت حاسمة في ردّها.

ـ مش هتحرّك. عشت أو متّ لوحدي.

لكنّها لم تمت. وضعت على سريرها ما يكفي لإبقائها حيّة: خبز وماء وبرطمان جبن، وأغلقت غرفتها في وجه الماء، لكنّه أخذ ينزّ من خلل الباب ومن تحت عقبه، حتى تعادل مع الماء في باحة الدوّار. وهي مستسلمة للظروف، لم تحسم موقفها لصالح الحياة أو الموت. أخذت تتسلّى بمراقبة الأشياء تطفو وتغطس في الماء، مغتبطة بهذا الإحساس بعدم الخوف، أو عدم انتظار شيء. تراقب ارتفاع المنسوب على أعمدة السرير، تنتظر رؤية المدى الذي سيصله الماء، وإن كان سيغمرها فوق سريرها أم لا، ببرود ليس فيه إلّا متعة رؤية التوقّعات تتحقّق، وكأنّها تلعب لعبة فراسة عاديّة، لا تخصّ حياتها أو موتها.

تحت حافّة المرتبة بقليل توقّف الماء، فأبهجتها رؤية نفسها نائمة وكأنّها تسبح على بساط، تمدّ يدها وتلعب في الماء، حتى تغفو. لم تخف من الظلام أو من الوحدة في القرية التي لم تعد تسمع فيها سوى نقيق الضفادع وصفير صراصير الحقل. ولم تر أنّ عليها مغادرة سريرها لقضاء حاجتها، فبيت الراحة امتلأ، وطاف خزّانه تحت ضغط الماء المتدفّق، انتشر مختلطًا بماء الفيضان وصارت رائحته ملحوظة في أرجاء الدوّار. جرّبت حرِّيَّة التبوّل واقفة كما يفعل الرجال. وضحكت من نفسها عندما وجدت أنّها بلّلت فرشتها التي لم تصلها مياه الفيضان.

يومًا بعد يوم أخذت الأرض تتشرّب ماءها. وأخذت مباركة تراقب انخفاض منسوب المياه قياسًا على أعمدة السرير النحاسي،

وفي اليوم السابع أصبح بوسعها أن ترى معالم الأرض تحت شبر من الماء العكر. وصار بإمكانها الحركة لوضع فتات الخبز فوق الفرن بباحة الدوّار، لإطعام الحمام الذي عاد إلى أكنانه في الحوائط والجرار مفتوحة الجانبين المعلّقة بالسقف.

ولأيّام عديدة تالية، كان الهديل الصباحي للحمام تسليتها المبهجة. تمنّت أن تكون الحياة هكذا طول العمر؛ تستمع من سريرها إلى غزل الأزواج المتحابّة تترقّب مطاردات الذكور اللطيفة للحمامات، الرفيف القصير للأجنحة والتقافز من مكان إلى مكان، وتسارع إيقاع الغناء قبل أن تستكين الإناث تحت ذكورها الأجمل منها.

أخذت تراقب تراجع البلل يومًا بعد يوم. وعندما سمعت جلبة معالجة باب الدوّار لم تقم من رقدتها، وظلّت على هدوئها تراقب شعاع الشمس ينسرب من الشبّاك في حزمة تنكسر باتّجاه السقف عند الاصطدام بالعرائس الزجاجيّة الملوّنة في شِباك السرير فوق رأسها، بينما يصلها تصايح الإوزّ العائد مع العائدين، مفعمًا بالبهجة.

لم تلتفت إلى مجاهد، ولم تسأل عن أبيها، منتبهة إلى أنّها لم تفكّر فيه طوال أسبوع الفيضان، إن كان نزح معهم أم بقي في بيته. اقتربت منها الخالة حميدة، تنظر في عينيها، سالت دموعها لمّا رأت الهزال والانطفاء في وجهها. تحرّكت شفتا مباركة بما يشبه ابتسامة للعجوز التي تناولت يدها وقبّلتها. سحبت مباركة يدها مسرعة وأومأت لها مرحّبة، واعتدلت.

أخذتها العجوز من يدها؛ وبدأتا في تنظيف الدوّار مع مجاهد، من دون أن تتبادل معه كلمة واحدة. جمعوا الأرانب المنتفخة في الباحة الداخليّة للدوّار، وجرفوا أكوام الغائط والجلّة والحطب المترسّبة في الغرف الداخليّة. أطلقوا الإوزّ والدجاج الذي عادوا به من مهجرهم القريب في البلاشون، وأغلقوا باب الوسط دونه، وقبل حلول الظلام كانوا قد انتهوا من تنظيف الغرف الأماميّة بما فيها غرفة مباركة، وكوّموا كلّ هذا في تلّ كبير أمام الدوّار لنقله إلى الحقل، عندما تجفّ الشوارع.

أعدّت الخالة حميدة عصيدة، كانت الوجبة الأولى الساخنة التي تتناولها مباركة بعد أسبوعين. ولا تعرف كيف أو متى عادت إلى سريرها مقتولة من التعب، لكنّها انتبهت في منتصف الليل إلى شخير الخالة حميدة التي افترشت لنفسها حصيرة بالقرب من السرير.

خوفًا من الشماتة، قرّر الصبر عليها ولم يفاتح أحدًا، ولا حتى أباها، الذي صار يذهب هو إليه للسهر معه حتى ساعة متأخّرة من الليل، مواصلين صداقة يدعمها التضامن في مواجهة رفض مباركة لهما، والإحساس المشترك بالذنب. يتناوبان شدّ أنفاس الجوزة مع الشاي الثقيل، في صمت يقطعه أحدهم بذكرى أو تعليق مقتضب.

تحلّى مجاهد بالصبر قدر استطاعته، لكنّه لم يستطع أن يتحاشى التفكير في أنّها ربّما تعتبر صبره ضعف شيخوخة، أمّا أكبر ما آلمه فهو الإحساس بأنّه مرفوض. ووضع خطّة للتخلّص من هذا

الوضع. صرف الخالة حميدة قبل المغرب، واعتذر لبدر بالتعب، فلم يعد معه من صلاة العشاء مثلما اعتادا. وللمرّة الأولى منذ زفافها، وجدت مباركة نفسها وحيدة مع مجاهد الذي أمرها بإعداد الموقد، وجلس يدخّن حتى انتصف الليل.

عندما دخل غرفتها لم يمنحها فرصة، ألقى بنفسه فوقها، مثبّتًا ذراعيها بيديه، بينما مزق سروالها بقدمه، ضاغطًا بكلّ قوّة فخذيه ليحافظ على ساقيها مفتوحتين. قاومت من دون جدوى، وفجأة سكنت كميتة مفتوحة العينين، ولم تسمح لنفسها حتى بالتألّم من شيئه الجافّ الذي اخترقها. سكونها وتحديقها استفزّه فجعله أكثر هياجًا، واكتشف في نفسه عنفًا لم يعهده من قبل، يريد أن يؤلمها أو تلتذّ، دون أن تبدو عليها أيّة علامة للحياة سوى التردّد الهادئ لأنفاسها.

بمجرّد أن تحرّرت من ثقله انطلقت في نوبة استفراغ طرطشت وجهه وأغرقت السرير. غادر الغرفة غاضبًا، ولم يدخلها مرّة أخرى إلّا عندما استدعته الخالة حميدة التي دخلت في الصباح فوجدت مباركة مبلّلة بعرقها، تتخبّط في حمّى وهذيان تكرّر فيه اسم منتصر بإلحاح.

عند الفجر، خرج على ظهر مهرته متوجّهًا إلى الزقازيق، وعند الظهيرة عاد متبوعًا بكاريتة يجرّها حصان، تحمل طبيبًا، فحص النائمة، وأمر بوضع كمّادات مبلّلة بالماء البارد على رأسها، وتغييرها على الدوام، وكتب وصفة أدوية طلب إحضارها بأسرع وقت ممكن. تولّى مجاهد العناية بالمريضة، ومضى أبوها خلف

عربة الطبيب، وبعد صلاة العشاء عاد بالأدوية، ليجد المريضة في غيبوبة لا تسمح لها بتناول أيّ دواء.

اشترى بدر الكفن، كما أوصى بحفر القبر، متوقّعًا ألّا يطلع عليها الصباح. سهر الرجلان بجوار سريرها يدخّنان، وبين وقت وآخر يقوم أحدهما لجلب مزيد من القوالح لتغذية النار، أو لتغيير ماء الجوزة، في حين كانت الخالة حميدة تجلس بجوارها في السرير، تمسح عرقها.

فجأة شهقت مباركة عميقًا فهبّ الرجلان واقفين. أشارت بيدها فانطلق مجاهد وعاد إلى الغرفة مهرولاً بكوب ماء، أجلسها أبوها ووضع مجاهد الكوب على فمها، رشفت بضع رشفات وردّت يده، جفّف لها وجهها الغارق في سيل العرق وتركها تستريح مرّة أخرى. كانت كالعائد من رحلة تيه طويلة.

فتحت عينيها، تحسّست بلل الفراش، نظرت إلى مجاهد، قبل أن ينغلق جفناها الثقيلان مرّة أخرى. رأته ضعيفًا ودودًا، رأسه الأملس المستطيل بدا في عينها ضئيلاً كرأس مولود. بين الغفوة والإفاقة تشعر وكأنّها في أرجوحة: مرّة في السماء ومرّة في الأرض، ومنتصر يشاغلها، تراه قادمًا من بعيد، مرّة يلوح لها من فوق المئذنة ومرّة تشعر بيده على خدّها وهو يلهج:

ـ إزّيّك يا مباركة؟

عاشت أيّامًا طويلة بين الصحو الحزين وسكون الغيبوبة، قبل أن تتمكّن من الوقوف على قدميها. لم يلمها مجاهد على هذيانها، كان يبدو راضيًا، خفيفًا بالبراءة من المسؤوليّة عن موتها الذي

اقترب بشكل حادّ. وعندما بدأت تتخلّص من شحوبها وتستردّ عافيتها، عاد للاستلقاء بجوارها.

لم تستسلم وطوّرت أساليب جديدة للتملّص، فصارت الدورة تأتيها مرّتين في الشهر، وصيام الاثنين والخميس للشكر على النجاة، أمّا الحماية الأكبر فكانت من سلطان النوم الذي عرفت كيف تستدعيه كلّما عجزت عن أن تجد عذرًا آخر. ولم يكن مجاهد بحاجة إلى كلّ هذه الاحتياطات لكي يعرف أنّه غير مرغوب.

عاد إلى حفيظة، تاركًا الدوّار الكبير لمباركة وخادمتها. ومع مطلع كلّ شمس يخرج مستحمًّا ومغيّرًا ملابسه، بينما تبقي حفيظة ماء الاغتسال إلى الضحى؛ فتخرج وتلقي به في الشارع على مرأى من أكبر عدد من الشهود. ثم تتّجه إلى الجالسات في ظلّ الحائط، تستفيض في الحديث عنه «أبو سلامة أكل، أبو سلامة قال، أبو سلامة طلب مشورتها فيما يزرعه في الفدّان القبلي، أبو سلامة كتب لها نصف فدّان ليحميها من غدر الزمان».

بدأت الأخبار تنطلق من الدار الصغيرة إلى الدوّار، عن الرجل الذي يُشار إليه باسم ابنه، إمعانًا في تأكيد الفرق بين الزوجتين، والتذكير بأنّ عودة الرجل إلى بيته وأولاده محتومة. ولم تفلح كلّ هذه الأخبار في إثارة مباركة، التي لم تر في مجاهد سوى عجوز له رائحة تيس. ولم تُجْدِ نصيحة الخالة في جعل مجاهد مقبولاً من مباركة، مثلما لم يفلح تدفّق الأخبار بين الدارين على تغيير موقفها، إلى أن مرّت حفيظة من أمام الدوّار بخيلاء من أجهز على

عدوّه، وعندما وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام مباركة الواقفة داخل بابها الموارب رفعت صوتها:

ـ أمّ القاعود في البيت تعود.

وما كان من مباركة إلّا أن فتحت الباب ووقفت في مواجهتها وهي تربت على أسفل بطنها:

ـ وغلاوتك.. ده عنده بالدنيا، بس أشاور!

أربكت المفاجأة حفيظة عندما رأت الحركة غير المحتشمة والنظرة المتحدّية، والردّ الذي لم تتوقّعه من المرأة الصغيرة الصامتة، فانسحبت مسرعة دون أن تضيف شيئًا، وقد قرأت في عيني هذه اللبؤة تصميمًا على تنفيذ وعيدها. وهي لا تستطيع أن تتبجّح بأنّ عندها مثل ذاك البضّ الذي ارتجّ مثل طبق الكشك تحت صفعة التهديد.

عندما انتزعها مجاهد من ابن أخيه، اعتبرتها حفيظة ضحيّة، مثلها مثل منتصر. ولم يبدأ حقدها الحقيقي عليها إلّا عندما وجدت نفسها محتقرة مع أولادها في دار صغيرة. ولا تدري ماذا سوف تطلب مباركة بعد سكنى الدوّار؛ فالرجل الذي كانت سعلته في أوّل الشارع كفيلة بدفع الأولاد للاختفاء في ركن معتم من الدوّار الكبير، صار لعبة في يد الصبيّة. ومن المؤكّد أنّه لم يعد إليها إلّا بعد أن تعرّض للإهانة في فراش الصغيرة، ولأنّها وحدها تعرف حجم الإحباط والخواء الذي يحسّه وهو فوقها، فهي متأكّدة أنّه سوف يعود إلى اللبؤة بمجرّد أن تباعد له شبرًا بين ساقيها.

لم يكن فخر أهل العشّ ينبع فقط من قدرة أسلافهم على تجفيف البحيرة، أو استصلاح الأرض التي توزّعوها فيما بينهم بالتراضي؛ بل من قدرتهم على إقامة شأن وليّهم بين اثنين من كبار الأولياء، حيث تمكّنوا من جعل مولد الشيخ الساكت ثالث ثلاثة موالد معدودة في المنطقة، مع مولد الشيخ جودة في منيا القمح والشيخ سعدون في بلبيس. وعلى مدى قرن من الزمان لم يتخلّفوا عن الاحتفال بالشيخ الذي لم يعرفوا من أين جاء، وكيف وصل إلى العشّ لكي يدعو أهلها إلى نصرة المملوك مراد بك.

في أحد أيّام الفوضى والخوف، بعد أنباء سيطرة نابليون بونابرت بجيشه على الإسكندريّة، وصل إلى العشّ شيخ نحيل يكاد لا يُرى. تنازل له الخطيب عن خطبة الجمعة تكريمًا له. ومن أجل أن يُعلن بنفسه ما يُريد، ارتقى المنبر وبدأ خطبته حول ثواب تجهيز محارب الذي يعادل ثواب الجهاد، وحثّ أهل العشّ على التبرّع

لنصرة المملوك الذي رفض إنذار نابليون بالاستسلام، وصمّم على مواجهة الفرنساويّة في القاهرة، بعد أن خسر معركته معهم في شبراخيت قرب دمنهور.

وفجأة خرج عن سياق الخطبة، وأصبحت لصوته قوّة الرعد، وأخذ يشير بيده: إلى الغرب، إلى الغرب يا إبراهيم، إلى الغرب يا بك. ثم صمت، ونزل عن المنبر، لا يكلّم أحدًا. مرّت أيّام وهو على هذا الصمت، لم يشرع في جمع ما جاء من أجله، ولم يبد عليه أنّه يريد المغادرة إلى مكان آخر.

التزم المسجد ليلاً ونهارًا، فزوّدوه بالأغطية، وأخذوا يتنافسون في حمل الطعام إليه في الوجبات الثلاث. يتركونه بجواره ويرفعونه من أمامه من غير أن ينقص إلّا بقدر ما تتّسع حويصلة عصفور. يواصل القيام والركوع والسجود حتى يأخذه الإنهاك، فيتكوّم على نفسه وينخرط في نوم هادئ، لا يكاد المارّ بجواره يسمع صوت تنفّسه الواهن.

وعندما جاءت أخبار الهزيمة المروّعة التي ألحقها الفرنساويّة بجيش مراد بك تحت سفح الهرم، عرفوا أنّ صرخة الشيخ كانت محاولة لتوجيه إبراهيم بك المرابط بقوّاته شرق النيل، لكي ينضمّ إلى مراد بك المرابط في الغرب، حيث جاء الغزاة بعد ذلك.

تعاونوا في بناء بيت له، وعندما اكتمل اجتمع كلّ من ساهموا في البناء للاحتفال واعتماد الشيخ، الذي لم يتذكّر أيّ منهم اسمه، ساكنًا جديدًا. جلسوا جميعًا فوق السقف الذي فوجئوا بسقوطه بهم من دون أن تقع أيّة إصابة، بل إنّهم ظلّوا في جلستهم لم تهتزّ

أكواب الكركدية في أيديهم، وعندما أفاقوا من المفاجأة هلّلوا وكبّروا واعتبروها كرامة للشيخ الذي لقّبوه بالساكت.

أقام الشيخ الساكت في داره التي تسابقت النساء على تنظيفها وتزويدها بالماء، وحمل ملابسه لغسلها في دورهنّ. وكانت الثمرة الأولى من الخيار والطماطم لا بدّ أن تذهب للشيخ الساكت، ولا بدّ أن يُبارك لبن السرسوب لكلّ بهيمة تلد قبل أن يتذوّقه وليدها. وإذا توعّك بشر أو دابّة، كانوا يأتون به إلى الشيخ الساكت لكي يرقيه، ويقرأ عليه بعينيه وشفتيه فيشفى في الحال. وعندما مات الشيخ الساكت دفنوه في الغرفة التي سقط بهم سقفها. وأصبح يوم رحيله مولدًا سرعان ما نال شهرته، بسبب كرم أهل العشّ مع المنشدين الذين يتكفّل كلّ بيت بإطعامهم ليلة، هم وسائر الغرباء؛ من باعة العسليّة، وأصحاب المراجيح، وحتى الغجر الذين يحظى سيركهم الغامض ببعض التحفّظ؛ لأنّ بناتهم يتعرّين فيه أمام الشباب، ويمكن ممارسة الجنس معهنّ خلف ستارة مقابل قرش صاغ، وأحيانًا دون مقابل لمن تستلطفه إحداهنّ، أمّا ضاربات الرمل وعاملات الأحجبة والسحر بالحبّ والكره فقد وجدن من إقبال نساء العشّ ما لم يحظين به في مولد آخر. ولم تخلف العشّ موعد مولد وليّها، حتى في ظلّ وباء الطاعون الذي استشرى منذ ثماني سنوات. ورغم قرار السلطات بمنع التجمّعات استقبلت العشّ ضيوف صاحب المقام، وأُقيم المولد بأقلّ قدر من الضجيج الذي يناسب احتفالاً أُقيم وسط حداد.

وعلى الرّغم من دمار الفيضان هذا العام، لم يخلفوا العادة.

بعد اكتمال العودة، بدأوا التفتيش عن المسنّين الذين بلا ذرّيّة ولم يتذكّرهم أحد وسط خوف الفيضان. دفنوا ما استطاعوا استخلاصه من جثثهم التي انفجرت أحشاؤها داخل الدور المهدّمة. ثم بدأ الرجال في تنظيف الشوارع من الجثث الصغيرة للحيوانات والطيور ودفنوها في الحقول. وبمجرّد انتظام الحياة أرسلوا إلى المنشدين يخبرونهم بأنّ مولد الشيخ الساكت سيُقام في موعده. والمنشدون بدورهم نشروا الخبر بين الباعة ولاعبي السيرك.

جاء الغرباء في موعدهم. وعندما سمعت حفيظة الجلبة، جرت إلى الباب تراقبهم، وهم يجرّون صناديقهم بينما يكزّون بأسنانهم على ذيول أثوابهم، مبتهجة بالمدد الذي جاءها ليحسم الحرب مع مباركة التي أخذت مكانها في الدوّار، ونفتها إلى دار صغيرة، لم يعرف النوم كيف يسلك فيها طريقه إلى عينيها. حتى بعدما عاد إليها رجلها، لم تزل الصغيرة ترتع وحدها في الدوّار، ويمكن أن يعود إليها في أيّة لحظة.

انتظرت حتى ثبّت الغجر خيامهم في الساحة، وبدأت نساؤهم من ضاربات الرمل الدوران في الشوارع بمقاطفهنّ على رؤوسهنّ. أشارت للمرأة التي كانت تصيح بصوت مشروخ:

ـ أبيِّن زين أبيِّن!

فتحت لها الباب ودفعتها إلى الداخل، وهي تتلفّت لترى إن كان هناك من شاهدها، ولم تجد أحدًا في هذه القيلولة فأغلقت الباب راضية.

المرأة التي تجلّلت جبهتها بوشم أسد مستلق كانت تخفي وجهها تحت يشمك تتدلّى منه دوائر الفضّة، أدركت ما تعانيه حفيظة.

ـ خايفة من حمامة صغيرة بتشاغل دكرك، ومرادك تحبسيه.

قالت الغجريّة، فلم تنطق حفيظة وأخذت تتأمّلها بخوف. شرعت المرأة في التحدّث مع غائبين. ولم يلبث صوتها أن اختفى تحت طبقة رجّاليّة مخيفة. أخذ الجنّي يملي من جوفها بعبارات مقتضبة ما يجب على حفيظة أن تقوم به، طلب لنفسه زوجًا من الديوك بيضاء دون علامة، مع قدح من الفريك تحملهما الغجريّة إليه، وأمر حفيظة بإحضار كلّ ما لديها من ذهب، وجرّة من الفخّار. وضعت المرأة الذهب في الجرّة وأغلقت عليه بالطين وهي تتلو كلامًا لم تتبيّنه حفيظة التي وقفت مأخوذة. أمرتها الغجريّة على لسان الجنّي الذي يتلبّسها أن تفتح الجرّة بعد دورة كاملة للقمر، وترتدي الذهب وتستحمّ عليه. وبعد ذلك لن يغادر الذكر بيتها أبدًا!

انتهت أيّام المولد السبعة، ورحل الغرباء من حيث أتوا، وأخذت حفيظة تعدّ الأيّام وتراقب القمر في السماء، ملتزمة بالموعد بحسم باتر. وعندما فتحت الجرّة لم تجد داخلها غير حفنة من كسر الفخّار. أغلقت قلبها على حزنها، ولم تجرؤ على الحديث عمّا جرى مخافة الشماتة.

خسرت الذهب ولم تتمكّن من حبس الرجل!

عاد مجاهد إلى الدوّار، ليس بسبب فشل سحر حفيظة أو بسبب نجاح سحر معاكس من مباركة، بل بواجب حماية امرأة

صغيرة يجب ألّا يتركها وحيدة، بعد أن وقعت العشّ تحت احتلال فرق الهجّانة، التي أخذت تجوب الشوارع ليلاً ونهارًا. رجال سود فارعون فوق ظهور الهجن، يمزّقون بكرابيجهم ظهر من يتجرّأ ويخرج من بيته ليلاً، ويبدّدون خصوصيّات الدور وما يجري بداخلها. لم تعد هناك امرأة تستطيع أن تتخفّف من ثيابها في صحن دارها، لأنّها في أيّة لحظة ستلمح صفّي أسنان يلمعان كما لو كانا معلّقين في الفراغ، تحت عمامة بيضاء وهما كلّ ما سيظهر من الوجه الأسود في الظلام.

جاءت الهجّانة إثر سرقة مواشي السلطان حسين كامل. وكانت هذه هي السرقة الأكبر التي تحدّثت بها المنطقة. وتردّد أن منتصر هو الذي يقف وراءها؛ فمن بين شائعات كثيرة حول المكان الذي توجّه إليه عند خروجه من العشّ، أكّد البعض أنّه يعيش في ميت سهيل، حيث تزوّج من ابنة سعيد الغول، أقرب أصدقاء والده، وأعاد معه تشكيل العصابة من أعضائها الأحياء، الذين لم يقدر أكثرهم قسوة على كبح دموعه عندما دخل عليهم منتصر. نظروا إليه فأحسّوا بأنّ سلامة قد عاد من موته، وعندما استقرّ بينهم وأخذ يطرقع عنقه بالتفاتات مفاجئة مثل أبيه قرأوا الفاتحة وأقسموا له على الولاء.

ويقولون إنّ العصابة استعادت قوّتها كما كانت قبل السرقة المشؤومة، التي فرّقت عددًا منهم متخفّيًا لسنوات طويلة، بينما ألقت بالبقيّة وراء القضبان. وكان موت سلامة النار التي لم تبرد، إلّا بتولّي ابنه قيادة العصابة وسرقة زرائب من وضعه الإنجليز على

عرش مصر ورسّموه سلطانًا، بعد أن عزلوا ابن عمّه الذي ناصبهم العداء.

واقعة السرقة الجديدة مؤكّدة. تذوّق الكثيرون من سكّان المنطقة لحومها، التي تداولها الجزّارون سرًّا، وباعوها بربع السعر، ومن لم يجد معه نقودًا اشترى مقايضة بقدح من القمح أو الذرة. لم تحتفظ العصابة التي نفّذت هذه العمليّة بعجل واحد حيّ، حتى لا يكون دليلاً يقود إلى القبض على أعضائها. لكنّ السلطات استطاعت أن تتبع مصادر النتانة المنبعثة من الجلود الملقاة في مصارف المياه. وحدّدت عددًا من قرى المديريّة، بينها العشّ، قامت قوّات ضخمة العدد باجتياحها وتمشيطها، وفرضت حظر التجوّل من مغيب الشمس إلى مشرقها، لكنّها لم تتمكّن من الوصول إلى الجناة.

لم يتأكّد وجود عصابة منتصر، مثلما لم يتأكّد عدم وجودها. ولم يعرف مجاهد إن كان عليه أن يقلق على مباركة من الغرباء، أم على نفسه من عودة ابن أخيه. عاد إلى الدوّار أكثر شيخوخة، ولم يسع إلى مزاحمة الأشباح في سرير الصغيرة، التي صارت تشبه الأموات من كثرة ما عاشت مع طيف أمّها.

أخذ يوزّع نهاره بين مساعدة أولاده في الغيط ودار حفيظة، ويحرص أن يكون في الدوّار قبل العتمة. يدخّن الجوزة وحيدًا في المنضرة، حتى وقت العشاء، يصلّي ويضطجع في مكانه. ولم تعرف مباركة إن كان عليها أن تفرح أو تحزن، فقد أحسّت بأنّها محميّة في عالمها الصلب، وفي الوقت نفسه أحسّت بثقل

الذكريات، ليس فقط ذكريات الحبّ القصير، بل ذكريات الوحدة والصمت في ليالي الشتاء الطويلة. والأسوأ أنّها أخذت وعيد حفيظة، الذي أرسلته إليها أكثر من مرّة: «أمّ القاعود في البيت تعود» مأخذ الجدّ. أحسّت أنّها بصدد خسارة معركة، من دون قتال. ولم تكن في حاجة لأكثر من نظرة لحسم حربها مع حفيظة. نظرة جديدة تمامًا، ودعوة صريحة في فحشها لم يكن مجاهد يتوقّعها.

كان عائدًا من الغيط تبدو على ملامحه الجهامة. هرول إلى حجرة الخزين مباشرة، التقط حبلاً وارتدّ مسرعًا، فاجأته مباركة باعتراض طريقه وراء باب الدوّار في قميص النوم الأسود الذي صار فضفاضًا عليها، وقد أطلقت شعرها وراء ظهرها، بينما أخذت خصلة منه إلى الأمام تغطّي مفرق النهدين، سألته بدلال إن كان يريد شيئًا، وقد رفعت إليه عينًا، بينما أمالت الأخرى إلى صدرها، كأنّما لتقود عينيه وتؤكّد له أنّ نهديها لا يزالان هناك فتيّين على الرّغم من النحول.

الرسالة وصلت على الوجه الصحيح تمامًا. استطاع أن يفضّ القشرة الرقيقة للكلمات المجرّدة ليستمع إلى الدعوة الحقيقيّة، التي انتظرها طويلاً وجاءته على غير توقّع، فأزاحها عن طريقه بارتباك وكأنّه يتحاشى فضيحة، وخرج مهرولاً يتلفّت حوله دون أن يجد الفرصة ليسأل نفسه إن كان ما فعله صحيحًا أم لا: هل كان عليه أن يتخلّى عن تأنّي الشيوخ، أم أنّه فعل ما كان يجب عليه أن يفعله لحمل أنوثتها على التواضع؟ لم يعد يعرف، لكنّه مندهش من

تسارع دقّات قلبه، منتشٍ بسريان الحركة الخفيفة بين فخذيه التي بعثتها غمزة من عين مكحّلة بسواد ثقيل مغناج.

عاد إلى أولاده الذين تركهم في الأرض يمتّنون الحدود للاحتفاظ بالماء الذي ملأوها به بطنبورين تناوبوا على إدارتهما. ألقى إليهم بالحبل لعمل الزحّافة لتسوية الأرض التي صارت موحلة قبل بذر البرسيم. وعاد إلى المضطجعة على السرير في قميصها وقد دلّت إحدى ساقيها.

دفعها برفق إلى الداخل، تعرّى مباشرة ورفس السروال ليقع على الحصيرة أسفل السرير، وصعد بخفّة لم يكن يتصوّرها في نفسه، استلقى إلى جوارها. مرّر يده تحت قميصها، فلم يجد غير نعومة الموضع المنتوف حديثًا. جفلت من اقترابه، لكنّه مضى سريعًا عن موضع الجرح واعتصر بأصابعه القبّة الناعمة وصرخ مهتاجًا:

ـ يا بنت الكلب!

هتف بكلّ قوّة اللذّة المعبّأة في الشتمة، ولكنّه قضم الكلمة عندما لاحظ أنّها لا تناسب سنّه، سحب القميص بتؤدة إلى منتصف البطن حتى لا يغطّي النهدين اللذين يطلّان من الطوق. تابع اهتزازه فوقها في مرآة الدولاب. للمرّة الأولى في حياته يرى إليتيه تتحرّكان وكأنّهما لشخص آخر يحاكي حركته. وسط حمّى هياجه أخذ يهذي عن عضوها باسمه الفاحش وهو ينظر إلى المرآة، ليرى إن كان الآخر سيردّد بذاءاته أيضًا. كانت صامتة مغلقة عينيها، بينما تحاول تحاشي رائحة عرق المنتشي فوقها الذي تسارع سبابه واهتزازه.

فجأة همد، وتداعى إلى جوارها. كانت تحسّ ما يشبه الاختناق؛ لأنّ هناك قمّة لم تصعدها، عرفتها مع منتصر الذي لم يلجها، لكنّه كان يستطيع أن يأخذ بيدها لكي تستريح هناك. طاف وجهه حزينًا، في صورة غائمة تبدّدت وتركتها في حال من الوحشة القلقة، ذكّرتها بغيبوبة المرض التي كانت توصلها إلى الحافّة المجهدة دون أن تسلّمها إلى راحة الموت.

انسحب مجاهد خارجًا، دون أن تفتح عينيها لتراه، وسمعت باب الغرفة ينغلق. وسمعته ينادي الخالة حميدة لتفرش له حصيرة في الباحة الباردة. أخذ في استعادة ما حدث مع كركرات الجوزة ودوران الماء بداخلها، يسترجع في سحابة الدخان انتصاب نهديها بحلمتيهما المميّزتين. اكتشف، عبر تكوّرات جسمها الصلب العائدة إلى الحياة، أنّه لم يعرف النساء من قبل، يتذكّر أنّ جسم حفيظة لم يكن يومًا هكذا. كان لها ثديان مترهّلان وجسم مجهد منذ صباها. طرح أعوامه الستّين وراء ظهره، أحسّ في جلسته أنّ مفاصله لم تعد تؤلمه. ولم يعرف أنّه سيعيش ما تبقّى من عمره يفتّش عن انتصاب عابر لنهدين، وأنّ ذكرى هذه الليلة ستأخذ بالتباعد حتى يشكّ أنّه عاشها.

عادت إلى اللامبالاة لوجوده، فعاد إحساس القهر أقوى من أيّ وقت مضى، ولم يسعفه إلّا الحلم، يستعيد فيه لحظة انتشائها. يستيقظ فرحانَ، ثم ما يلبث أن يسقط في الخواء، دون أن يفقد الأمل في لحظة أخرى مشابهة.

مات بدر وحيدًا في بيته أثناء حظر التجوّل في العشّ. ولم يعرف صهره بموته إلّا عندما تخلّف عن الصلاة في المسجد يومين متتاليين، وذهب للاطمئنان عليه فقابلته رائحة الجثّة التي أوشكت على التفسّخ.

عندما هجر مجاهد مباركة، وعاد إلى زوجته وأولاده، واصل الأب زيارة ابنته بعد صلاة العشاء للاطمئنان عليها كلّ ليلة، لكنّه لم يجد منها أيّ ترحيب. كانت تترك خدمته للخالة حميدة، وعندما يلحّ في النداء عليها، تأتي وتجلس في مواجهته صامتة، لا تجيب إلّا بقدر السؤال، فأخذ يباعد بين زياراته إلى أن انقطع تمامًا مع وصول فرق الهجّانة. ولم تعد تعرف عنه شيئًا، حتى جاءها مجاهد يومًا بعد صلاة الظهر، ونقل لها الخبر بأقلّ ودّ ممكن.

ـ أبوكي تعيشي إنتي.

لم تردّ، ولم ينتظر ردّها. ألقى بالخبر وعاد ليساهم في ترتيبات الغُسل والتكفين وإجراءات الدفن. قامت متمهّلة. نادت الخالة حميدة. لملمتا ما سوف تحتاجانه لأيّام العزاء، وتوجّهت إلى بيت أبيها. كان واضحًا أنّه اتّخذ كلّ استعداداته قبل موته. نام مستقبلاً القبلة، مصالبًا ذراعيه فوق صدره، وبجواره الكفن ذاته الذي خاطته الخالة حميدة من أجل مباركة. وكان قد حمله إلى داره، وأوصاها بألّا تخبر مباركة بأنّ استعداداتهم لموتها بلغت هذا الحدّ.

نزع عن الكفن قطعة الحجاب المخصّصة للنساء، ووضعه بالقرب من مكان نومه، ولم يكن هذا هو الاستعداد الوحيد الذي اتّخذه بدر، بل سدّد للحّاد أجره ذرة وقمحًا عن تغسيله والقيام بمراسم دفنه وختم قراءة القرآن على قبره على مدار ثمانية وأربعين خميسًا.

لم تخرج مباركة وراء النعش الذي حمله الرجال. ولم تجد في عينيها دمعة واحدة تمنع ثرثرات المعزّيات، وقد حملهنّ صمتها وحياد ملامحها على الاستعادة الهامسة لقصّة زواجها التي كانت تتصوّر أنّها لم تعد حيّة إلّا في قلبها.

انتقل مجاهد إلى بيت صهره الراحل ليبقى إلى جوار مباركة، التي بدأت حدادًا يمليه الواجب. وواصلت استقبال المعزّيات في النهار، حيث استمرّ تطبيق حظر التجوّل بشكل صارم أثناء الليل. عندما تنصرف آخر النساء تبقى مباركة بصحبة الخالة حميدة، بينما يجلس مجاهد في المنضرة، يتذكّر تلك الليلة عندما جاء لخطبتها، وأساء بدر الفهم، ولم يصحّح له ويخبره بأنّه يطلبها لابن أخيه لا

لنفسه، مستعيدًا مرّة بعد مرّة نظرته التي أفقدته صوابه لحظة هروبها من طريقه.

حضرت حفيظة للعزاء بسمت حزن مبالغ فيه، يبعدها قدر الإمكان عن أسوأ شعور يمكن أن يُتّهم به أحد في العشّ: «الشماتة في الموت».

طلعت مباركة أوّل خميس، وعادت تجمع أشياءها للعودة إلى الدوّار؛ ففاتحها مجاهد برغبته في بقائها ببيت أبيها.

ـ مش ممكن نسيب الدار دي للجنّ، والعيال وأمّهم في دار قدّ الحُقّ.

على غير ما توقّع، استراحت للاقتراح، وللحظة تصوّرت أنّ بقاءها في الدار التي تربّت فيها يُعيدها فتاة صغيرة من جديد، ويجعل ما حدث كأن لم يحدث. شرع في نقل جهاز عرسها إلى بيت أبيها، بينما أخذ أولاده في نقل أشيائهم إلى الدوّار متلهّفين للعودة إلى بيت طفولتهم.

استأنفوا حياتهم في الدوّار الذي غادروه مجبرين ذات يوم. وصار بوسع سلامة أن يتقدّم لخطبة تفيدة الفحل؛ الفتاة التي اختارها، ولم يتقدّم لها رسميًّا طوال إقامتهم في الدار الصغيرة، ليس فقط لضيقها، بل لإحساسه بمهانة الغريب بعيدًا عن الدار التي وُلد فيها. تغاضوا عن وجوده مثلما اعتادوا، محافظين على أدنى صلة ممكنة تضمن احترامهم بين العائلات.

ـ كأنّه أب بالإيجار.

قال سلامة لأخويه عندما عاد من بيت العروس، حيث بذل مجهودًا كبيرًا لكي يتخلّى عن هذا الإحساس بالزيف، وهو يقدّمه ليتكلّم نيابة عنه مع عبد الودود الفحل. بعد الخطوبة لم يعرف مجاهد شيئًا عن ترتيبات العرس، وحضره كالغرباء أيضًا، حتى زفاف العروسين بالمهرة، الذي يجامل به الغرباء لم يقدّمه لسلامة الذي أصرّ على الاكتفاء بالسير بعروسه من دارها إلى الدوّار.

لم يعد يكترث بالجفاء الذي يعاملونه به كلّما ذهب إلى الدوّار أو التقى بهم في الحقل لأخذ المهرة، كلّ ما يعنيه هو رضى مباركة، وقد صار كلّ يوم أقلّ قدرة على فراقها، مثل مقامر يحاول التعويض؛ فيخرج بالمزيد من الخسائر. وعندما شرعت في أكل طين الفرن المحروق، وبدأت تنتابها حالات الإعياء والقيء، أحسّ مجاهد بفرح لم يحسّه من قبل. لم يكن معنيًّا بأن ينجب مزيدًا من الأبناء، إلّا أنّه استقبل علامات حملها بفخر من يعلن للجميع امتلاكه للمرأة الصغيرة، وكأنّه يردّ على نظرات الشماتة التي كان يراها واضحة في العيون. وصار كلّ تقدّم مباركة في الحمل يجلب له المزيد من العزاء، ولم يعد بحاجة للتعلّل، حتى أمام نفسه، بوجود فرقة الهجّانة لكي يواصل البقاء بجوارها، حتى إنّه لم يشعر برحيل الغرباء بعد أن يئسوا من الوصول إلى منتصر.

عاد إلى استقبال أصحابه القدامى الذين وجدوا في صحبته دهشة لا تنتهي؛ في كلّ مرّة يفاجئهم الجديد الذي اشترته مباركة من بلبيس، ويجدون فيه ما يثير فضولهم، وكأنّهم لم يكونوا يحيون من قبل. كانت المرّة الأولى التي يرون فيها الأواني الخزفيّة التي

تُشترى من أجل الزينة فقط وليس للاستخدام، كما عرفوا مشروبات أخرى غير الكركدية والقهوة، والشاي، مثل الكاكاو والمشروب الذي أدهشهم في المرّة الأولى لونه الأبيض وقوامه اليابس.

ـ دا لازم الواحد يستحمّى بعد ما يشربه؟

أخذوا يمزحون حول السحلب الذي يشبه المنيّ، ويتساءلون إن كان شربه ملزمًا بالاغتسال من الجنابة!

تحوّلت منضرة دار بدر إلى مضافة دائمة، بابها مفتوح على الشارع لاستقبال الأصدقاء في أيّ وقت حتى من دون وجوده، والباب الذي يربطها بالدار موصد لا يُفتح إلّا في وجود مجاهد لطلب كوب ماء أو رأس سكّر. وقد استقبلت مباركة مولودها وسط صخب صلح في قضيّة تسبّب فيها يوسف أبو لغد الذي لا يستطيع أن يمسك لسانه عن الكلام أو البلع.

كان مساء جمعة، وكان الرجال في المنضرة يتكلّمون في الوقت نفسه، دون أن يتوصّلوا إلى حلّ للمشكلة التي أثارها يوسف أثناء خطبة الجمعة. تحدّث الخطيب عن فضل التبكير إلى الصلاة: «من جاء مبكرًا يكون قد قرّب إلى الله جملاً ومن جاء بعده فقد قرّب بقرة ومن جاء بعده فقد قرّب شاة ومن. .» وهنا تلفّت يوسف حوله وقال:

ـ ياه. . دا أنا يا دوب لحقت صفّ الخرفان!

الذين سمعوه من الجانبين انتظروا حتى انتهاء الصلاة وطلبوا إقامة مجلس تحقيق، وتحدّد مساء اليوم نفسه لعقد الجلسة.

الخالة حميدة ناولت مجاهد كنكة الشاي الكبيرة وأحكمت باب المنضرة حتى لا يصل إلى الرجال صوت مباركة التي تصارع آلام المخاض. كانت تجتهد في تنفيذ تعليمات الخالة فهيمة الداية، يؤلمها الحصى الذي تمدّدت عليه فوق ظهر الفرن. وفجأة أطلقت صرخة طويلة انزلق معها المولود وراء دفقة المشيمة المخاطيّة الحمراء التي انسابت فوق الحصى.

ـ **نصرة من ربّنا، وهاسمّيه منصور.**

قالت مباركة التي أخذت تتأمّل المولود، وهي لا تزال بين الغفوة والصحو. ولم يعترض مجاهد على الرّغم من إدراكه الصلة بين الاسم المقترح واسم منتصر.

وضع كلّ شغفه بها في منصور، الذي بدا نموذجًا مصغّرًا منها، بلا أدنى اختلاف. لا يخرج إلّا حامله على رقبته، تتدلّى ساقاه الصغيرتان على صدره، بينما تتشبّث يداه الغضّتان برأسه. وفي البيت يقضي وقته ساجدًا على أربع، يحمله على ظهره ويدور به حول جدران الغرفة، والولد يمسك بقبّة جلبابه ويهمزه بساقيه الصغيرتين وهو يضحك. وتراقبهما مباركة بصمت محايد.

عاش ينتظر تكرار لحظة الرضى التي منحتها له وجعلته يفخر بذكورته للمرّة الأولى في حياته. ليال طويلة يتمدّد فيها بجوارها، لكنّها لا تتنازل عن هدوء الموتى، باستثناء أنّها صارت تخرج ثديها وتلقمه لمنصور كلّما استيقظ. يمرّر مجاهد أصابعه بحثًا عن ثديها الآخر فتجفل وتتقوّس لتحتوي طفلها.

بدأ يفكّر كيف تسيطر على نفسها إلى هذا الحدّ؟ ويردّ بأنّ

الأمانة تقتضي أن يعترف بأنّه ليس ذلك الشابّ المغوي، لكن ألا تحرّكها الغريزة مرّة؟ هل ترى أحدًا؟ متى وهو لا يفارقها؟!

لم يعد له من مكان. منفيّ في سريرها، منفيّ عن الدوّار بعيدًا عن حفيظة وأولاده. كلّ ليلة يفكّر أنّها الأخيرة له في فراشها. يستمع إلى أذان الفجر في المسجد فيخرج إلى الصلاة. يتبع الإمام سارحًا بحرقة في جوفه تشبه العطش بعد أكل الجبن القديم. غصّة الغضب تجعله يقرّر أن يخرج من المسجد إلى بيته وزوجته. يتصوّرهم كيف سيستقبلونه. لا يترك الشرود مكانًا لذكر أو تسبيح؛ فيردّد التلاوة بصوت عال طاردًا شروده. وعندما ينتهي ويصافح من حوله في الصفّ الوحيد خلف الإمام، تحمله قدماه إلى مباركة، يمضي مسرنمًا. يجدها وقد استيقظت وأعدّت له صينيّة عليها البيض بالسمن والجبن والخبز الساخن. فكّر في أنّ طعامها الأنيق أحد أسباب استسلامه لها. يأكل ما تضع أمامه بينما تأكل عيناه من حلمتيها الباديتين من تحت قميصها، مشدودًا إلى التباين بين نصبة ثدييها وخموص بطنها متشهّيًا، يمدّد بقاءه إلى جوارها يومًا جديدًا، على الرّغم من أنّه يعرف بينه وبين نفسه أنّه تدهور، وأنّ عودته إلى الدوّار صارت واجبة.

- من خرج من داره قلّ مقداره.

المثل الذي ردّده في سرّه كتعويذة، آلاف المرّات، وجد نفسه يومًا بعد يوم، وليلة بعد أخرى، مقتنعًا به كعقيدة لن يزعزعها ضعف. وفي اليوم الذي قرّر أن يعود فيه إلى بيته دون أن ينظر وراءه، اشتعلت الحرب الأوروبيّة.

نتائج معارك الإنجليز مع الألمان، في أماكن لم تخطر على بال أحد بالعشّ، أخذت تظهر من خلال القرارات العصبيّة التي يصدرها المندوب السامي البريطاني في القاهرة، وتبلغ القرى في شكل حملات تشبه مداهمات اللصوص لجمع الأموال. بدأوا بفرض جنيه عن كلّ ذكر بالغ في الأسرة، ثم عادت حملة أخرى لجمع القمح والذرة، كيلة عن كلّ فدّان، ثم بدأت المداهمات لجمع الشباب للتجنيد.

انتشر الخبر في العشّ، فتدافع الشباب طوابير أمام سرحان الجزّار الذي لم يترك الساطور من يده، حتى تخلّص كلّ الرجال في سنّ التجنيد بالعشّ من سبّابة اليد اليمنى. يضع الواحد منهم إصبعه على الأرومة الخشبيّة، ويباعد وجهه ويغلق عينيه، وبضربة واحدة من الساطور يطير الإصبع ويتقافز حتى يهدأ، بينما يكون على الشابّ أن يغمس أصل الإصبع في قدر الزيت الذي يغلي بجوار الجزّار.

ملأت الأصابع نعشًا أدّى الرجال صلاة الجنازة عليه وتمّ دفنها في مقبرة واحدة. لكن خسران السبّابات لم يمنع السلطة من مداهمة العشّ؛ لأنّ الفرقة المصريّة التي تقرّر تشكيلها على عجل للمشاركة في الحرب لم تكن مدعوّة للقتال؛ بل لخدمة جنود الإنجليز وحلفائهم من الفرنسيّين والروس في سيناء وفلسطين، وفي أماكن بعيدة لم يسمعوا بها من قبل مثل بلجيكا.

جاء ضابط إنجليزي وآخر مصري يتقدّمان فرقة هجّانة بدأت في اصطياد الشباب. ووقع سلامة مجاهد المتألّم من حرقة إصبعه

في أيدي الجنود، قادوه إلى مركز التجميع الذي أقاموه في الساحة أمام السراي التي تزعق فيها الغربان.

ناجي ابن السابعة عشرة الذي خطّ شاربه بالكاد، خافت عليه حفيظة من قصّ الإصبع. وعندما بدا واضحًا أنّ الحملة عازمة على البقاء لتجريد العشّ من شبابها ومراهقيها توسّلت إليه ليختفي في الحطب على السطح. ولم يكن من الممكن أن يبقى عرضة للشمس والبرد والحشرات. فكّرت حفيظة بأنّ آخر مكان يمكن أن يفتّشوه بحثًا عن ابنها هو بيت ضرّتها؛ فأرسلت إلى مجاهد بمقترحها.

قابلت مباركة الطلب بكلّ ترحيب، بل قامت بنفسها بزيارة الدوّار، وأحسّت حفيظة بأنّ تعاطف مباركة حقيقي؛ فاستقبلتها بترحيب من تأكّدت أنّ حدسها كان سليمًا عندما لم تبالغ في حقدها على الصغيرة اليتيمة.

عادت مباركة بناجي في يدها متخفّيًا في جلباب امرأة تحت جنح الليل. اقتادته إلى مخزن التبن المظلم في آخر الدار. أعطته حرامًا صوفيًّا فرشه فوق التبن، وقُلّة ماء، وطلبت منه أن ينقر على الباب ثلاث نقرات عندما يحتاج إلى شيء، لتفتح له الباب الذي أغلقته من الخارج وموّهته بقفف فارغة وأجولة ألقتها أمامه للتضليل.

ووجد مجاهد أنّ عليه مواصلة الحياة في بيت مباركة؛ فلم تعد دار بدر، أو دار المرأة الصغيرة التي أذلّت رجولته، بل صارت داره مع نصف أسرته. منصور الصغير الذي يحجل في الغرف المفتوحة، وناجي في الغرفة المغلقة.

تكفّل الزمن بطيّ صفحات لم يتصوّر أحد بأنّها يمكن أن تُطوى، مثل ذكريات الطاعون والكوليرا ودمار الفيضان، وحتى سيرة العائلة التركيّة التي عاشت في العشّ نحو قرن، وتبدو إقامتها، لمن يتذكّرها، مثل عبور غيمة، لكنّ مرور الأيّام لم ينجح في محو صورة الشابّ الربعة، بوجهه المدوّر وعنق الثور الذي ورثه عن أبيه.

لم يبق منتصر حاضرًا في ذاكرات من رأوه يكبر أمامهم فقط، لكنّه شغل أجيالاً لم تره. وكان أكثر من استمرّ في تتبّع أخباره الجيل الذي صار معروفًا بـ «جيل السبعين» وهم السبعون شابًّا الذين حبلت بهم أمّهاتهم يوم زفاف مباركة إلى عمّه، لأنّ الشبق الذي قذف بنطفهم في الأرحام، اختلط بالحزن على مصير شابّ يكنّ له الجميع حبًّا خاصًّا وفاء لذكرى أبيه الذي جعل العشّ مرهوبة بين القرى سنوات طويلة بعد رحيله، حتى إنّهم ظلّوا يتركون بهائمهم

تحت شجرات التوت في ليالي القيظ من دون حادث سرقة واحد. ولم تكن مباركة بحاجة إلى الذاكرة مثلهم. كانت تستطيع أن تلاحق أثر رائحته في شيء مسّه أو شخص صافحه بعد سبعين يومًا.

يكفي أن تمرّ فوق حصيرة الزرع الذابل لتعرف أنّ منتصر كان على رأس من قوّضوه ليلاً. وعندما انتشرت نتانة بقايا بهائم السلطان، استطاعت أن تستخلص من بين خيوط تخثّر الجلد والدم والروث خيط الرائحة العذبة التي تعرفها جيّدًا. وكانت كلّما رأت جنديًّا من الهجّانة يتلصّص عليها من فوق جمله، يُنمّل جسدها رهبة، متصوّرة أنّهم يعرفون سرّها، وسيحاولون إجبارها على الإدلاء بمعلومات عن منتصر. ولا تفارقها هذه الهواجس في النوم؛ فتحلم بأنّهم اقتادوها من ذراعها وأجبروها على السير وراء الرائحة حتى وصلوا إليه فتقوم مفزوعة.

لم يهدأ قلبها إلّا عندما صار منتصر أبعد من أن تشمّه. وبعد عامين من اختفاء أثره زار العشّ بائع قماش جوّال. عندما مرّ أمام الباب أمرت الخالة حميدة بإدخاله إلى الدار. وضعت أمامه بنفسها طبقًا من القشدة مع رغيفين مقمّرين، وبعد أن أكل دخلت عليه بكوب الشاي وسألته:

ـ تعرف منتصر الديب؟

لم يتذكّر البائع الاسم، ولم تتمكّن هي من وصف رائحة منتصر التي تشمّها في الرجل؛ لتسهّل عليه. أخذت تصف له ملامحه ونترة رقبته المستطلعة يمينًا وشمالاً. تذكّر الرجل أنّه باعه منذ شهرين مقطعًا من الدمور، وأنّه ملاحظ أنفار مقرّب من الحاجّ

خطّاب المقاول المعروف في مديريّة الشرقيّة كلّها بمقاولات تطهير وشقّ الترع.

وبعد سنوات سيأتي شابّان ليجمعا التوقيعات على صيغة المطالبة بالدستور التي كتبها الزعيم محمّد فريد، وستضغط مباركة إبهامها المخضّب بالكوبياء على طرف الوثيقة، بينما تنظر بتركيز في عيني أحدهما. وسألته مباشرة:

ـ **منتصر الديب بخير؟**

ـ **وبيسلّم عليكي.**

همس الشابّ، وأخرج من جيبه قصاصة من جريدة تضمّ رسمًا لمجموعة من الرجال مقيّدين، يد الواحد منهم في يد الآخر، بوصفهم العصابة الإرهابيّة التي قطعت السكّة الحديد عند أبي حمّاد، وقلبت قطارًا إنجليزيًّا محمّلاً بالأسلحة متوجّهًا لمنطقة القناة ونهبته. لم تكن هناك أسماء للمتّهمين ولم يكن هناك كلام تحت الصورة، لكنّ ملامح أحدهم كانت متطابقة مع ملامح منتصر.

قال الشابّ إنّه المحامي الذي تولّى الدفاع عنهم في جلسة عُقدت بعد أسبوع من القبض عليهم، وتسبّبت في عزل ناظر الداخليّة، وتغيير نظام الحراسة على المحاكم؛ فقد وضع المحامون خطّة للدفاع عن المتّهمين، بينما وضعت قيادة الخليّة السرّيّة التي ينتمون إليها خطّة لتهريبهم من المحكمة.

حشدوا أعدادًا كبيرة لحضور المحاكمة، وفي وسط الهرج لحظة النطق بالأحكام المشدّدة التي أوقعتها المحكمة بحقّهم تمّ

إطلاق مفرقعات، كان جنود الحراسة أوّل المهرولين، ووجد المعتقلون أنفسهم محرّرين؛ فتفرّقوا بين الحشود.

كان الحادث هو الأوّل الذي يشترك فيه منتصر، طبقًا لعقيدة سياسيّة واضحة، ضدّ الاحتلال الإنجليزي، بينما كانت سرقات المواشي وإتلاف المحاصيل نوعًا من الحنين إلى سيرة الأب، تربّى عليه، ملتقيًا مع رغبته في ردّ الظلم، إن لم يكن إلى عمّه فإلى أيّ متجبّر آخر، عمدةً كان أو سلطانًا. وقد التقت رغبته مع رغبات أصدقاء الأب، الذين لم يعارضوه في تفكيك العصابة، عندما شعروا بضيق الطوق الأمني، لكنّ العمّ رُزّة الذي يكنّ لسلامة ولاء لا مثيل له، لم يشأ أن يترك «ابن الغالي».

ـ ماليش حدّ ورايا أخاف عليه في ميت سهيل.

قال الرجل الذي انحنى ظهره، مصمّمًا على مصاحبة منتصر، مقترحًا عليه العمل مع المقاول الذي اعترضه قطّاع الطرق وسرقوه ذات ليلة بالقرب من العشّ، واستجار بسلامة. وقبل أن يصل إلى بلدته، كان سلامة قد أمسك باللصوص ووبّخهم واستردّ المسروقات، وأرسلها فورًا مع رُزة، مشفوعةً باعتذار عن تعرّضه لهذا الحادث في منطقة تقع في نفوذ عصابة لها تقاليدها في حماية الغريب.

تذكّر الحاجّ خطّاب بصعوبة العمّ، وإن لم ينس الحادث، وبعد الترحيب الحارّ وافق على تشغيلهما من دون حماس. كان خائفًا من أن يجلبا إليه المشاكل مع السلطة. سجّلهما في دفاتره باسمين مزيّفين، ومع الفجر كانا بين الأنفار. يضرب العمّ كوريكه

في الطين ويفرغه في الزنبيل على ظهر منتصر الذي يصعد به فوق سلّم من الحبال منشور على انحدار الجسر، ليلقي بحمله على هرم الطين بحذاء المجرى. وفي نهاية اليوم تشاركا في بناء خصّ من أعواد البوص وجذوع الصفصاف، بين الأخصاص الأخرى تحت أيكة من الجمّيز العتيق تتشابك فروعها في كلّ اتّجاه.

كان الحاجّ خطّاب بعمامته البيضاء حول الطاقيّة الوبر مثل واحد من شيوخ العشّ، أمّا ابنه عبد الستّار الذي يساعده ويحلّ محلّه عندما يغيب فقد تحيّر منتصر في شأنه منذ البداية. شابّ نحيف في مثل سنّه أو أكبر قليلاً، يحرص على ارتداء الطربوش فوق الجلباب، درس في معهد الزقازيق الأزهري، ولكنّه كان يجد ملكوته بين الأنفار. ملك يأمر فيُطاع، يختلي بالبنات القليلات اللاتي يعملن بين الرجال ويعدن في المساء إلى قراهنّ القريبة، ويغازل النساء اللاتي يأتين لزيارة أزواجهنّ، بينما لا يفارق يده كتاب يحمله دائمًا كشارة تميّز، رغم أنّه نادرًا ما يجلس في الظلّ ليفتحه.

قضى منتصر أكثر من عام على حدود العالم بين أنفار الحاجّ خطّاب، ينتهون من تطهير مصرف وينتقلون إلى حفر ترعة أو إنشاء هويس. تبدو له مدينة الزقازيق من قريب دون أن يدخلها. بين الحين والحين يأتي تجّار يحمِّلون حميرهم بجرار المشّ وأعراش البصل والثوم وأقفاص الطماطم. بعضهم يأتون بأثواب القماش والقمصان والجلابيب الجاهزة والصدريّات. كان يشتري ما يحتاجه منهم دون أن يجد في نفسه الرغبة لمرافقة عبد الستّار الذي أخذ

يقرّبه منه ويدعوه لرحلاته إلى الزقازيق. كان يخشى إن ذهب إلى المدينة أن يعود فلا يجد كنز أحزانه الذي أودعه خصّه في اليوم الأوّل لإقامته؛ فبمجرّد استقراره عادت إليه ذكريات مباركة مؤلمة. في الصباح يواصل عمله صامتًا؛ يضرب فأسه بعنف مكتوم أو يحمل زنبيل الطين، لا يشارك العمّال غناءهم الحزين الذي يهيّج ذكرياته. وفي المساء يستلقي على فرشة القشّ، ويغمض عينيه فتتلامح أمامه بجرّتها على رأسها ويشعر بصخب الدم في قلبه. يستعيد تحيّته المرتبكة، وكأنّه يستعدّ لإلقائها بشكل أكثر ثباتًا، فإذا بها تخرج مرتعشة كما كانت.

- إزّيّك يا مباركة؟

بوقار صمته والحيويّة في وجهه المرتوي، كان واضحًا أنّه مختلف عن العمّال المعدمين. وتيقّن عبد الستّار أنّ منتصر ابن أصل وراءه حكاية سعى إلى معرفتها. أعفاه من العمل، وجعله ملاحظًا مثله ينوب عنه في غيابه، أو يصحب مجموعة من العمّال تنتقل لموقع آخر. وبعد أن توثّقت علاقتهما طلب منه عبد الستّار مرافقته السفر إلى القاهرة بمجموعة من العمّال لتنفيذ مقاولة في المعسكر الإنجليزي بصحراء العبّاسيّة.

لم يستطع منتصر أن يخفي اضطرابه، لكنّه استجاب للملاحظ الذي يعامله كصديق. وفي اليوم المحدّد كان مستعدًّا بجلباب جديد وقميصين وصديريّين وبلغة، وضعها في صرّة. ودّع العمّ رُزّة الذي قال إنّه سيعود لانتظار الموت في ميت سهيل، وقفز إلى إحدى العربات الثلاث التي تجرّها البغال، وانطلقت القافلة على ترعة

الإسماعيليّة نهارًا كاملاً، حتى وصلت إلى أبي زعبل مع اقتراب الشمس من المغيب، فتوقّفت أمام ساقية تسيّج مدارها نخلة وأشجار توت كثيفة. فكّ العربجيّة البغال عن العربات وعلفوها، بينما تعاون العمّال في إيقاد النار لعمل الشاي الذي تناولوه مع كسرات الخبز، قبل أن يلتفّ كلّ منهم في بطّانيّته وينام. ومع الفجر استأنفت القافلة مسيرتها إلى مسطرد ومنها إلى بساتين المطريّة.

عندما اقتربت القافلة من أسوار سراي القبّة، سرى خدر غريب في عروقه وهو يتطلّع إلى السور، وفي مواجهة البوّابة الضخمة للقصر اختلس نظرة خاطفة. بدا الممرّ والنافورة الضخمة من خلل الحديد المشغول. كيف يكون السلطان؟ صوّب عينيه مرّة أخرى باتّجاه البوّابة في فضول مضطرب.

لم ير أحدًا في الممرّ الطويل، واستدارت القافلة لتسلك شارع ترعة الجبل، وقبل أن يفيق من دهشة سراي القبّة وجد نفسه مرّة أخرى أمام سراي أقلّ حجمًا، شعر تجاهها بالجمال أكثر من الهيبة، سيعرف بعد ذلك أنّ اسمها سراي الزعفران. استدارت القافلة من أمامها ناحية الجنوب، ودارت حول البيمارستان لينفتح الأفق في النهاية على الصحراء المترامية. كانت الشمس تكاد تختفي على الجهة الأخرى، بعيدًا بين بنايات تبدو عالية بشكل لم يره منتصر من قبل.

توقّفت العربات أمام مساحة واسعة من الأرض مسيّجة بالسلك الشائك، وبداخلها أكوام من أحجار البناء. فتح جنديّان أسمران يحملان بندقيّتين في كتفيهما مصراعي بوّابة واسعة من الخشب

والسلك. كان واضحًا أنّ المكان يعجّ بالعمّال، بعضهم يعمل في تشوين الحجر، والبعض في نخل الرمل، يفصلهم قاطع من سلك آخر يكشف عن مبانٍ صغيرة من الحجر، عرف أنّها ثكنات الضبّاط المصريّين، وعلى مسافة منها تقف مجموعة من المباني أكثر فخامة، للقادة الإنجليز.

كان المشروع الجديد عبارة عن توسعة للقشلاق، بإضافة إسطبلات جديدة للخيل ومخازن للذخيرة وخنادق تحت الأرض، وكانت مهمّة عمّال المقاول خطّاب الذين يقودهم عبد الستّار هي أعمال الحفر.

مصادفة قاسية بقدر ما هي مدهشة أن تكون القاهرة أمّ الدنيا؛ اللقاء الأوّل لمنتصر مع مدينة!

صارتِ الإقامة بالمعسكر في عنبر واسع مثل إسطبل من الحجر، مسقوف بالزنك الذي يجمع بدأب صهد النهار ويبخّه بالليل في زفرات شرّيرة، وسط شخير خمسين نفرًا يضع كلّ منهم حاجيّاته بجوار رأسه. كان في كلّ ليلة يهرب من هذا الجحيم، يتحسّس خطوه في المنطقة المجاورة للمعسكر بالإثارة نفسها التي يشعر بها طفل تتحسّس قدمه الأرض للمرّة الأولى، وفي كلّ يوم يزيد المسافة خطوات جديدة في سعي للعودة إلى ما رآه مذهولاً يوم وصوله، حتى وجد نفسه أخيرًا بين عدد كبير من القصور البيضاء والحدائق وأعراش الياسمين والجهنّميّة على أسوارها، ينظر إلى الشوارع المبلّطة بالأحجار البازلت السوداء باضطراب من اكتشف فجأة مدينة مسحورة من مدن ألف ليلة، ويتوقّع في كلّ لحظة أن

تمتدّ يد لتدخله أحد قصورها، ليجد نفسه في مواجهة ما بداخلها من مخاطر وملذّات.

كان العمل في حفر المعسكر أقلّ إجهادًا من حفر الترعة، وتمّ استبدال المشّ والخبز الجافّ بالفول المدمّس والعدس الأسود مع الخبز الطريّ، كما دبّر له عبد الستّار سريرًا وأخذه لينام معه في غرفته، فعادت إلى وجه منتصر بعض نضارة وجهه القديم، وجعلته اكتشافاته اليوميّة أكثر إشراقًا.

ذات ليلة عاد إلى الثكنة متهلّلاً يصف لعبد الستّار اكتشافه الطريق إلى سراي الزعفران التي مرّوا بها في طريق قدومهم، والنساء اللائي رآهنّ يتنزّهن في حديقتها، وأخذ عبد الستّار يضحك ساخرًا.

سأله منتصر غاضبًا:

ـ أنا كذّاب يا عبده؟

وزاد عبد الستّار من ضحكه وقال:

ـ لأ.. طيّب بسّ!

عندما صحبه عبد الستّار إلى شارع الجيش عرف لماذا كان يضحك من رحلاته بين بساتين وقصور العبّاسيّة الشرقيّة. رأى للمرّة الأولى الترام؛ وهو يقطع الشارع بين صفّين من الحوانيت بواجهات مضيئة، بعضها يقيم المصاطب المفروشة بالحصير. توقّف عبد الستّار أمام أحدها وجذبه من يده وانعطف به داخلاً.

كان منتصر قد بدأ تعلّم إخفاء دهشته حتى لا تصير موضع

سخريّة عبد الستّار فيما بعد، ولكنّه كان يدخل موازنًا خطوه باستثارة من يقطع عرض مصرف فوق جذع نخلة أو شجرة تهتزّ تحت قدميه.

في الداخل كان الرجال يتوزّعون على الدكك الخشبية، يشربون الشاي والقهوة ويدخّنون الجوزة، وفي زاوية من المقهى تجلس فرقة موسيقيّة وأمامها راقصة تتلوّى وتغمز بعينيها لروّاد المقهى.

في طريق عودتهما كان منتصر يشعر بسرب من النمل يسرح في رأسه. الرصيف البازلت تحت قدميه هشّ هشاشة ذكّرته بملمس تراب السكّة عندما غادر العشّ، لكن شتّان بين هشاشة الخور والخوف، وبين ما يحسّ به الآن من خفّة تكاد تحمله على الطيران.

ـ شفت الرقّاصة يا عبده؟

ـ اسمها تحيّة.

ردّ عبد الستّار، ولم يشأ منتصر أن يسأله كيف عرف اسمها. وفي الصباح أخذ يراقب العمّال، شاردًا يحاول أن يسترجع أحداث ليلته ورحلة عودته مع عبد الستّار في منصف الليل، ليتأكّد إن كانا قد تكلّما عن الراقصة، أم أنّه كان يحلم بتأثير الحشيش الذي دخّنه للمرّة الأولى؟

بعد ذلك ستصبح المقاهي الجزء المدهش من حياة منتصر الجديدة. ومع عبد الستّار أيضًا عرف بارات ومواخير كلوت بك،

عندما صارا يركبان الترام إلى ميدان العتبة، وفي أحدها سيعرف سميحة المرأة التي ذاق معها طعم اللقاء الأوّل والرعشة التي أزاحت بعيدًا ذكرى مباركة، حتى إنّه كان يحاول استدعاءها قبل النوم، فكانت ذاكرته تكاد لا تنجح في تجميع صورتها وهي تحمل الجرّة؛ تأتيه باهتة دون إحساس بالأسف.

بدأ يستعير من عبد الستّار كتبه، عندما يقرّران عدم الخروج، يجلس محاولاً تهجّي الكلمات، وشيئًا فشيئًا صار يقرأ بطريقة مُرضية. أعادته إلى ذكريات صباه عندما كان يقرأ للرجال في دكّان جودة الخيّاط ألف ليلة وليلة، ولكنّ مجاهد الذي قطعه من الكُتّاب حرمه أيضًا من هذه المتعة.

عرف الطريق إلى مطابع ومكتبات الصناديقيّة، وأتاح له ذلك التعرُّف على بعض طلّاب الأزهر والجلوس معهم في المقاهي، مثل الفيشاوي بالحسين ومقهى القزّاز بالموسكي الذي جعله يشعر بأنّه عاد إلى العشّ، حيث معظم الروّاد من الأرياف، فكأنّه جالس عند دكّان جودة أو أمام المسجد. لم يتغيّر سوى استبدال التربّع على الحصير في العشّ بالدكك هنا، ووجود نادل مستعدّ لتلبية الطلبات. لكنّ الاختلاف الأهمّ كان في المناقشات، من مواعيد الريّ والحصاد وظلم جباة المال، إلى علاقة السلطان بالحاكم الإنجليزي المكروه، والمتعاونين معه من المصريّين، وجهود محمّد فريد الذي تسلّم لواء الزعامة بعد مصطفى كامل، من أجل الاستقلال، وأخبار الحرب الأوروبيّة، إلى غير ذلك من الحوارات التي صارت متعة منتصرٍ الجديدة، وجعلته يشعر بأنّه في مكانه،

وأصبح قادرًا على التحرّك بمفرده، بعيدًا عن عبد الستّار.

قاده بعض الطلّاب إلى مقهى متاتيا بالعتبة، وقد بهره الجلوس على مقربة من أهل الأدب والفكر، أشار له أصدقاؤه نحو الشيخ المعمّم وسط حلقة من المنصتين، لم يصدّق أنّه يجلس في المكان نفسه مع الشيخ رشيد رضا الذي احتلّ مكان أستاذه الإمام محمّد عبده.

تعرّف إلى أعضاء بخلايا المقاومة؛ فهرب من القشلاق، وانخرط في التدريب على استخدام السلاح واستخدام القنابل اليدويّة. شارك في عدّة عمليّات ناجحة، كان أخطرها قطار أبي حمّاد. وكانت عمليّة تهريبهم من المحكمة نصرًا آخر، ضاعف من غضب سلطة الاحتلال على السلطات المصريّة واعتبرتها غير جادّة في تأمين ظهر الإنجليز في الحرب. أثناء الهرج دسّ أحدهم في يده مظروفًا به ثلاثة جنيهات وتوصية بالهرب إلى فلسطين مع وصف مقتضب لأفضل الطرق، واقتراح بالإقامة في نابلس. في القطار أخذ منتصر يسترجع رحلة سبع سنوات عرف فيها الخوف والفرح والإحساس بالقوّة. لم يشعر بالأسف لما فعله مجاهد معه، فلولاه لعاش ومات في العشّ دون أن يعرف أنّ العالم ضخم إلى هذا الحدّ، أو أنّ بوسع المرء أن يتحرّك ويصنع مصيره بدلاً من أن يستسلم لحياة راكدة مقيّدًا بخيط عنكبوت.

أحد الولدين في الحرب والثاني مختبئ منها. انخرط مجاهد في العمل كمن يكتشف متعة جديدة. يندهش عليّ، الذي تعلّم كلّ شيء في الزراعة من منتصر وسلامة، وهو بعد طفل، عندما يرى قلّة خبرة أبيه، لكنّه صار سعيدًا بملامح الطيبة التي بدأ يراها في رجل كان يخشاه أكثر من الموت.

يتذكّر أنّه كان يتركه يعمل في الحقل بلا رحمة عندما كان في عمر منصور الذي يردفه وراءه على المهرة، ويجلسه على حافّة المروى، لا يمنعه انهماكه في العمل من الردّ بكلّ اهتمام على أسئلته الفضوليّة.

عندما لا يأتي بمنصور، كان يسوق المهرة التي زهدها أمامه مع البهائم. وبدلاً من أن تمضي متبخترة به على ظهرها، تعود محمّلة بالبرسيم كحمار، وهو ما لم يكن يسمح به في السابق.

يترك كلّ شيء لابنه أمام الدوّار ويعود إلى دار مباركة، سعيدًا لأنّ منصور بدأ يتعرّف علِى أخيه، بعد أن كان مروره السريع كالشبح بين المتبن وبيت الراحة يثير خوفه، خاصّة وقد قطع ناجي كلّ علاقة له بالطفولة في مخبئه، امتلأ جسده متجاوزًا حجم منتصر عندما هجّ من العشّ، استدار وجهه مقتربًا من ملامحه، غير أنّ ليالي الخوف ثبتت في عينيه ذعر حيوان جريح. ولم يمرّ استنشاق الغبار والنوم فوق التبن سهلاً على جسده.

لم يبق موضع لم يعرف الدمامل والبثور. أخذت مباركة تنظّفها له وتدهنها بالعسل، ثم استبدلت به البنّ بعد أن شقّت جيوش النمل طرقها إلى دهان العسل. وظلّ تمشيط القرى مستمرًّا بحثًا عن وقود الحرب من الشباب، تهدأ مداهمات السلطة عندما تلوح علامات سلام بين المتحاربين، وتنشط عندما تحتدم المعارك.

أشهر طويلة لا يرى فيها ناجي النور إلّا من خلال شعاع يسقط من طُقّة صغيرة بسقف المتبن المظلم، يبادر إلى إغلاقها بلفّة من قماش خلق، مربوطة ببوصة طويلة يدفعها بها إلى السقف. تحمل إليه الخالة حميدة وجباته الثلاث، وطشتًا وماءً للاستحمام كلّ أسبوع، وعندما يريد أن يقضي حاجته، ينقر على الباب فتستطلع الموقف قبل أن تفتح له ليتسلّل إلى بيت الراحة ويعود؛ فتغلق عليه العجوز الباب من الخارج، وتكوّم الفؤوس والحبال والمقاطف أمامه.

عندما أُصيبت المرأة الواهنة بالعمى لم تعد تجد طريقها بسهولة. لزمت غرفتها، وصار على مباركة أن تقوم بخدمة ناجي

بنفسها، تناوله إفطاره أو تتلقّف منه ماء استحمامه، وتلتقي عيونهما بحنان حزين. تجلس أحيانًا بجواره إلى أن يتناول طعامه، يتبادلان نظرات متعاطفة لم يكن فيها أكثر من حسّ التضامن الذي يوحّد الضحايا.

وعندما مدّت يدها تنظّف بثرة نمت في خدّه كشف لها عن خُرّاج متقيّح أسفل ثديه. جلست مقابله تمامًا، وأخذت تحفر البثرة. ندّت عنه آهة تشبه عواء كلب جريح، وانحنى حتى لامس صدره العاري صدرها، ولفحتها أنفاسه. اضطرب قلبها عندما وجدت نفسها مرّة أخرى أمام رائحة الذكورة التي عرفتها في ابن عمّه.

تحرّك باتّجاهها؛ فأضاء الشعاع الضعيف، الساقط من كوّة السقف، وجهه المشرق بصفرة نوار القطن. تغلغل التوتّر المبتهج في جسدها، وقد شعرت أنّ روحها صارت خارجيّة ومكشوفة أمامه. وازداد اضطرابها، لأنّها عرفت من عينيه المتألّمتين المتوسّلتين أنّه رأى ما فعلته كرة النار التي دحرجها بينهما.

- بوسيني.

قالها بوقاحة منتصر وبراءة منصور. ولم يطرف له جفن، سوى أنّه كان يتفزّز مع أصابعها، التي لم تعد مؤلمة. اقترب حتى أصبح ملاصقًا لها، عامدًا هذه المرّة، مشرّعًا خدّه. مالت عليه، وتركت شفتيها على جبينه بإذعان مبتهج. مدّ يديه وأخرج ثدييها، وصار يبادل بين خمشهما وضغطهما معًا ومصّ الحلمتين. استلقت وسحبته فوقها. أخذ يهذي، بينما التزمت الصمت، وهي توجّهه من

خاصرتيه إلى الحركة الصحيحة في السرعة والاتّجاه، حتى فقدت الشعور بنفسها وأجابت صرخته بخطوط رسمتها أظافرها على ظهره لتضاف آلام الجروح إلى آلام البثور.

بعد أن أصلحت ملابسها، عادت إلى الجلوس في مواجهته، مستأنفة تنظيف قروحه، وكبسها بالبنّ.

ـ كان حلو؟

سأل بالسذاجة الوقحة نفسها. ولم تردّ منهمكة في عملها بلطف أحسّه عضوه؛ فأخذ بالاستجابة في قفزات حتى تصلّب تمامًا، نظر إليها بطريقة أراد أن يقود بها عينيها لترى المعجزة، وعاد إلى الإلحاح.

ـ مش مبسوطة؟!

ثبّتت عينيها للحظات على وجهه، الذي يخفي تحت سذاجته مكر الذكورة. مدّت أصابعها إلى البرهان الواقف، وأخذت تفركه حتى بلّل يدها.

ـ هاتي أشمّه.

قال بفضول مبتهج، فألقمته يدها بالسائل يقطر منها. وضحكت ضحكة سرعان ما غرقت تحت موجة ألم، نبعت من ذاكرتها التي لا تحتفظ بضحكة واحدة من قبل، ثم عادت إلى ملامحها غبطة الرضى وبهجة الاكتشاف. ليس فقط اكتشاف سرّ الذكورة في رجل آخر من العائلة، بل اكتشاف الضحك. وكانت تعتقد أنّها ليست أكثر حزنًا ممّن يضحكون، لكنّها تفتقر إلى هذه الملكة فحسب.

تحرّكت يداها تعتصران صدره، من تحت إبطيه حتى تتشابك أصابعهما في الوهدة بين كثيبي ثدييه وتعود إلى المباعدة بينهما من جديد. وعندما رأت برهانه يتحرّك مرّة أخرى، قرصت حلمتيه، ورفعت المشنة بالطبق وبرطمان البنّ فوقها وغادرت دون أن تنظر وراءها.

لم تشعر إلّا بالاضطراب البهيج الذي عرفته مع منتصر. امتلأت حيويّة، لكنّ الأشياء عادت تتساقط من بين يديها، وتبتسم إذ تتذكّر تساؤل أبيها عن إمساكها بذيل قطّ.

وعاش ناجي يرهف سمعه لأدنى حركة، بتحفّز حيوان جائع ينتظر أن تتعثّر به فريسة. ولم يكن يضيّع فرصة هدوء في الدار؛ فيطرق على الباب، وتترك مباركة ما بيديها وتركض إليه، تنسى طبيخًا أو خبزًا على النار، أو تسقط دلو الماء على باب غرفة الطيور العطشى، أو تترك ملابس في طشت الغسيل. لقاء بعد لقاء، بدأت تستخدم ملكة صوتها الذكوري المجروح، يتداخل أنينها المتحفّظ مع عوائه الذي يتصاعد فتصمت وتكتم فمه بيدها مشيرة إلى وجود المرأة العمياء.

مع مرور الوقت تحت حصار الهجّانة، بدأت حفيظة تغامر بالسعي لرؤية ابنها. كان غياب سلامة قد أعاد إليها ألم انقطاع أخبار نجيّة، التي لم تعرف عنها شيئًا من يوم خروجها. لم يعد غير ناجي وعليّ الذي ترسله لاستطلاع الطريق، قبل أن تتدثّر بفوطتها السوداء وتهرول إلى بيت مباركة.

تطرق بابها، فتخرُج إليها، تتلفّتان حولهما للتأكّد من عدم

وجود رقيب، وتدخلان لتتوقّفا وراء الباب حتى تطمئنّا تمامًا. تمضي مباركة إلى المتبن، تفتح الباب لناجي وتعود أمامه. تجلس متحاشية، ما أمكنها، النظر باتّجاهه حتى لا تنهار من إغواء عينيه الحيوانيّتين أمام الأمّ، تتعمّد عدم التعليق على أيّ شيء يقوله. وكان مجاهد يعود فيرى ناجي يلاعب أخاه بينما تتهامس الضرّتان؛ فيشعر بأنّ عالمًا جديدًا بدأ يتشكّل بدونه، فينسحب إلى المنضرة يدخّن الجوزة، وينتظر أيًّا من أصدقائه يشاركه سهرته.

عندما ظهرت على مباركة أعراض حمل جديد أحسّ مجاهد بالتشوّش، وهو يسترجع تحرّشاته الذليلة بها، وينتبه إلى أنّها في الفترة الأخيرة صارت أقلّ عدائيّة، بينما صار هو أقلّ همّة. هل ولجها بين الصحو والنوم دون أن يتذكّر؟ هل هي مخاوية الجانّ حقًّا؟ فكّر ألف مرّة في أن يواجهها بشكوكه، لكنّه لم يقو، ولم يقو على كرامته كي يبوح لأحد غيرها. طوى قلبه على ألمه، أمّا حفيظة فبدأت في حمل الطعام جاهزًا من الدوّار، وصارت تأتي لتساعد مباركة في أعمالها. وعندما رأت تأثّرها احتضنتها مربّتة على ظهرها.

- إنتِ زيّ بنتي الغايبة.

قالت وهي تنشج. بكلّ ألم الخوف على ابنتها التي لا تعرف عنها شيئًا في بلدة بعيدة لا تحسن نطق اسمها، وعلى ابنها الغائب في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وليس هناك ما يدلّ على وجوده سوى بطاقة بريديّة اهترأت في سيّالة جلبابها، عليها صورة لميدان فسيح وفي ظهرها بضع كلمات، استغرقت عدّة أشهر حتى

وصلت إلى العشّ ذات صباح مع ساعي بريد من بلبيس، أعادته حفيظة محمّلاً بالبطّ والأرزّ والفول، حتى لا يتوانى في توصيل أيّة رسالة قادمة، لكنّه لم يأت مرّة أخرى.

لم تجرّد الحرب القرى من شبابها فقط، بل أنهكتها بالضرائب والإتاوات. كلّما اقتربت الحكومة من الإفلاس بالغت في فرض الضرائب، ولم يكن الجباة يكتفون بتحصيل ما تطلبه السلطة، بل يضيفون إليه الإتاوات الخاصّة بهم، حتى عمّ الجوع، وزادت تمرّدات الفلّاحين، وبدأت القرى تهتمّ بأخبار الحركة الوطنيّة، وتنقسم الانتماءات بين حبّ محمّد فريد، خليفة مصطفى كامل، والتشيّع لسعد زغلول، ناظر الحقّانيّة الذي استقال من منصبه حتى يكون مع الشعب، لا مع المستعمر.

وعادت حوادث السرقة تزدهر من جديد، ولم تعد هناك تقاليد كما كان في السابق، إذ لم تعد السرقة قاصرة على زرائب العمد والعائلة الحاكمة؛ بل شملت الجميع دون تمييز. وبدأت حفيظة الخائفة من الدوّار الواسع، تأخذ عليّ في حضنها، بعد أن تكون قد أغلقت باب غرفتها وأسندته بالسلّم الخشبي المثبّت بحيث يحصّنه ضدّ أيّة محاولة للفتح عنوة. وعندما استيقظت على خبطات المهرة لرأسها في باب غرفتها، نظرت من الكوّة إلى الشارع فوجدت البهائم في أيدي رجال ملثّمين، صرخت مرعوبة، فسمعت أصوات جري اللصوص، الذين تركوا البهائم متناثرة في الشارع، وفي حضور مجاهد الذي جاء وسط كلّ من أيقظهم صراخ حفيظة، اكتشفوا النور القادم من النقب الكبير الذي فتحه اللصوص

بالعتلات في حائط الزريبة، جمعوا البهائم من الشارع، كما عاينوا المهرة التي يقطر منها الدم، وقد تركت العصابة مسلّة مغروسة في بطنها.

كان من الواضح أنّهم يخزونها لحثّها على المشي، لكنّها أصرّت على العصيان رغم الوخزات التي أتلفت جسمها، وأخذت تنطح في الغرفة وتحمحم بتوتّر وتضرب الأرض بقوائمها، وسط هِمهمات اللصوص الساخطة.

لم تعش المهرة بعد ذلك سوى ثلاثة أيّام. وجدوها ميتة بتأثير تقيّح جروحها، جرّوها بالحبال، لتنهشها الكلاب على جرف المصرف بعيدًا عن القرية. وبكتها حفيظة التي كانت تكرهها باعتبارها أحد أسوأ نزوات مجاهد؛ تقاسمهم محصول الحبوب، بينما يبدّد وقاره بالرقص فوقها في الأفراح والموالد. وعاش مجاهد بقيّة أيّامه يتذكّرها بألم لم يكن يعرف أنّها ستتركه في قلبه، وظلّ حتى وفاته يحكي لمن لم يرها من أولاده وأحفاده عن مهاراته ومهاراتها وتناغمهما معًا، ثم يختتم ببطولتها الأخيرة القادرة على إسالة الدمع في عيون جيل لم يرها.

عندما توقّفت مداهمات السلطة للعشّ خرج ناجي من مخبأه. حملت إليه مباركة حلّة الماء الساخن والطشت ليتحمّم في حجرة عاديّة. أخذ ينظر إلى جسمه تحت الضوء، يتعرّف عليه من جديد.

مبلّلاً بماء استحمامه الأخير في بيت مباركة، حمل ملابسه التي جمعتها له في بقجة، مودّعًا الجنّة المظلمة، إلى الدوّار.

ـ اتعوّدنا على وجودك يا ناجي.

قالت مباركة، دون أن تتمكّن من إخفاء الرعشة التي اندفعت من أعماقها، وأخفت صوتها في نصف اسمه؛ فشعرت بعريها أمام مجاهد الذي يكركر بالجوزة على بعد خطوات منهما. لم يردّ ناجي، متشاغلاً بمنصور الذي تمسّك بذيل جلبابه ليمنعه من الخروج. استدار وحمله في ذراع، وبالأخرى رفع بقجة الملابس وهمّ بالخروج، لكنّ منصور الذي يريد أخاه من دون أن يغادر أمّه

ألقى بنفسه نحو مباركة التي وجدت نفسها منجذبة للمس ناجي، بينما تتلقّف منه الصبي. مضى دون أن ينظر وراءه، متحسّسًا صدره مكان اللمسة التي كثّفت فيها كلّ رغبتها.

لم تكفّ حفيظة عن زيارة مباركة والسهر عندها، بينما يكون مجاهد قد نام بعد صلاة العشاء مباشرة. تتحدّث معها كأمّ تحكي لابنتها. تقصّ عليها ذكريات لم تعشها الصغيرة. تسألها مباركة عن أحداث اليوم، في محاولة لحملها على الحديث عن ناجي الذي عاد إلى العمل في الحقل، مع مجاهد وعليّ. تواصل حفيظة الكلام حتى تتعب، فتضطجع أمامها دون أن تتوقّف عن الحكي، وكثيرًا ما تنعس والكلمة في فمها، فتريح مباركة رأسها، وتتركها حتى تستيقظ مندهشة مع أذان الفجر.

ـ خلّيني أريّحك من غدا الرجّالة يوم أو اثنين في الأسبوع.

اقترحت مباركة، ونبّهتها حفيظة إلى حاجتها للراحة.

ـ على الأقلّ لمّا يكونوا شغّالين في أرضي.

كان توسّلاً أكثر منه اقتراحًا، قبلته حفيظة، دون أن تناقشه حتى مع نفسها، فقد يكون دافعه ملل الحامل من البقاء في البيت.

ابتهج ناجي للنبأ، وأخذ ينتظر الأيّام التي تقرّر فيها مباركة حمل الغداء إليهم، يترقّب وصولها، ويرتّب في كلّ مرّة أسبابًا تجعله يسبقهم ليختلي بها لحظات قبل أن يخرج مجاهد وعليّ وراءه من بين أعواد الذرة. ترفع الغطاء عن الصينيّة النحاس الكبيرة، تكشف لهم أطباقها الدسمة الأنيقة، التي تجعل نوبتها

مرغوبة من الرجال الثلاثة. يأكل ناجي صامتًا وتتّصل بينهما النظرات السرِّيّة، كماء يسري من تحت تبن. وقد زادها الحمل امتلاء وجمالاً، بينما زادته لفحة الشمس والهواء رجولة، وأضفى التعب على جسده كسلاً مغويًا. لا يكفّان عن المطاردة النهمة، بين العيون، متحاشيين ما أمكنهما شرر التقاطع، إلى أن تحمل مشوّشة بقايا الطعام وتنصرف، فلا يتذكّر ما أكل توًّا.

اقترحت حفيظة على مباركة الانتقال للعيش معهم في الدوّار، كي تتمكّن، مع تفيدة زوجة سلامة، من رعايتها بشكل أفضل عندما تضع مولودها. خفق قلبها للاقتراح؛ حيث ستجد نفسها مرّة أخرى في بيت واحد مع ناجي، بدلاً من استراق النظرات والملامسات السريعة والخلوات المضطربة للحظات في مناسبات متباعدة، وفي الوقت نفسه اضطربت خوفًا من فخّ العيش بجواره في الدوّار الصاخب. أخذت تتخيّل نفسها منهمكة معه في سريرها، بينما يقف على رأسيهما أحدهم. أخذ الرأس المطلّ من الباب يتغيّر حسب الاحتمالات التي وضعتها هواجسها، يتسارع نبضها أكثر وهي تتصوّر ردّة فعل كلّ منهم.

بلغ اضطرابها مداه عندما تذكّرت تفيدة زوجة سلامة، المرأة التي كرهتها أكثر من غيرها، منذ الصبا عندما كانتا تلتقيان في توصيل عشاء العرائس، أو في وابور الطحين، أو أثناء ملء الماء من الترعة. فتاة لئيمة، بجسم رجولي، عريض لا خصر له، ووجه قاس. فم كبير، شفتان ضخمتان، أنف حادّ وكبير، وعينان واسعتان بوقاحة. لا ترمش عندما تتكلّم أو تستمع، تنظر من أعلى

إلى أسفل وكأنّها تعرّي من أمامها.

طال صمتها، وتقلّبت ألوان وجهها قبل أن تردّ على اقتراح حفيظة كالمنوّمة:

ـ ماشي، يكون أحسن.

مجاهد الذي يعرف حفيظة، ابنة عمّه، لم يستبعد أن يكون دافع التوفير وراء اقتراحها، خصوصًا أنّ الحالة تدهورت حتى اضطرّوا لدفع الأموال الأميريّة في السنة الأخيرة من مصاغ المرأتين. أصابه الاقتراح بالكمد، ولكنّه لم يجد ضرورة لرفض التناغم بين الزوجتين.

تمّ تفكيك السرير والدولاب، ونقل خزين الحبوب والبقول والسمن، والأرانب والطيور، بما في ذلك الحمام الذي قُصّ ريشه، حتى يألف مهاجعه الجديدة في الدوّار.

تركت حفيظة لمباركة حرِّيَّة اختيار الغرفة التي تضع فيها سريرها، فاختارت غرفة معزولة غير تلك التي شغلتها أوّل مرّة عندما كانت وحدها بالدوّار. غرفة فسيحة بجوارها أخرى صغيرة، خصّصتها للخالة حميدة حتى تتمكّن من رعايتها، مدفوعة بتأنيب الضمير، حيث نسيتها منذ مدّة طويلة، ولم تنتبه إلى وجودها إلّا مع الاستعداد للنقل من الدوّار. عرفت حجم الاضطراب الذي سبّبه لها ناجي، حتى لم تعد تشعر بوجود المرأة التي طالما خفّفت وحدتها في غياب أمّها، وفي حضور مجاهد.

عندما ماتت أمّها كانت مباركة تعرف معنى الموت بشكل

تقريبي، لكنّها لم تكن تدرك أنّ من يذهبون إليه لا يعودون ثانية. كانت تراقب خروج النعش من الدار، وتتذكّر الآن أنّها كانت تعرف أنّ ما يحتويه هو أمّها، لكنّها لم تبك. وعندما تسابقت الجارات على إرسال الطعام في أيّام العزاء، كانت تأكل بنهم، يتملّكها الفضول لاختبار مهارات الطهو لدى كلّ منهنّ. الخالة حميدة هي التي كانت تحتضنها وتبكي كلّما رأت غبطتها البلهاء، ولم تنم ليلة دون أن تطمئنّ عليها.

في الأعياد وليالي المولد، كانت الخالة حميدة تأخذها إلى بيتها مع ملابسها الجديدة، تحمّمها وتصفّف لها شعرها، وتوصي بها الأطفال الآخرين ليأخذوها معهم في صباحات الأعياد، وفي ليالي المولد تصحبها بنفسها، تجلس بها مع النساء فوق سطح أقرب بيت يطلّ على ساحة الذكر، يتفرّجن ويسمعن الإنشاد.

استمعت ذات مرّة إلى من يفاتح أباها في زواج حميدة، الحنون على مباركة، ولم تفهم يومها ما قاله بدر:

ـ الغزالة ما تنبدلش بمعزة.

احتاجت إلى سنوات حتى كبرت وفهمت مغزى الردّ، حينذاك عرضت عليه هي بنفسها أن يتزوّج الجارة التي رعت طفولتها بحنان أمّ؛ فأجابها بما احتاجت إلى سنوات أخرى لكي تفهمه.

ـ آه، أتجوّزها وأقول لها غطّيني وصوّتي!

لم تدرك حينها أنّ الأب كان يشير إلى أنّه لم يعد قادرًا على معاشرة النساء. وتتذكّر ضيقه باهتمام حميدة، رغم امتثاله لرغبتها

في رعاية طفلته، وصار يتقبّل أطباقها والأرغفة الساخنة، ويردّ مجاملاتها حبوبًا في مواسم القمح والذرة، وشيئًا فشيئًا أصبحت حميدة تطبخ وتنظّف وتنجز كلّ الضروري، وتأخذ إلى دارها الملابس التي تحتاج إلى غسيل أو تركيب أزرار أو رتق خروق. ولم تكن بحاجة إلى من يرشدها؛ فهي تعرف كلّ شيء في بيت جارها، منذ كانت تنتظر خروجه صباحًا عندما تستمع إلى بصقة صاخبة لم يخطئ مرّة ويخرج من الدار أو يعود إليها من دونها، تطلّ من بابها حتى تتأكّد من ابتعاده، فتمضي إلى الجارة الأعزّ من أخت، لا تكفّان عن الكلام بينما تساعدها في أعمالها أو تأكلان معًا، ولا تتركها إلّا عندما تسمع بصقة عودته في المساء.

لمْ تتعب الخالة حميدة من الخدمة، أو تشعر بالضيق سنوات طويلة، حتى صارت مباركة صبيّة وسيّدة لدار أبيها، فتراجعت خطوة، لكنّها واصلت علاقتها بها كما كانت مع أمّها. لم تختلف مباركة عن فاطمة في شيء؛ حتى الميل إلى الصمت المريح لحميدة التي تحبّ أن تأخذ حصّتين في الكلام. ولم تعرف مباركة إن كان تكثيف اهتمامها بالخالة حميدة إرضاء لضميرها المثقل بذنب نسيانها، أم أنّ إحساسها بامتلاء الحمل هو الذي يجعلها مكتملة؟ لم تعد تشعر بالاشتعال الذي كان يجتاح أعضاءها عندما تنظر في عينَيْ ناجي، لكنّها تعرف أنّ احتمالها ليس بلا نهاية، وأنّها لم تزل أضعف من احتمال حيويّته، وروح الذكورة المتعالية التي يمكن أن تشلّها كما تشلّ قطّة فأرًا، فيتخلّى عن كلّ فرص الفرار. أخذت تتحاشى الانفراد به في مكان، وتحاذر كي لا تراه بعد أن يخرج من الاستحمام، بقميصه الداخلي، مبديًا سمرة جسده النحاسي، وبروز

زنديه تحت القميص، وشعره الأسود نصف المجعّد وقد انتشر حرًّا وعدوانيًّا كأغصان سنطة بأشواكها الإبريّة.

لم تبتعد عن ناجي وحده، بل قلّ اندماجها مع باقي العائلة، حتى طفلها منصور الذي صار موزّعًا بين الكُتّاب والذهاب مع أبيه وأخويه إلى الحقل، صار أكثر استقلالاً عنها. ولم تعد تلحّ على وجوده بجوارها.

وعندما دخلت الشهر التاسع لم تعد تفعل شيئًا غير الاستعداد للولادة، تبحث عن قطع قماش قديمة، تستخدمها كوافيل للمولود، وعن بقايا قماش جديد تخيط منها ملابس بحجم راحة اليد، أغلبها فساتين تشبه فساتين الدمى، بعد أن وضعت الخالة حميدة يدها على بطنها، واكتشفت أنّه أكبر منه في الحمل السابق، ثم مرّرت يدها على وجهها، وانزلقت تملّس الثديين، وسألتها:

ـ احلوّيتي في الحمل ده؟

ضحكت مباركة وردّت:

ـ أشهد لنفسي؟!

سلّطت الخالة حميدة عينيها عليها، كأنّها تراها، وردّت بغنج.

ـ الراجل ما قالكيش؟

جفلت مباركة ولم تردّ؛ فتطلّعت إليها بعينيها المطفأتين:

ـ في بطنك بنت.

أحسّت مباركة بالفرح؛ فهي تتوق إلى بنت تكون سرّها،

وترعى شيخوختها بأفضل ممّا يستطيع عشرة رجال. وكي تقطع على الخالة استرسالها في الأسئلة عندما رأتها تقترب منها بوجهها الناشف، قرّرت أن تمسك بيدها الزمام.

ـ قولي لي بجدّ، ليه ما اتجوّزتيش أبويا؟

تراجعت المرأة وعلى وجهها ابتسامة:

ـ ولو اتجوّزته، كانوا يقولوا موتت راجلين؟

ـ لأ، بجدّ ليه؟

ـ لا أنا قدّ فاطنة، ولا أبوك قدّ إبراهيم.

سكتتا للحظات، ورفعت الخالة رأسها نحو سقف لا تراه، وقالت كما لو كانت تحلم:

ـ اللّي عرفت النمر، مش ممكن تنام لقطّ.

سلّم الجميع بنبوءة الخالة حميدة بشأن الحمل، كما ساهمت الفساتين الكثيرة التي خاطتها مباركة في استقرار النبوءة، وأصبح الأمر مفروغًا منه؛ حتى إنّ الداية، قطعت الخلاص، وربطت السرّة وتركت لحفيظة أمر تجفيف المولودة وتنظيفها من الدم؛ فتعثّرت يدها بالدودة النائمة بين الفخذين. صاحت بخجل امرأة فوجئت برجل يخرج عاريًا من الترعة:

ـ ولد!

لم تخف إحباطها هي الأخرى، واكتشفت أنّ سرّ رضاها عن حمل مباركة ثم فرحها بنبوءة البنت، إنّما كانا لأنّها تريد أن تستعيد

في المولودة طفولة نجيّة الحدباء التي أهدرتها بسبب حزنها من دمامة المخلوقة المسكينة. عادت فهيمة الداية، التي كانت قد خرجت تدخّن الجوزة مع مجاهد، إلى الغرفة على صيحة حفيظة، لتتأكّد من علامة الذكورة، وطلبت مضاعفة الأتعاب.

مجاهد الذي لم يشعر بغبطة ولا بقلق على حمل أو وضع مباركة هذه المرّة، جاء على صخب النسوة وتوقّف. لم يتجاوز فتحة الباب، فاردًا ذراعيه ومستندًا بكفّيه على جهتي الفراغ، يتأمّل المشهد، ثم تسلّلت الكلمة من بين شفتيه.

ـ سالم.

نطق باسم المولود، بصيغة أمر لا يقبل النقض، راضيًا لأنّه استبق بمبادرة التسمية، وانصرف من دون أن يسأل عن صحّة الوالدة. بسكينة من ينطق بوصيّته الأخيرة ويغمض عينيه. لكنّ المرأتين لم تستسلما أو تتنازلا بسهولة عن أمنية البنت. وستواصلان النداء على سالم بـ «سالمة» مدعومتان بفساتين المهد الأنثويّة التي سيرتديها الولد، حتى يعي، ويبدأ بالخجل منها.

عاد سلامة الديب من الحرب بعد أربع سنوات لم تدع إلّا أثرًا خفيفًا من الملامح القديمة يدلّ عليه. ولولا الحاجبان الكثيفان والعينان السوداوان المميّزتان للعائلة ما كانت حفيظة لتعرف أنّ الكهل النحيف الذي رأته أمامها هو ابنها الذي ذهب في ضخامة ثور.

تواصلت الأفراح بعودته سبعة أيّام. ذبحوا فيها كلّ ما يتحرّك في الدوّار، باستثناء جاموسة وبقرة حلّابتين. لم تنطفئ النار على مدى الأيّام السبعة، لأنّ حفيظة كانت قد نذرت أمام ضريح الشيخ الساكت أن تطعم العشّ كلّها، إذا عاد إليها ابنها سالمًا.

أعادت النساء طلاء الغرف الداخليّة بالطمي والرماد، بينما تعهّد نقّاشون من بلبيس واجهة الدوّار وغرفه الأماميّة، طلوها بالجير الأبيض وزيّنوا الجدران برسوم السفن. وكانوا ينضمّون إلى السهرات التي يروي فيها سلامة ذكرياته عن الحرب، فيساعدهم

ذلك على رسم المدافع والجنود فوق السفن؛ لتختلف عن تلك التي يرسمونها على بيوت العائدين من الحجّ.

لم تُرفع الموائد طوال الأيّام السبعة، من الظهر إلى ما بعد صلاة العشاء، ثم تمتدّ السهرات حتى منتصف الليل، لا يتحدّث فيها إلّا سلامة، باستثناء استفسار أو سؤال سريع يطرحه أحدهم، ليعمّ صمت الفضول انتظارًا للجواب. وسلامة الذي رجع بالقلق وعادة التدخين، يطمئنّ بينهم في المساء، يتأنّى في الحديث وينصتون بصمت، حتى يصبح بالإمكان سماع صوت ارتطام إبرة بالأرض.

تعلّم كيف يقسّم حكايته ليصنع التشويق الضروري، متنهّدًا في لحظات الصمت أو معتصرًا رأسه، ليحمله على التذكّر. يبدأ حكايته بجمل قصيرة، موزّعة بين لحظات صمت أطول منها. وعندما تلمع عيونهم بالفضول، يخرج علبة التبغ المعدنيّة، يفتحها، ينزع ورقة من الدفتر الرقيق، يفردها في غطاء العلبة، يكمش قليلاً من التبغ، يضعه فوق الورقة. يرفعها بيديه ويبدأ في لفّها بهدوء تحت مراقبة كلّ العيون، يبلّل طرف الورقة بلسانه لتلتحم اللفافة، وعندما يبلغ فضولهم أقصاه، ويبدون كأنّهم يهمّون بشدّ الكلمات من لسانه، يشعل السيجارة، ويمجّ منها مجّة، ويطلب تذكيره.

- **وصلنا فين؟**

- **نتوارب.**

يقول أحدهم، فيبتسم سلامة مصحّحًا:

ـ أنتويرب. دي المينا البلجيكي على بحر الشمال، فوق، فوق قرب آخر العالم.

يعمّ الصمت كي يتمكّنوا من التقاط أدنى مستوى من صوته الذي يرتفع وينخفض كموج بحر هادئ، يحكي عن المدينة التي رست بمينائها المدمّرة الفرنسيّة، وتنسّم في شوارعها الهواء، للمرّة الأولى بعد ثلاث سنوات كانوا خلالها يعرفون أسماء الموانئ دون أن يروها. لم يختلف جوّ المدينة الغائم كثيرًا عن ظلام المطبخ، حيث كان يقضي وقته حبيسًا مع زملائه في قاع السفينة المظلم، لا ينتهون من الإفطار حتى يبدأون في وجبة الغداء، لكنّه على الأقلّ استنشق في أنتويرب الهواء الطلق. يصف نساءها البيضاوات النحيلات، اللاتي لم يشتهيهنّ، ليس لشحوبهنّ، بل لفساتينهنّ القصيرة الملتصقة التي لا تبقي شيئًا خاصًّا تحتفظ به المرأة لرجلها.

ولم تكن بلجيكا، البلد الصغير المحايد، المصدر الوحيد لحكايات سلامة. حكى لهم عن خليفة، زميله الجنوبي من أخميم المتخصّصة في نسج الحرير، وعن الأجانب الذين يرطنون بلغات غريبة.

في كلّ ليلة كان يأخذهم إلى بلد مختلف من بلاد تحت الاحتلال الإنجليزي أو متحالفة معه، رأى الكثير من البلدان بعيون زملائه المجنّدين معه في فرق الخدمة التي تشكّلت من أبناء المستعمرات، يحكي عن عاداتها، وأكلاتها الغريبة التي تعلّمها، وكانوا يصنعونها لأنفسهم بعد أن ينتهوا من إطعام الضبّاط والجنود الفرنسيّين على ظهر السفينة.

تترقرق عيناه وهو يحكي عن أقرب أصدقائه؛ الروماني دان فيرانسكو، شابّ أشقر، بشعر أقرب إلى الاحمرار، وعينين زرقاوين، من قرية صغيرة في آخر دلتا الدانوب على البحر الأسود، تعيش حتى الآن المساواة التي عرفتها العشّ في أزمنتها الأولى. ينتقلون إلى حقولهم بالمراكب، لأنّ غيطانهم في جزيرة مواجهة للقرية، محاطة بالماء من كلّ جانب، ينقلون البهائم إليها بالمراكب في بداية الربيع، ويتركونها ترعى مشاعًا، ويذهبون لحلابها كلّ يوم، ولا يعيدونها إلى الزرائب في القرية إلّا في الخريف، حيث لا يمكن لمخلوق أن يتحمّل البرد في الشتاء، عندما تتغطّى أرض الجزيرة بالثلوج.

ـ السمك عندهم أرخص من العيش الحاف.

يقول ويستطلع الدهشة في عيونهم، قبل أن يشرح كيف يلمّون السمك لمًّا من مستنقعات النهر ومن البحر، بينما يكلّفهم نقل الدقيق من مسافات بعيدة مبالغ كبيرة. وقد علّمه دان مئة طريقة لإعداد السمك الذي لم يعرفوه في العشّ إلّا مقليًّا. الروماني الذي كان في البداية يستغرب طريقة المسلمين في الصلاة أحبّها، كان يراقب ركوع سلامة وسجوده بفضول.

يحكي ويحكي، ثم يشرد صامتًا فلا يعود يشعر بمن حوله، أو يرتجف فجأة وينزل برأسه أرضًا. وعندما يستشعر صمت الدهشة، يرفع رأسه تدريجيًّا بحذر، مستطلعًا في كلّ اتّجاه، قبل أن يعود إلى الحكاية.

وبقدر دهشتهم من التغيير الذي عاد به، كانت دهشته من

التغيّرات التي وجدها، ولم يتصوّر يومًا إمكانيّة حدوثها. لم يفاجأ فقط بوجود مباركة في الدوّار، بل بحالة سلام بين النساء الثلاث لم تخل من الخلافات الصغيرة، لكنّ حالة الشقاق التي ترك عليها أمّه وزوجته انطوت إلى حدّ كبير. صارت حفيظة حماة للمرأتين الشابّتين، محبوبة مثل إمبراطورة تقيم سلطتها على العدل. تتشارك الشابّتان في أعمال البيت، بينما تضع حفيظة في حجرها سالم، الذي يتملّص منها ليزحف ويأخذ كلّ ما يجده في طريقه إلى فمه.

يرتّبن معًا كلّ شيء؛ ماذا يطبخن، الأيّام التي ستحمل فيها كلّ منهنّ الغداء إلى الرجال، مهامّ كلّ منهنّ يوم الغسيل ويوم الخبيز، وترتيب أوضاع الرجال ومراتبهم في البيت. استغرب سلامة تقدّم ناجي كسيّد للبيت، والهمود الذي صار عليه أبوه وتدهور أناقته، سواء كان زهدًا منه، أو إهمالاً من زوجتيه، حتى طعامه لم يعد مميّزًا كما كان في السابق. صار أقرب إلى أن يكون الأخير في البيت، ليس بعده إلّا المرأة العمياء التي تنام النهار وتبدأ في التحرّك مساء مثل الفئران، خجلاً من تعثّراتها عندما تتحرّك.

وكان جديدًا عليه أن يرى اندماج الرجل المسنّ في العمل بالحقل، يتأمّل أصابعه التي اعوجّت وتشوّهت أطرافها وبرزت مفاصل سلاميّاتها واخضرّت، من ثقل الجهد المستجدّ عليها، الذي لم يبذله عندما كانوا صغارًا يحتاجون إلى الرعاية، وتركهم تتلوّح عظامهم الغضّة من ثقل الفأس.

بعد أيّام قليلة من الراحة، غادر سلامة وضعيّة الضيف، وانضمّ إلى الرجال، لكنّه لم يجد في نفسه الجلد القديم على

أعمال الزراعة. في اليوم الأوّل امتلأت كفّاه وأصابعه ببؤر الالتهاب التي تحوّلت كلّ منها إلى كيس ماء. لم يكن يعمل مديرًا على المدمّرة الفرنسيّة، لكنّه صار متأكّدًا الآن أنّ الفلّاحين مثل العبيد، لأنّ عملهم هو الأقسى والأقلّ مردودًا بين الأعمال. فكّر في جلب بعض الأنوال وإقامة مشروع للنسيج في بيت مباركة الذي صار مهجورًا.

رحّبت مباركة بالاقتراح الذي يضعها أكثر وأكثر في قلب حياة العائلة. وكأنّها تحتمي بهذا القبول من ثقل سرّها مع ناجي. وغاب سلامة خمسة أيّام، وعاد مع الشابّ الصعيدي، الذي رأوه من قبل في حكاياته. عاين خليفة عبد العال دار مباركة، وأشار بالتعديلات والتوسيعات الضروريّة، والنوافذ التي سيتمّ إغلاقها وتلك التي سيتمّ فتحها، للحفاظ على درجة الرطوبة المطلوبة في الغرف المختلفة لتناسب القطن المغزول، والقماش الذي سيتمّ إنتاجه. وسرعان ما جاءت عربة تحمل قضبانًا متفاوتة الطول والثخانة من خشب الزان الناعم، كتلك التي تُستخدم لتسقيف الأجزاء المتميّزة من الدور، وأخذ خليفة بتجميعها، حتى اتّخذت شكلها المهيب كمتاهة صغيرة، يعرف وحده كيف يتحرّك بينها. ثم جاءت الغزول، وخرجت التجارب الأولى محبطة.

عشرات الأمتار من القماش المليء بالكلاكيع، والنغبشات غير المتقنة للورود والخطوط المفترضة، استخدمها في تفصيل أكياس للوسائد والألحفة، والملابس الداخليّة لرجال العائلة، ثم بدأ الإنتاج يتحسّن شيئًا فشيئًا، ولم يغادر خليفة العشّ، إلّا بعد أن

صار إنتاج مصنعها مطلوبًا في مديريّة الشرقيّة كلّها، ويتمّ حجزه مقدّمًا.

تفرّغ سلامة تمامًا للمصنع. وسرعان ما سدّد أقساط التأسيس، وبدأ يحقّق وفرة، ولم يمض العام الأوّل، حتى كانوا قد اشتروا فدّانًا جديدًا. وبدأ سلامة يعود من أسفاره بالصابون المعطّر والحلوى والفاكهة وزجاجات الشربات. وبتأثير اختلاطه بالأجانب أثناء التجنيد، وبأهل المدن منذ أقام المصنع، قضى سلامة على النظام القديم بالأسرة؛ فصار الجميع يجلسون معًا على طبليّتين كبيرتين، يتناولون الطعام ذاته.

بصعوبة استطاع أن يقنع أباه بالكفّ عن العمل في الحقل بعد أن تجاوز السبعين، واندمج عليّ بالعمل في المصنع. وصار ناجي مسؤولاً بمفرده عن الحقل، يعمل بيده، ويستأجر معه من يحتاجه العمل، وبدأ سلامة يفاتحه في ضرورة الزواج.

كان من الطبيعي ألّا يتحدّث أحد عن زواج ناجي طوال غياب سلامة. وبعد أكثر من عام من عودته، لم يبد الشابّ رغبة في الزواج، وتفيدة التي ترى النظرات الكتيمة المتبادلة بينه وبين مباركة، أرادت أن توحي بشيء لسلامة، لكنّها استشعرت الخطر من حدّة ردّه، فلاذت بالصمت. وعلى الرّغم من ردّه القاسي عليها، بدأ الضغط على أخيه لاختيار فتاة يخطبونها له.

وأرادت تفيدة أن تضع الحدود قبل زواج ناجي، لتحتفظ بمكاسب المصنع لأولادها. كانت ترى أنّ الرواج الذي تعيشه العائلة من صنع يدي زوجها؛ فبدأت تتدلّل. تنام إلى الضحى عندما

تكون حفيظة ومباركة قد أنجزتا كلّ أعمال البيت، تتصرّف باستهتار وتكبّر، حتى إذا زحفت منها قطعة صابون إلى حوض الطلمبة لا تمدّ يدها لإخراجها، وتجد حفيظة بقاياها زلقة طريّة عندما تنزح الحوض وتريق ماءه في الشارع.

وحفيظة التي صارت تسعى إلى رضى كنّتها، لم تعد تعاقبها أو تعاتبها أو تشكو منها، لكنّ المرأة قارحة العين، لم تكتف بهذا، بل بدأت في التفكير بشأن الأرباح المشاع، التي تُوجّه إلى شراء الأرض للأسرة كلّها، باسم مجاهد؛ فبدأت تحرّض زوجها على الانفصال في حياة مستقلّة.

ـ بتشقى لعيلة، وعيالك يبقوا زيّهم زيّ غيرهم.

قالت، بينما تمسك بيد سلامة المستلقي بجوارها، تمرّرها على بطنها المنتفخ.

ـ ما تنسيش، المصنع في دار مباركة.

قال سلامة، لكنّها ضغطت يده أسفل بطنها وتأوّهت، وردّت بصوت متكسّر:

ـ إيجار دار في العشّ هيكون كام يعني؟!

ـ كلّ واحد بيعمل اللّي ربّنا بيقدّره عليه.

وجذب يده من يدها. لكنّ المرأة التي ترى زوجها مميّزًا بين إخوته كانت مستميتة على تحريضه للاحتفاظ بأرباحه لنفسه. وأرادت أن تحدّد الموقف قبل الشروع في تزويج ناجي، حتى لا يتحمّل النفقات. وعندما لم تلق استجابة غادرت غاضبة، مؤكّدة

أنّها لن تعود إلّا عندما تعرف لها بيتًا مستقلًّا.

تركها تضع مولودها في بيت أبيها، ولم يذهب لإعادتها إلّا بعد أن أرسلوا هم إليه، يسترضونه ويطلبون منه الذهاب لاستعادتها، واعدين بالالتزام بما يريد.

خسرت تفيدة الجولة؛ فلم ينفصل زوجها عن الأسرة، واتّفق مع امرأتين فقيرتين على الخدمة في الدوّار، حتى يستريح من الجدل حول تقسيم العمل بين النساء. وفتح ببقائه في معاش واحد مع إخوته سباقًا بين المرأتين الشابّتين على الإنجاب، ساعدهما عليه وجود خادمتين مقيمتين؛ فأخذ الدوّار يستقبل مولودًا كلّ عام. وسرعان ما تزوّج عليّ وانضمّت زوجته إلى السباق، فصار هناك أكثر من مولود في السنة الواحدة.

في الوقت الذي كان مجاهد وسلامة يخطبان زكيّة الجحش لناجي، تسلّل إلى غرفة مباركة، غارقًا معها في عالم آخر.

لم تكن بحاجة إلى نظرات التواطؤ النهمة على العشاء. بدت جاهزة لتسلّله، بعد أن خرج الرجلان وهدأت حركة حفيظة وتفيدة، وفقد عليّ صوابه بين ذراعي مسعدة، مثل كلّ ليلة.

ـ ولا يهمّك، ما هو كان ضروري.

وشوشته، بينما أخذ يعتصرها بألم.

كان إلحاحهم عليه قد تزايد ليختار عروس بعد زواج عليّ الاضطراري الذي جعله يتخطّى ناجي، بعكس ما تقتضي التقاليد. وبينما توقّع ناجي نسيانه، وسط الحكايات عن عليّ وعروس فارعة تحمل بين فخذيها نارًا، كثّفوا ضغوطهم عليه، وذلّلوا أمامه كلّ عذر، حتى لم يعد بمقدوره التمادي في الرفض.

ـ اللّي تشوفوه.

أخيرًا، قال بامتثال وهم على طبليّة العشاء. واختلس نظرة إلى مباركة التي اضطربت في مواجهة عيني تفيدة. وعندما تحلّقوا حول المجمرة التي دفنوا فيها كنكة الشاي الكبيرة، جلسوا يستعرضون الفتيات في سنّ الزواج، حتى وافق على زكيّة، بإحباط مَنْ يختار العقوبة الأقلّ من بين عدّة عقوبات.

تحمّست تفيدة لمهمّة استطلاع الموقف مع أمّ الفتاة، تمهيدًا لزيارة الرجال وطلبها رسميًّا. وفي الموعد الذي حدّده محمود الجحش، ذهب الأب والابن البكر، في زيارة التعارف الأولى. وقرأوا الفاتحة، بينما كانت مباركة تمسح خيطين من الدموع سالا من عيني ناجي المستلقي بجوارها. قادت أصابعه إلى تحت جلبابها الفضفاض، لم تكن ترتدي شيئًا تحته. أزاحه إلى فوق سرّتها، واستلقى فوقها مضطربًا. أخذت تلعقه بينما تزيح ما أمكنها من جلبابه وتغرس أظافرها في ظهره لتحكم ارتجاجه فوقها حتى همدا واستلقى جوارها.

ـ إوعى تسيبني؟

قالت. ولم تترك سعلة الخالة حميدة فرصة له كي يردّ. قفز إلى الأرض ومضى على أطراف أصابعه، ليس خوفًا من المرأة العمياء، بل خوفًا من أن تنبّه كحّتها أمّه أو تفيدة. وعندما وجد نفسه بعيدًا بما يكفي عن غرفة مباركة، اعتدل في سيره مبالغًا بالثقة في طريقه إلى المنضرة، لانتظار الرجلين اللذين لم يتأخّرا.

ـ مبروك.

قال سلامة، مصافحًا أخاه، وأخذ يحكي له عن الاستقبال الحفيّ الذي وجدوه عند محمود الجحش. وعندما لم يجد حماسًا منه أضاف مازحًا:

ـ ما تخافش، أبوك ما خطبهاش لنفسه!

استمع مجاهد مغتاظًا إلى الدعابة، وتركهما من دون أن يقول شيئًا، منسحبًا إلى غرفة مباركة المتناومة. تعمّد إحداث جلبة فتقلّبت في فراشها، وعندما اضطجع بجوارها، أراحت ذراعها عليه في حركة شبه عفويّة، استشعر دفئًا تمنّى أن يكون مقصودًا، عندما خاطبته بتدليل.

ـ مبروك يا بو سلامة.

ـ الله يبارك فيكي.

ردّ بانشراح مفاجئ، ومدّ يده يحتضنها، عندما أعطته ظهرها. مَسَّ تكوّر مؤخّرتها التي لم تزل متماسكة، فشعر بها تستريح باتّجاهه، حتى ملأت تجويف ما بين فخذيه.

استسلم لدفء انتظره سنوات، متألّمًا لأنّه لا يجده في فراش حفيظة، ولأنّه يجده في فراش مباركة، لكنّه يعرف أنّه محض حرارة جسدها الغضّ الذي لا يأبه لوجوده.

أخذ يجرّب لعبة الزحف والانسحاب الصامتة، التي أنهكت روحه على مدى سنوات. أحسّ بغبطة حزينة، عندما ضغط فلم تنسحب أو تجفل، جرّب أن يبتعد قليلاً، بحيث لم يعد يشعر بدفء جسدها وإن ظلّ شاعرًا بتماسّ جلبابها مع جلبابه، وفوجئ بها تقترب لتعيد الالتصاق، بطريقة لا تبدو عفويّة، وصلته رسالة الجسد

الذي طالما عذّبه انتظاره، وتيقّن أنّ بوسعه أن يدخلها. انقلب على الجهة الأخرى محافظًا على تماسّه معها، أخذ يفرك مؤخّرته في ظهرها خفيفًا، بينما امتدّت يده لتداعب عضوه، وكأنّه يريد الاتّفاق معه قبل أن يستدير، لكنّه ظلّ على ارتخائه كمضغة لحم طحنتها الضروس طويلاً. أخذ يفرك كمرته بقوّة، كمن يحاول استعادة شخص من غيبوبة، وسرعان ما تحوّلت القوّة إلى قسوة حانقة على الرأس الذي يشبه بلحة مربوطة إلى جسده بفتيل طريّ، مستغربًا أن تشعر مؤخّرته بنشوة التلاصق مع مباركة ولا يشعر هذا الميت في يده. استدارت لتحتضنه فسحب يده من بين فخذيه ونام مستكينًا لدفء ثدييها في ظهره.

هل انطفأت فيه جذوة الحياة، أم إنّ جسده الذي طالما انتظرها تعلّم أخيرًا أن يحرن، وأن يقتصّ لليالي الاشتهاء الطويلة؟ أم كليهما معًا؟ أيًّا كان الأمر؛ فإنّ العطف الذي أدفأه في تلك الليلة، صار يتكرّر، وصار جسده ينتظر ذلك الإحسان رغمًا عنه. ولم تعد مباركة تشغل نفسها بما يمكن أن يعرفه عن علاقتها بناجي، لكنّها كانت تخشى تفيدة، تشلّها نظراتها الواخزة التي تقول شيئًا تتوقّف في منتصفه دائمًا. وصارت الآن مواجهة بدخول طرف جديد. امرأة تخصّ ناجي، وتستطيع، بحسّ الامتلاك للرجل، أن تشمّ فيه رائحة أيّة امرأة غيرها.

قرّرت عمل كلّ ما بوسعها كي تبدو طبيعيّة في مواجهة الخطيبة. لم تصبح، فحسب، أكثر رقّة مع مجاهد، بل صارت تتحدّث عن الاستعداد للعرس، بحماس منضبط حتى لا يقود الاندفاع والمبالغة إلى عكس ما أرادت. تسأل عن موعد كتابة عقد

الزواج والزفاف، تضع لحفيظة مقترحات بشأن الكعك والخبز، تعدّد مزايا عائلة الجحش، ومزايا زكيّة وتصفها بـ «المهرة العربيّة».
وكانت زكيّة هكذا بالضبط؛ فالفتاة التي وافق عليها ناجي من دون حماس كانت مثيرة للغيرة حقًّا. حمراء بأسنان فالجة وعينين ضيّقتين تخفيان شبقًا كسولاً، فارعة الطول، بخصر شديد النحول، بينما لا يستطيع جلبابها الفضفاض أن يخفي اكتناز مؤخّرتها. فقط نهداها كانا صغيرين، يعوّضان صغرهما برشاقة ومرونة في تقافزهما حينما تمضي. لكنّ ناجي لم يكن مستعدًّا لتقدير هذه المباهج.

زارها للمرّة الأولى بصحبة أمّه. لم ينظر إليها مرّة واحدة. كان واضحًا أنّ ما يصرفه عنها ليس الخجل الذي يستشعره الخطيب في الزيارة الأولى تحت مراقبة العيون، لأنّه كان منطلقًا في الحديث مع أبيها وأمّها.

بعد ذلك كانت زياراته متباعدة، وبضغط من سلامة الذي أخذ يتعجّب من لامبالاته بالفتاة. لم يحاول الاختلاء بها أو لمسها كما يفعل الشباب وقت الخطبة. لا يتأنّق ولا يحمل هديّة، ولو صغيرة، كما يفعل العرسان مع زوجات المستقبل.

قابلت الفتاة تجاهله لها بتعالٍ، وكفّت عن الجلوس معه. حتى في غياب الأب تتركه مع أمّها، التي أقام معها علاقة تفاهم عميقة. المرأة ليست صغيرة إلى الحدّ الذي يُثير غيرة ابنتها أو غيرة الأب الذي يعود فيجدهما منهمكين في حوار هامس. ومضت الأمور على هذا النحو. تزايدت زياراته في المساءات، لكنّه كان يضع رأسه بالقرب من رأس الأمّ، ولا يكفّ عن الكلام.

محمود الجحش الذي كان عليه أن يجلس صامتًا حتى منتصف الليل أثناء زيارة شابّ يحبّ حديث النساء وينسجم فيه إلى هذا الحدّ، تأكّد أنّه لا يجب أن يكون زوجًا لابنته. انتظر شهرًا وراء شهر، لا يعرف ما يجب عليه أن يقول، كلّما فاتحه مجاهد في إتمام عقد الزواج الرسمي. ماذا يقول سببًا للرفض؟ إنّه لا ينظر في وجه ابنتي؟! إنّه لا يكفّ عن الوشوشة مع زوجتي؟! ظلّ يؤجّل بأعذار ضعيفة. وطال الانتظار، دون أن يتغيّر شيء. يجلس محمود وابنته كحارسين صامتين لناجي وحماته المرتقبة، منهمكين في وشوشة لا يلتقطان منها إلّا كلمات محدودة.

يمرّ أسبوع دون أن يشعر بحاجة إلى زيارة عروسه، وفي كلّ مرّة يفعل ذلك يعود بيقين أنّه لن يحسّ امرأة أخرى غير مباركة. يعود مشتاقًا لنظرة منها، يتعمّد إحداث الجلبة، لعلّها تجد عذرًا لتخرج إليه فيراها، لكنّها لا تستجيب لحماقاته؛ فيدخل إلى فراشه وينام محبطًا.

وأخذ الجحش ينتظر مصادفة تمنحه مبرّر فضّ الارتباط، لكنّ تلك المصادفة لم تأت، ووجد نفسه مطالبًا بوضع النهاية التي طال انتظارها.

ـ مفيش نصيب.

حسم الأمر مع سلامة ذات يوم عقب صلاة العصر، من دون أن يعطي أيّة مبرّرات لفسخ الخطبة. بعدها قالت زكيّة لأمّها إنّها عرفت أنّها لن تكون زوجته من خلال لمسة يده في المصافحة الوحيدة بينهما، عندما دخل دارهم للمرّة الأولى.

تمّ زفاف زكيّة لأوّل خاطب جديد، وعادت الضغوط على ناجي. حفيظة التي تريد أن تحمل له طفلاً بين ذراعيها، قبل أن تموت، أخذت تصلّي، وتتعلّق بشبّاك الضريح المتهدّم للشيخ الساكت، ناذرة تجديده إذا اهتدى ابنها للزواج. وأخذ سلامة يؤنّبه إذا ما اختليا في مكان.

ـ إنت ما بتسمعش اللّي بنسمعه.

ـ ماليش فيِ الحريم؟ وإيه يعني؟

يردّ ناجي بثبات وقح. لكنّه، مرّة بعد أخرى، وجد نفسه أمام مشروع زواج من فتاة اختارتها حفيظة مع مباركة، وكان عليه أن يمضي في المشروع حتى النهاية. خطبة قصيرة انهمك خلالها سلامة في الإعداد للعرس، مثل أب يجهّز لابنه البكر. تولّى شراء كلّ شيء؛ الذهب، النحاس، السرير، صندوق العروس، ملابسها، بينما أمر بنسج لفّتين من القماش برسوم خاصّة لن تتكرّر لمراتب وألحفة ناجي، التي لن تنام عليها العروس أكثر من شهر، قبل أن تطلب الطلاق. ولا سرّ يبقى في العشّ. العروس لم تجد عنده أيّ صلابة، ولم يدخلها منه إلّا إصبع الافتراع ليلة الزواج. هكذا كانت الأقاويل تتزايد، ويتزايد اللوم على أهل العروس الذين حسبوا على ابنتهم تجربة، وهم يعرفون أنّه ليس رجلاً. الثرثرة صارت تصل أصحابها والحزن انعكس توتّرًا في الدوّار.

ـ ليه كمّلت لمّا أنت مش عايزها؟!

قال سلامة مؤنّبًا أخاه الذي لم يردّ. لكنّ صوتًا مرعبًا انطلق من الغرفة الصغيرة المنسيّة. وقفت الخالة حميدة مستندة على باب الغرفة.

ـ خلاص فضّوها سيرة، الولد مخاوي يا سلامة.

قالتها وصمتت لحظات، قبل أن تقسم على ما رأته وكتمته، عندما كان ناجي مختبئًا في الظلام ببيت مباركة. كانت تضع له طعامه بنفسها، وتغلق عليه من الخارج باب المتبن. وذات مرّة رفعت المقاطف والفؤوس والأحبال التي راكمتها أمام الباب، وفتحت الترباس الذي أغلقته بنفسها فلم تجد ناجي بالداخل، وضعت الوجبة وأغلقت المتبن مرّة أخرى دون أن تقول شيئًا، وعندما عادت بعد ساعات وجدته داخل المتبن المغلق، مبلّلاً باستحمام حديث، مستغرقًا في النوم على فخذ فتاة لم تر حسنها في حياتها، ولم تشمّ في حياتها عطرًا أجمل ممّا شمّت في تلك اللحظة.

ـ شفتيها؟!

قالت تفيدة برعب، وردّت الخالة حميدة:

ـ وما شفتش بعدها.

فهموا ما لم تقله؛ فالجنّ عرفوا طريقهم إليه في الظلام، وزوّجوه من بناتهم، ولن تسمح له الجنّيَّة بالهناء مع أيّ من بنات الإنس. ولم يفلح فضولهم في زحزحتها خطوة أخرى.

ـ عايزين يحصل لي إيه أكتر م العمى؟!

أصابهم تساؤلها الغاضب بالخوف؛ فلم يلحّوا في السؤال. وبعد سبعة أيّام ماتت الخالة حميدة، من دون أن تنطق بكلمة أخرى، لكنّ ما حكته في تلك الليلة تلمّس طريقه إلى خارج الدوّار، وكان كافيًا لتغيير صورة ناجي من عنّين إلى ممسوس بالجانّ، مرهوب، محسود، ومثير للشفقة.

منذ هجاج عصمت، العمدة التركي الثالث، لم تهتمّ السلطة بتعيين عمدة جديد، وتمتّعت العشّ بعودتها مجهولة منسيّة، كما كانت على مدى القرون الثلاثة الأولى. لكنّ السلطة واظبت على دفع مرتّبات جيل من الخفراء، أخفى كلّ منهم سلاحه في مكان آمن تحسّبًا لأيّة ظروف، وانصرفوا إلى رعاية زراعاتهم، سعداء بالدخل الإضافي، الذي يذهب أحدهم لتسلّمه من بلبيس نيابة عنهم جميعًا، حتى اختفوا بالموت واحدًا وراء الآخر. وانتهت الصلة الأخيرة للعشّ بالسلطة، لكنّها عندما أفلست عادت تبحث في قوائمها وخرائطها، وأرسلت مندوبيها، يجرون الإحصاءات ويفرضون ضرائب جديدة، أخذت تتصاعد، ولم يعد بمقدور أحد الدفع. وبدأ تجّار الذهب يسرحون في القرى، يغالطون الفلّاحين في قيمة ما يشترونه منهم من الذهب؛ فقرّرت السلطة قبول الضرائب عينيًّا من المصوغات.

أثار الصيارفة دهشة أهل العشّ عندما بدأوا يحملون في زياراتهم ميزان ذهب. في البداية لم يصدّقوا، لكنّهم تيقّنوا من الأمر، عندما أخذ الموظّفون يفحصون ما يُقدّم إليهم ويزنونه، ويقدّرون الثمن، ويخصمون منه الضرائب ويعيدون للناس نقدًا ما يتبقّى من حقّهم مع إيصال التسديد.

وعامًا بعد عام صار الميزان عديم النفع، إذ لم يبق في أيدي الناس ما يبيعونه، ومع ذلك أخذت الضرائب تتصاعد. وبدأ البعض يهجّ تاركًا وراءه قراريطه القليلة، أو باحثًا عن مشترٍ لها، بأيّ سعر كان ليتخلّص من مطاردات الجباة واستغلال تجّار القطن، وامتنع البعض منهم عن الدفع بالبكاء والشكوى من الفقر أحيانًا، وأحيانًا بالتهجّم على الصيارفة، وسرعان ما جاء مجنّدان يستدعيان سلامة إلى حكمدار الشرقيّة.

لم ينم سلامة، وفي الساعة المحدّدة كان واقفًا أمام مكتب الحكمدار. فتح له الجندي الباب وتركه أمام الضابط المستغرق في أوراقه. جمد سلامة في مكانه لا يدري كيف يتصرّف حتى رفع إليه الحكمدار رأسه وأشار إليه بالجلوس.

ـ تعرف اللّي بيحصل للصيارفة في العشّ.

ـ سمعت يا فندم.

ـ والعمل؟

ـ اللّي تأمر به دولتك.

فتح الحكمدار مغلّفًا أمامه وأخرج لسلامة قرار تعيينه عمدة،

وطلب منه اختيار سبعة من الخفراء مع شيخ لهم لحفظ الأمن.

اختار الخفراء النظاميّين وشيخهم من بين المجنّدين المسرّحين من الخدمة، وفي الوقت الذي ذهبوا فيه إلى المديريّة للتوقيع على تعيينهم والتدرّب على استخدام البنادق، شرع في ترميم السلاحليك المهمل، وبعد أسبوعين كان كلّ منهم يعرف ما عليه أن يفعله، وأصبح السلاحليك بمثابة المكتب الإداري للعمدة الجديد، يصل إليه الصيارفة، ويرسلون في طلب من يريدونه من الفلّاحين.

لم يستغن سلامة عن الخفراء الخصوصيّين الذين اضطرّ للاستعانة بهم عندما تبدّد الأمان، لكنّه أعفاهم من السهر أمام المصنع، اكتفاء بتأمين الطريق ضدّ هجمات قطّاع الطرق الذين يخرجون من حقول الذرة، ويتعرّضون لعربات الغزل القادمة إلى العشّ وعربات القماش الخارجة منها.

أخذ المصنع يتقدّم، وواصل سلامة شراء الأراضي بكلّ ما يستطيع ادّخاره، يسجّل نصف ما يشتريه للأسرة كلّها باسم مجاهد، والنصف الآخر باسمه، بعد أن عرفت تفيدة أن تقنعه بأنّه أساس هذه الثروة، ولا يصحّ أن يتساوى أولادها مع أولاد مباركة أو مسعدة، خاصّة أنّ ناجي وعليّ لم يعودا يعملان بأيديهما.

وكان سلامة هو الذي طلب من أخويه الاكتفاء بالإشراف على الأجراء: عليّ في المصنع وناجي في الحقل. ولم يعترض أيّ من الأخوين على القسمة الجديدة. ولم يكن هناك سوى مشكلة حماية ما حقّقته العائلة.

وبعد أن استقرّت الأمور شعر بالارتياح وأصبح لديه متّسع من

الوقت للتفكير والتأمّل، يجلس على المصطبة أمام الدوّار بعد العصر، ليكون بعيدًا عن ضجيج النول وغناء العمّال الذين يتقافزون عليه، مديرين عجلاته مثل قرود على أغصان شجرة. ينضج قهوته بنفسه على السبرتاية، وعندما يصبّها في الفنجان يستنشق رائحتها مع الرشفة الصغيرة الأولى التي قد لا تتكرّر؛ إذ يفتح دفتره ويستغرق في إجراء حساباته.

أصبح تموين البيت يأتي من بلبيس بانتظام، في عربة ممتلئة بكرات الجبن والحلاوة الطحينيّة وأقماع السكّر وأجولة اللوبياء والفاصولياء. ولم يعد لدى النساء الولّادات من عمل إلّا الإشراف على الخبّازات والطاهيات الأجيرات، وحلاب البهائم وعمل الجبن، بناء على طلب سلامة لأنّه لا يأتمن الغريبات على نظافة الحليب الذي يحبّ أن يشربه نيئًا بدفء الضرع. وأسفر سباق الحبل في الدوّار عن أحد عشر طفلاً في ثماني سنوات. بعد منصور وسالم أنجبت مباركة: مصطفى، محمود، يوسف، وزينب. وأنجبت تفيدة: أحمد، عبد المقصود، الديب، أمّ عليّ. كما أنجبت مسعدة: سميحة، كامل، وسند.

ـ نقدر بعد كام سنة نشكّل جيش ونعلن الاستقلال.

يضحك سلامة، سعيدًا بتتالي الولادات، وهو يرى نشاط المصنع يتوسّع يومًا بعد يوم، حتى أصبحت العديد من النساء يعملن في لفّ بكر الغزل وتخزينه في دورهنّ، بعد أن فاض المصنع بخزين الغزل والقماش إلى الدوّار مزاحمًا العائلة، في الغرف الفارغة والأركان الخالية بالغرف المسكونة، بالإضافة إلى

التجّار الذين يأتون من مختلف قرى مديريّة الشرقيّة ومدنها، ويبيت بعضهم أيّامًا لحين اكتمال طلبيّته، عند تزايد الاستهلاك في مواسم الزواج والأعياد.

ـ الله!

قال متعجّبًا، من وجود السراي المهجورة، كأنّه يراها للمرّة الأولى. توقّفت يده في الهواء بالفنجان قبل أن تبلغ الرائحة أنفه، سارحًا بذهنه بعيدًا في السعف اليابسة المتهدّلة للنخيل الملكي الشاهق، مستعيدًا خوف طفولته الذي كان متمحورًا حولها؛ فأدرك كم صارت طفولته بعيدة، وكم كبر!

لم يكن الأطفال وحدهم يتحاشون السراي، الجميع كانوا يدورون من بعيد حتى لا يمرّوا من أمامها في الظلام، ويتداولون الكثير من الحكايات حول الطبل والزمر المستمرّين فيها طوال الليل، وعن البنت البيضاء الجميلة التي تقف في الشبّاك عارية بطرحة عروس لتستدرج الشباب، ويقولون إنّها عفريتة ناديا ابنة متين، العمدة الأوّل، وقد دفنها أخوها حكمت حيّة في حديقة السراي بعد أن أعادها زوجها في ليلة الزفاف عندما اكتشف أنّها ليست بكرًا.

ـ ما عفريت إلّا بني آدم!

قال سلامة، ورشف الرشفة الأولى من فنجانه مبتسمًا، وقد عرف ما عليه أن يفعله. غاب يومين، وعاد مع اثنين من الغرباء، اجتاز معهما باب السور المتهالك، وأخرجا من صندوق صغير يحملانه حزمة من المفاتيح، فتحوا بها باب السراي المتداعي،

وعادت بهما السيّارة من حيث جاءا. وأشاع أنّه كان في القاهرة، بحث عن أولاد عصمت أوغلو واشترى منهم السراي. ولم ينازعه أحد أو يطلب رؤية عقد شراء مبنى مهجور مسكون بالعفاريت؛ فبدأ في أعمال الترميم.

لم يجد في العشّ من يجرؤ على اجتياز عتبة السور، فاضطرّ إلى جلب عمّال من بلبيس لإعادة السراي إلى الحياة. كان الصبية يمرّون عليهم جريًا، متصوّرين أنّ العفاريت التي يسمعون أصواتها مساء صارت تخرج في النهار، بينما يختلس الكبار نظرات قلقة من البوّابة، التي لم يكونوا يعرفون ما وراءها، باستثناء النخيل والشجرات القليلة الباقية التي يرمقونها من فوق السور صباحًا، بينما يتحاشون النظر إليها في الظلام، حيث يحلو للعفاريت أن تلعب على الأغصان وتتقافز من شجرة إلى أخرى.

استمرّ العمل أسابيع طويلة. لم يكن في الحديقة سوى النخلات الملكيّة الأربع، بذؤابات صغيرة خضراء وسعف جافّة لم تُقشّر عنها على مدى سنوات، وأجيال من الليمون المتكاثر من بذور الثمرات المتساقطة، تشكّل حرجًا ضخمًا، مع بعض الحشائش اليابسة بين أكوام من الأتربة المالحة عليها أثر قوافل النمل السوداء.

ولم يكن البناء الذي يكاد يكون مطمورًا أفضل حالاً من الحديقة. الحوائط متآكلة من الرطوبة، الأسرّة متداعية بفرشها الغارقة في الغبار، بقايا خشب الشبابيك ملوّح بالشمس، أعشاش العصافير واليمام في كلّ زاوية من السقف، بينما تتجمّع تحت

الجدران أكوام من التراب تلمع على سطحها قشور جلود الثعابين والسحالي، مع كسر زجاج الشبابيك الملوّن الذي كان مصدر دهشة العشّ عند تأسيس السراي.

انهمك العمّال في إزالة آثار الإهمال داخل السراي وخارجها، يوميًّا من الصباح الباكر حتى الغروب؛ حيث يغادرون إلى ثكنتهم، يتناولون عشاءهم وسرعان ما يغطّون في النوم. يسمع العائدون من صلاة العشاء شخيرًا جماعيًّا لخمسة عشر عاملاً تضمّهم دار صغيرة كانت مهجورة هي الأخرى، استأجرها سلامة وفرشها لهم حصيرًا.

عندما اكتملت الترميمات بالدهان الجديد للسراي، جاءت عربة محمّلة بالسجّاد والأسرّة والمقاعد، لتحلّ محلّ فرش الأتراك الذي سرح فيه السوس واستهلكه العمّال في إنضاج الشاي بالحديقة طوال أيّام العمل. وقرّر سلامة إقامة احتفال لمباركة السراي قبل الانتقال إليها. ذبح عجلين في الحديقة، وزّع أحدهما نيئًا على الدور، بينما استبقى الآخر للعائلة والأقرباء والعمّال. واستدعى اثنين من المقرئين وافقا بصعوبة على الجلوس في الفراندا.

بدأ المقرئان الأعميان التلاوة بعد صلاة العصر، يهزّان رأسيهما بصوتين متهدّجين، ويستطلعان بعيونهما المطفأة خطرًا لا يريانه. ومع غروب الشمس كانت الكلوبات قد أُضيئت وتمّ تعليقها على جذوع النخيل الملكي، لكنّها كانت تنطفئ واحدًا بعد الآخر في تتابع لم يتمكّن مشعل الكلوبات من متابعته. سرى الخوف في المكان، مقيّدًا الألسن التي كانت منطلقة في النهار بصخب احتفالي أثناء ذبح الذبيحتين وسلخهما. ولم يتمكّن سلامة من إقناع أحد بأنّ

الريح، لا العفاريت، هي التي تطفئ الكلوبات وتحرق رتائنها.

بدأ الضيوف ينسحبون واحدًا وراء الآخر، ثم تسارعت حركة الهروب، حتى العمّال الذين قضوا في السراي نهارات طويلة من العمل واستبقاهم للمشاركة في الاحتفال، وأبناء العائلة، وحتى النساء اللائي واظبن على تقديم الطعام بسيقان متخبّطة، فررن عائدات إلى الدوّار، بينما أخذ المقرئان يتخبّطان، ينكفئان ويقومان مهرولين يتحسّس كلّ منهما بعكّازه طريق الخروج.

وجد سلامة نفسه وحيدًا وسط الموائد ببقايا الطعام فوقها، بينما يتصاعد دخان الكوانين تحت القدور، كما لو كانت الحديقة موقعًا حربيًا تعرّض للتدمير. جرّ رجليه مغادرًا هو الآخر، تاركًا النار تأكل نفسها.

الذين تلقّوا اللحم نيئًا في دورهم أقسموا أنّه كان يتقافز صارخًا في الحلل، ويدفع بأغطيتها حتى تصطدم بالأسقف. بعضهم قال إنّه اضطرّ إلى حمله بعد ساعات من الغليان طازجًا كما هو، وإلقائه إلى الكلاب التي أخذت تتشمّمه بتوجّس وتهرول بعيدًا عنه. المقرئان الأعميان أقسما أنهما تحسّسا كومة اللحم التي وضعها سلامة أمامهما، وفي لحظة وجدا الرغيف أمام كلّ منهما فارغًا وجافًّا لا أثر لبلل المرق عليه.

لم يشأ سلامة إكراه الأسرة على الانتقال، مراعيًا حرج الحديث عن العفاريت بسبب ناجي. راهن على تقادم حكايات الحفل، لكنّ السراي التي عاشت عشرات السنين، والتي تكاد تكون غير مرئيّة، بفضل الإهمال الذي يلفّها، لم تعد كذلك بعد

ترميمها. صارت محطّ الأنظار، والزجاج الملوّن الذي عاد إلى شبابيكها ضاعف من غموضها حتى في النهار.

كان مجاهد أكبر الخائفين، وقد ردّته الشيخوخة طفلاً. لم يعد قابلاً لأيّ نقاش، يشيح بيده كلّما فاتحه سلامة في رغبته بالانتقال إلى السراي، بينما كانت تفيدة تلجأ إلى المزاح كلّما حاول إقناعها.

ـ طيّب يروح ناجي، مش هو اللّي مخاوي الجانّ؟!

يزجرها بنظرة غاضبة، فتحاول إصلاح ما قالته:

ـ طيّب ولو حبّيت عفريت أو حبّني؟!

ـ أنا الكسبان.

أجاب سلامة بغيظ متجاهلاً دعابتها، بسبب ما أنفقه في الترميمات. وواصل تأمّل السراي مخذولاً في جلسات العصاري أمام الدوّار مع قهوته ودفتر حساباته. ثم نبت التحدّي في رأسه، مقرّرًا الانتقال وحده.

اطمأنّ على إغلاق المصنع كعادته آخر اليوم، عاد إلى الدوّار، تناول العشاء مع العائلة. أخذ مفاتيح السراي وحمل لمبة وانطلق شاقًّا الجمع الذي لم يزل متحلّقًا حول الطبليّة. حاولت تفيدة إرجاعه عن قراره، جذب ذيل جلبابه من يدها وخرج.

شقّ بمصباحه نفق الظلمة في الصالة الواسعة إلى الغرفة التي حدّدها لنفسه عندما وزّع الفرش على السراي، ووضع اللمبة على الأرض بحيث تضيء الغرفة مع جزء من الممرّ، وكأنّه يصنع سياجًا

من النور يحميه من العفاريت، التي يصرّ على إنكار وجودها كلّما احتدم الجدل حول السراي. استلقى على السرير مرهفًا سمعه ترقّبًا لأيّة حركة. لم يسمع سوى حفيف سعف النخيل يضخّمه صمت الليل، وعواء كلاب يأتي من بعيد. تتابعت على رأسه الكوابيس بين النوم واليقظة، لا تسحبه موجة نوم إلّا ليجد نفسه مطاردًا من وحوش، بينما ساقاه ثقيلتان كجوالَيْ ملح، لا يقدر على تحريكهما، تردّه صرخة إلى الصحو فلا يجد أثرًا لوحوشٍ بين موجات الظلّ والضوء المهتزّ.

قبل شروق الشمس عاد إلى الدوّار، هبّت حفيظة الجالسة بالقرب من الباب بخفّة لا تناسب سنّها، كان واضحًا أنّها لم تنم طوال الليل رعبًا من مغامرة لم تستطع صرفه عنها. تحسّست وجه ابنها بعينيه الحمراوين وحالة الإعياء التي بدت في وجهه من غير أن تخفي فخر بطل عاد ليحمل شعبه إلى الأرض المحرّرة.

دخل غرفته فوجد تفيدة غارقة في نومها. اندسّ بجوارها. ارتفع شخيره بينما ترتسم على ملامحه غبطة النصر.

بعد أن رأى عليّ الغرفة المقترحة لنومه في السراي رفض الانتقال، مفضّلاً البقاء في غرفته فوق سطح الدوّار على هذا السجن بمساحاته المحسوبة ببخل، والأسوأ أنّ بناءه الحجري يردّد الأصوات ويضخّمها.

- دي حاجة تخصي يا عمدة، شوف إنت، لمّا شخرة مسعدة تبقى أربعة!

قال ساخرًا حتى لا يغضب سلامة من رفضه الانتقال إلى السراي، ولم يمانع سلامة، على أن تأتي مسعدة في الصباح، لكي ترعى أبناءها وتساعد في العمل، وأن يكون أكلهما وسط العائلة، حتى لا يشعلا نارًا تلتهم الغزل والقماش في الدوّار الذي سيتحوّل إلى مخزن.

- كفاية نارْ فضايحكم.

همس سلامة لأخيه بمرح، لا يخلو من إعجاب بألعابه الليليّة مع زوجته التي يسمع صوتها العائدون من صلاة العشاء والساعون إلى صلاة الفجر، وتجاريها في صراخها الكلاب والقطط في الشوارع وفوق الأسطح، بالنباح والعواء والمواء.

لم يصمد سرير الفرح تحتهما أكثر من أسبوع بعد الزفاف وبدأت مفاصله بالصرير، وسرعان ما انهار بهما. انتقلا إلى النوم فوق الفرن في آخر غرفة بالدوّار، ولكن مسعدة التي لم تعد ضيفة تخلّت عن الوسادة التي احتفظت بها بين أسنانها في شهرها الأوّل، وتركت لنفسها حرِّيّة الصراخ الذي لا تبلغ النشوة من دونه. قرّر سلامة أن يبني لهما غرفة فوق السطح، أملاً في تبدّد صوتها بالفضاء، لكن تركيزه لم يخف على آذان سكّان الدار حتى صار معمّمًا في العشّ كلّها.

- على الأقلّ بلاش وقت الأذان، بتشوّش على الشيخ حسنين، الراجل كبير وصوته تعبان.

قالها لشقيقه، بين الإعجاب والضيق الذي قد ينال من هيبة مسعدة؛ فتظلّ مستباحة السيرة، بدلاً من أن تصبح واحدة من نساء العائلة، وتُطوى صفحتها القديمة.

كانت مسعدة تعلب الفتاة الأولى والأخيرة التي بدأت العمل في المصنع. اعتبرته أفضل من التعرّض للشمس الحارقة والخربشة في جني القطن، أو الخوض في الوحل لشتل الأرز. ولم تجد أمّها الأرملة الخرساء سببًا لمنعها؛ فهي في كلّ الأحوال تعمل بين الرجال، ولم تلفت نظر أحدهم قطّ، إمّا لفقرها أو لتنكّر أنوثتها

تحت تكوين غلامي لا يغري أحدًا. كانت طويلة بشكل مبالغ فيه، وحتى الرابعة عشرة كان أثر المخاط على شفتها واضحًا، ولم ينبت في صدرها سوى عجرتي قطن صغيرتين، بينما كانت مؤخّرتها ممسوحة كلوح خشب. ليس فيها ما يُثير الاهتمام سوى جمال كاللغز في وجه بلا نوع، طولاني منمنم بطابع حسن غائر في الذقن وعينين صغيرتين تعوّضان ضيقهما بلون أخضر، وتلمعان بكسل عينيْ قطّة تشعر بالأمان.

منذ بدأت العمل في المصنع بين شباب يتخفّفون من ملابسهم إلى أدنى حدّ ممكن، ولا يكفّون عن الغناء والمزاح المكشوف، بدأت الطبيعة ترشقها بعطايا من اللحم بتصويب ماهر على النهدين والإليتين. وفي الوقت الذي كان فيه سلامة يتتبّع النموّ في العمل، ويسافر إلى القاهرة ليتأمّل التصميمات الجديدة في محالّ الأقمشة الفاخرة، كان عليّ، المسؤول عن سير العمل في المصنع، منهمكًا في تتبّع تكوّرات مسعدة. العجرتان، اللتان فركهما للمرّة الأولى بثلاثة أصابع، أصبحتا حبّتي طماطم تملآن راحتيه، والظهر المستقيم عرف في أسفله نعمة التكوير يومًا بعد يوم.

خرطها خراط البنات، وتركها دون شفقة أمام عليّ، الذي حاول أن يتجاهل الغموض المدوّخ في وجهها وبنيان جسدها المكتمل بلا عيبة. أخذ يتعمّد معاملتها بجفاء أمام العمّال. يتابع حركة يديها بإصرار يشبه التعنّت، بينما تفكّ الخيط من البكر لتلفّه شَلّة بين قبضتها وكوعها. يكلّفها بأكثر من مهمّة في الوقت نفسه، وعندما ترتبك لا يتردّد في سبّها وضربها على إليتيها بأقرب شيء إلى يده.

عندما سمعوا صراخها في إحدى غرف الخزين تصوّروا أنّ أسطوانات الغزل الضخمة انهارت عليها، ومن لمحوا عليّ يتسلّل وراءها اعتقدوا أنّه يضربها بوحشيّة. تكاثروا أمام الباب المغلق من الداخل، نطحوه بأكتافهم فانكسرت نصف موجة العمّال مكوّمة على أرضيّة الغرفة، الباقون تسمّروا واقفين بالباب أمام عريهما فوق فراش من بكرات الغزل، أدارها الارتباك لتلقي بحمولتها من اللحم الهائج فوق العمّال المذهولين.

ـ الفرح بعد أسبوع.

قال سلامة ردًّا على الرجال الذين جاؤوا لسؤاله عمّا ينوي عمله من أجل ستر اليتيمة. كان بوسعه التنكّر لفتاة وحيدة، ومنع أخيه من زواجها؛ فتعيش منبوذة، ليس لها من يدافع عنها أو يقتلها، وليس هناك من يقبلها زوجة، لكنّه حسم الأمور، وبتكريم للفتاة جعلها جزءًا من عائلة مرهوبة إلى حدّ يفرض على الآخرين النسيان، أو على الأقلّ التظاهر به.

في الدوّار لم يجهر أحد بالاعتراض، باستثناء حفيظة، التي لم تهتمّ بفقر الفتاة أو قلّة عزوتها، لكنّها لا تضمن مع من عبثت قبل أن تلقي بشباكها على الابن.

ـ ليه ياخد واحدة متفعّص فيها؟

قالت تستنجد بمجاهد، الذي أشاح بيده، معفيًا نفسه من التعليق على زيجة تعزّز صورة بيت الأصول والشهامة التي يرسّخها سلامة. ولم يكن عليّ يرى للشهامة محلًّا فيما يربطه بمسعدة؛ فهي امرأته حتى لو كانت ابنة قاطع طريق، وليس لأحد أن يمنعه من

الارتباط بها لمجرّد أنّها أسلمت له نفسها قبل أن يأتي بالشهود.

انقطعت عن العمل. وفي الأسبوع الذي حدّده سلامة كان كلّ شيء جاهزًا. مائة جرام ذهب، ومائة كيلو نحاس، سرير ودولاب فاخر، مراتب، ألحفة، ملايات، قمصان نوم، جلّابيّات ملوّنة، ملس وطرحة سوداء، وكلّ ما لن تحتاجه عروس، لا تفكّر إلّا في العري الآمن والمعترف به، في حضن عليّ.

أُقيمت ليلة زفاف تليق بالعائلة: ذبحوا الذبائح، وجاء المنشدون، وانطلقت رصاصات في الهواء. كلّ مظاهر الفرح أُقيمت كما ينبغي، على الرّغم من أنّها بدت مراسم عزاء. خرجت العروس من دارها المهدّمة وحملها عليّ إلى ظهر حصان أعاد إلى حفيظة حزن ليلة زفاف مباركة إلى مجاهد الذي ترقرقت عيناه بالدمع، متذكّرًا مهرته، مستعيدًا ذكريات شبابه.

لم تلتفت مسعدة إلى الاستقبال المتحفّظ لحماتها الأقرب إلى النفور. ولم تهتمّ بنظرات الاستعلاء أو السخرية من أمّها التي تلمحها في عيون النساء، عندما تزورها ببيضة مسلوقة ورغيف مقمّر وتصرّ على أن تأكلها أمامها. تضحك من حركات منصور الذي يقف وراء الخرساء يقلّد إشارات يديها التي تكمل بها طيّات الهواء الخارجة من حلقها، وتحاول أن تقول من خلالها شيئًا.

مباركة الوحيدة التي لم تُخْفِ سعادتها بهذه الزيجة وملابساتها التي جذبت الاهتمام بعيدًا عنها وعن ناجي. على الرّغم من الفتور الذي أصابهما، وجعل لقاءاتهما تتباعد، إلّا أنّ تفيدة كانت تبدو يقظة لأدنى حركة أو نظرة من أحدهما تجاه الآخر.

بعد وصول مسعدة أهملت مباركة وركّزت كلّ فضولها نحو العروس، منذ يوم الصباحيّة خصّت بطنها بنظرات فاحصة، بحثًا عن جنين قد يكون تشكّل قبل الزفاف.

ولم يكن ذلك يعني شيئًا لمسعدة؛ كان كلّ ما يشغلها هو انتهاء اليوم بالعشاء وسط العائلة، والانسحاب بأسرع وقت ممكن لبدء معركة الحبّ الليليّة مع عليّ. ويومًا بعد يوم خسر سكّان الدوّار رهانهم على هدوء قادم، كان سعار الرغبة يكبر ليلة إثر ليلة. وعندما لم يعد صراخها سرًّا، تحرّرا من التحفّظ. ولم تعد غرفتهما ميدانهما الوحيد، ولم يعد الليل موعد لقاءاتهما. لا يختليان في صحن الدوّار أو فوق سطح البيت أو في متبن أو غرفة خزين أو زريبة، حتى يرفع ثوبها ويأتيها كيفما سمحت الظروف.

بعد أكثر من عام على الزفاف تركت لها مباركة وتفيدة مهمّة حلب جاموسة حرون، لا تعطي لبنها إلّا بمزود ممتلئ بالبرسيم أو العلف، يجلس على حرفه رجل بعصًا غليظة تهدّدها، بينما تستحلب المرأة أبزازها.

- **مسعدة تحلب الحجر وهتشوفي!**

قالت تفيدة، عابثة. وكسبت نصف التحدّي، لأنّ مسعدة جعلت ضرع الجاموسة يحتقن وأبزازها تتصلّب وتدفع بلبنها دفقًا إلى القعب، لكنّها لم تخرج بقطرة حليب. دخلت المرأتان على صراخها، وعادتا تحاولان كتمان الضحكات. ولم تبق الحكاية سرًّا. حكتها تفيدة لسلامة وحكتها مباركة لناجي.

بدلاً من أن يلزم عليّ مكانه في مزود الجاموسة، هيّجته رؤية

يدي مسعدة الصاعدتين الهابطتين على أبزاز الجاموسة التي أخذت بالانتفاخ والتصلّب، ترك مكانه على المزود والتفت إلى حيث تجلس بقعب اللبن بين فخذيها، أنهضها من تحت إبطيها؛ فتدهور القعب إلى الأرض، رفع يديها فوق ظهر الجاموسة، وضغطها من الخلف. أنشب أسنانه صامتًا في رقبتها كحمار فوق حمارة، بينما نابت هي عنه بالنهيق.

لم يكن بوسع ناجي الأعزب المختبئ في غموض عشقه تحت الأرضي أن يخوض في الحكاية، لكنّ سلامة استطاع أن يجعلها متداولة على العشاء، محاولاً إخراج أبيه من عزلة ينزلق إليها.

ـ خرجت من الزريبة يا أبو سلامة قناية من لبن الجاموسة متغطّية بقشطة ابنك.

انفجروا بالضحك، وأرخت مباركة، محمرّة الوجه، نظرة نحو ناجي، لمّتها على نحو خاطف. ولم تعد غراميّات عليّ ومسعدة وقفًا على العائلة، لكنّها شاعت بين الشباب مع إغفال اسم الشابّة كما تقتضي التقاليد. على الرّغم من أنّ ما يسمعونه في الليالي هو صوتها لا صوته، كانوا يمزحون معه كما لو كان يفعلها وحده. وأصبح الشباب يتندّرون، وينسبون إلى الشيخ حسنين شكوى من عدم التكافؤ بين ندائه ونداء عليّ، ممّا جعل عدد المصلّين في الفجر يتناقص يومًا بعد يوم؛ حتى إنّه صار يُقيم الصلاة ويصلّي وحده، وهو نفسه لم ينتظم في صلاته إلّا لأنّه لا يجد بجواره من يركبه.

لم يدع صخب الأطفال فرصة للعفاريت كي تظهر في أيّ مكان بالسراي التي توسّعت بغرف أُضيفت في الفناء الخلفي، وأخرى على السطح. ولم يعد سلامة يجد فرصة لإغماض عينيه بعد الغداء، ليستريح من تعب إدارة أعمال الأسرة ومسؤوليّات العموديّة التي تزايدت، بعد أن مدّت المديريّة خطوط التليفون ووضعت الجهاز العجيب في مبنى الحراسة الذي أصبح يحمل اسم «التلفون». ترنّ الأعجوبة الجديدة في أيّ وقت؛ فيجد نفسه في مواجهة من يأمره في الطرف الآخر بالإقدام على إجراء معيّن، أو يوبّخه على التساهل مع فلّاح يماطل في دفع ضريبته، بينما العمد الآخرون يستخرجون حقّ الدولة بالكرباج.

لم يكن مستعدًّا لهذا العنف مع جيران وأقارب لم يزل يستغرب منهم كلمة «عمدة» عندما يخاطبونه بها. كانت أحوال الفلّاحين التي يعرفها وضغوط رؤسائه في المدينة تتضارب في

قلبه؛ فيحاول أن يهرب بالنوم قليلاً، لكنّ الأطفال لا يكفّون لحظة عن الحركة والصياح؛ فيتوتّر وينهرهم، ولا يستطيع العودة إلى النوم ثانية. جهّز لنفسه غرفة في «التلفون» صار يقضي قيلولته فيها، لكنّ أصوات الأطفال كانت تصله، فتطارد نومه المحروس بخفير على بابه. في أوقات الراحة بعد العشاء يحوّل غضب القيلولة إلى ضحكات، يقول لإخوته إنّه لم يشأ إطلاعهم على ما رآه بعد أسبوع من انتقال العائلة.

ـ شفت بعيني العفاريت بترمي نفسها من فوق السطح.

لكنّ صخب اللعب والجري والشجار، الذي نجح في دفع العفاريت إلى الانتحار، لم ينجح في طرد ظلّ الحزن من السراي. تسلّل الهمود إلى المخادع المتراصّة صفًّا واحدًا على ممرّ ضيّق. ضجيج غرف الأطفال صار وحده الدليل على وجود حياة في البناء العتيق. حالة اللامبالاة شملت تفيدة التي تخلّت حتى عن فضولها الوقح، ولم تعد تكترث بمباركة أو ناجي، وبدورهما لم يعد بينهما ما يخشيان من افتضاحه.

لم تنج سوى مسعدة التي لم تنتقل من الدوّار. استمرّت في المباعدة بين فخذيها لعليّ وإطلاق صياحها كلّ ليلة، ثم المباعدة بينهما وإطلاق صياحها بين يدي الداية مرّة كلّ تسعة أشهر؛ لتلقي إلى الحياة بمولود جديد، يدفع بشقيقه الأكبر إلى السراي تتولّاه النساء الأخريات، نيابة عن مسعدة المشغولة دومًا برضيع.

اعتزلت حفيظة في غرفتها الصغيرة بالقرب من باب السراي، وعادت الأحلام إلى مهاجمتها، حاصرها الأموات، وأكثرهم من

نساء كانت تكرههنّ. أكثر من كانت تزورها حماتها ألحاظ التي لا تراها إلّا مهرولة تصرخ من قطط في حجم الكلاب، تجري وراءها وتنهش ساقيها وإليتيها. ترى الغجريّة التي نصبت عليها وسرقت مصاغها، تحمل كسر فخّار متوهّج في حجرها ويبدأ جلبابها بالاشتعال.

أكثر أحلامها إيلامًا ترى فيها نجيّة. تأتيها بوجه جميل، وفي عينيها نظرة العتاب الحزينة ذاتها التي كانت آخر ما رأته منها، أمّا أكثر أحلامها تكرارًا فيأتيها على هيئة فخذين مفتوحين، تخرج من بينهما نار تحرق بطن المستلقية، التي لا يظهر وجهها، ومع ذلك تعرف، بشكل ما في الحلم، أنّها نجيّة.

تستيقظ مبكرًا كأنّما لتهرب من الأحلام، تخرج إلى الحديقة، تجلس تحت الشمس في الشتاء وفي الظلّ في الصيف، وعندما تحاول إحداهنّ استشارتها في نوع طبخ أو ترتيبات الخبيز، من باب مراعاة الأصول، تشيح بيدها.. يتقاطر عليها الأطفال؛ فتخرج لهم من سيّالتها الكراملّة. يعرفون أنّها ستسألهم عن أسمائهم، فيبادر كلّ منهم بإعلان اسمه لحظة مصافحتها. لكنّها لا تكتفي بسماع الاسم.

ـ ابن مباركة؟

ـ لأ، ابن مسعدة يا ستّي.

تسأل، ويجيبها الطفل، فتضع قطعة الكراملّة بطعم النعناع أو قطعة الفندام اللدنة في يده، بينما لا تكتفي بذلك مع البنات، فتحملهنّ على حجرها وتفلّي شعورهنّ، بحثًا عن قملة تنال الأمّ عليها توبيخًا.

مجاهد تضعضعت قواه، ولم يعد يحسّ بالفرق بين نومه في فراش حفيظة أو مباركة التي يمسُّها بمؤخّرة ضمرت وشاخت فلا يحسّ بأيّ شيء، ولا يهتمّ إن كان السبب إمعانه في الشيخوخة، أو أنّ جسمها هي الأخرى بدأ في التداعي، غير قادر على تذكّر السبب الذي كان يجعله يشعر بالخذلان عندما كانت تتجاهل ملامساته.

حاول الحفاظ على صلاتي الظهر والعصر جماعة في المسجد، متعكّزًا على سالم، ويقول إنّه الوحيد من «الرِبة» الجديدة الذي يعرف اسمه، مشيرًا إلى الأطفال الذين امتلأت بهم السراي. وكان الوحيد من بين إخوته الصغار الذي ينادي مجاهد بـ «أبي» بينما يناديه مصطفى ومحمود ويوسف وزينب بـ «سيدي» مثل أحفاده الآخرين. لكنّه لم يعد ينتبه كيف ينادونه، وصار، مثل حفيظة، يسألهم عن أسماء الأمّهات لا الآباء.

لم يعد نسيان أسماء الأطفال وحده ما يجمع مجاهد بحفيظة؛ فقد نشأت حالة تآخ بينهما. انتقل إلى غرفتها بشكل دائم، يستيقظان قبل الجميع، تخرج إلى المطبخ، تعدّ له كوب شاي يشربه في الغرفة. وعندما تشرق الشمس يخرجان إلى الحديقة، يجلسان الساعات الطويلة على الأرض بين الشجيرات المعتنى بها. يتنقّلان مع الظلّ، حتى ينعس مجاهد فتأخذه من يده، تعيده إلى الفراش، ينام قليلاً قبل أن يستيقظ لصلاة الظهر.

عاد يأكل بنهم أكثر ممّا كان يفعل في شبابه، بسرعة وقلق لا يتيح للأسنان المتبقّية في فمه مضغ ما تدفع به يده. ولم يعد يتحكّم

بنفسه، أو يتوقّف عن الأكل حتى يتقيّأ، وأحيانًا ما ينام متخمًا قريبًا من الموت، ويقطع الأكل أيّامًا، وعندما يتعافى يعود إلى طريقته من جديد.

بدأت حفيظة تغار على مظهره، وتحاول إخفاء ما يشينه عن أعين النساء الشابّات. طلبت من سلامة قفلاً لغرفة الخزين وعلّقت مفتاحه في خيط ربطته إلى ضفيرتها، لكي تمنعه من أكل الحلوى بشراهة تجلب غمزات النساء وضحكات الأطفال. تتلفّت مستطلعة قبل أن تمسح فتات الحلوى من زوايا فمه وفوق جلبابه، أو عندما تُنشِّف مخاطه الذي تدلّى على شفته. تخفي سراويله لتغسلها بنفسها بعيدًا عن الأعين، بعد أن اكتشفت أنّه لم يعد يتحكّم في برازه.

تتذكّر بين وقت وآخر أنّه تركها من أجل مباركة، وأذاقها مع أولادها ألوانًا من العذاب قبل أن يكبروا ويبدأ باحترامهم والخوف منهم. تتغيّر معاملتها له، تنهره أحيانًا؛ فيتلقّى تأنيبها باستسلام. تتأمّل المسافة بين الطفل الخاضع لمشيئتها وبين الوحش الذي كان يتركها ويخرج للسهر مع أصدقائه بعد أن يلهب جسدها بالخيزرانة؛ فتعود إلى هدوئها رغم الغضب. تساعده على ارتداء ملابسه بغيظ كتيم؛ فهي في مثل عمره، وتعتبر أنّ الضعف الذي أصابه سببه الوحيد إراقة مائه بسفه على فخذي مباركة.

ـ لو رحمت نفسك!

تنفعل في وجهه عندما يرهقها تشنّج ذراعه، إذ تخلع عنه أو تُلبسه ملابسه، لكنّ صمته المستسلمْ يعيدها إلى التسامح مرّة أخرى. وبعد لحظة يقطع جفاء الصمت.

ـ الفاتحة لابويا سماعين.

لا ينتهيان من التمتمة حتى يُعيد الطلب مرّة أخرى، إلى أن تشعر بالإجهاد، ولا تجد مفرًّا من مغادرته، متظاهرة بالقلق على طفل علق فوق شجرة، أو رائحة شياط تهبّ من شيء نسيته إحداهنّ على النار. لا يقول لها سبب تذكّره لأبيها وليس لأبيه أو أمّه، لكنّها تعرف أنّ هذه هي طريقته في الامتنان لعمّه، الذي لم يستجب لأمّها بتطليقها منه، عندما تزوّج عليها مباركة. أمّها ستّ الدار لم تر شيئًا في ضرب مجاهد لحفيظة أو في أنانيّته التي ربّته أمّه عليها عندما كانت ابنتها زوجته الوحيدة، لكنّها لم تتبادل معه كلمة واحدة بعد زواجه من مباركة. وعندما كبر الأبناء، كانوا يمازحونها بأنّ زواجه جعل أمّهم حرّة في البيت أكثر ممّا كانت في وجوده، يتهكّمون من حزن الجدّة العجوز على رجل عديم النفع. تردّ بدون تردّد.

ـ ما هي دي الخيبة، لو كان بسّ له قيمة!

لم تعد العناية بمجاهد ومراقبته طوال اليوم مصدر تعب حفيظة الوحيد؛ إذ تزامن تداعي ذاكرته مع ولع بإخفاء الأشياء؛ فلا يعود يتذكّر أبدًا أين وضعها، وتظلّ تدور حول نفسها للعثور على صحن أكل فيه، أو كوب شرب منه الشاي منذ لحظات، حتى تجد أكوامًا منها بفضلات متعفّنة، تحت السرير أو داخل الدولاب وسط الملابس. كما زاد نزقه في مواجهة الأطفال، غير قادر على تركهم وشأنهم، يتلفّت ليرى إن كان أحد من الكبار يراه قبل أن يقرص طفلاً أو يضربه لمنعه من اللعب؛ فأصبح عليها أن تراقبه طوال الوقت، قبل أن يؤذي أحدهم ويتعرّض لتأنيب سلامة، فينخرط في

البكاء مثل الأطفال، ولا يزيد في ردّه الذي تخرج كلماته من بين دموعه مجعّدة بالنشيج.

ـ حاضر يا سيدي، حاضر، أنا غلطان.

ـ ستّين غلطان.

ويعود سلامة إلى شعور بالذنب لأنّه انفعل في وجهه، بينما لا تمرّ ساعة حتى ينسى مجاهد المواجهة ويعود إلى إيذاء طفل آخر.

لم يكن سلامة وحده المتألّم من السلوك العدواني لأبيه، المبرّر الآن بخرف الشيخوخة، بينما لم يكن هناك ما يبرّر قسوته عليه وعلى إخوته عندما كانوا صغارًا. ناجي وعليّ لم يكونا أقلّ حنقًا على رجل لا يشعرون بأيّة عاطفة تجاهه. وإذا كانت مسؤوليّات المصنع والعموديّة لدى سلامة، ومسؤوليّات الاضطجاع مع مسعدة لدى عليّ، جعلت تفكيرهما في الأولاد ينحصر في كيفيّة حمايتهم من عدوان الأب؛ فإنّ العزلة الكثيفة لناجي جعلته يفكّر فيما هو أبعد؛ في مستوى من التعليم للأطفال أفضل ممّا تلقّاه في الكُتّاب هو وإخوته، يليق بوضع العائلة الآن. نبّه سلامة الذي لم يتأخّر في الاستجابة، مقرّرًا إرسال الأولاد الذين بلغوا سنّ المدرسة إلى الزقازيق.

استأجر شقّة وأثّثها باللازم من الأسرّة والطاولات والدفاتر والأقلام وأدوات المطبخ. وقبل بدء الدراسة كان بجوار السائق في سيّارة أجرة، حمل فيها مباركة مع كومة من اللحم بين السادسة والثامنة تضمّ سبعة من الأبناء: سالم، محمود، ويوسف، من أولادها، أحمد، وعبد المقصود، من أولاد تفيدة، كامل وسند من

أولاد مسعدة. وأثقلت مؤخّرة السيّارة والشبكة فوق سقفها بملابسهم مع جرّة من الجبن القديم وصرر من الملوخيّة والبامية الجافّة والأرزّ والشعريّة، وكمِّيّة كبيرة من البصل والثوم واللحم المقدّد الغارق في دهن متجلّط، والخبز الجافّ.

بعد يومين انتهت مباركة من وضع كلّ شيء في مكانه، حتى بدت الشقّة وكأنّها بيتها منذ الأزل. شعرت بأنّها تحرّرت من هواء ثقيل كاد يخنقها في السراي، على الرّغم من أنّها تركت وراءها منصور الذي تعلّم النسيج وبدأ العمل في المصنع، وزينب التي ستتذكّر بعد ذلك بألم كيف أخذت تجري وراء العربة حتى اختفت، فظلّت تبكي أيّامًا على فراق أمّها وعلى رغبتها في التعلّم التي لم يستجب لها إخوتها، حيث لم يكن مطروحًا تعليم البنات غير الخبيز وحلب المواشي وأعمال البيت.

بدأت مباركة التعارف مع ساكنات العمارة، بعضهنّ جئن من قرى لرعاية أبنائهنّ مثلها، وبعضهنّ مقيمات أصليّات من زوجات الموظّفين بالمدينة. عندما يخرج الأولاد إلى المدرسة يبدأن بشرب الشاي معًا، ثم يتوجّهن إلى السوق لشراء الأشياء الضروريّة ليكون الغداء جاهزًا عند عودة الأولاد.

تعرف مباركة الوقت الذي سيعودون فيه بمساحة الشمس على أرضيّة الصالة. تضع الطعام أمامهم ثم تلفّ الشقّة قيلولة جماعيّة، يقومون منها إلى إنجاز واجبات اليوم المنزليّة. تجلس بينهم، تتعلّم منهم الحروف والأرقام، ثم الكلمات وطريقة هجائها. ترى الشكل مرّة واحدة؛ فلا تنساه أو تسأل عنه مرّة أخرى، وفي أشهر قليلة

صار بوسعها أن تسبقهم وأن تتولّى مساعدتهم في الواجب المنزلي، أمّا متعتها القصوى فكانت يوم الاستحمام.

عند عودتهم من المدرسة ظهر الخميس، تكون مستعدّة بصفيحة الماء تغلي على الوابور في الحمّام، يتصاعد بخارها برائحة المستكة التي ألقت قطعة منها في الصفيحة مع قليل من ورق الغار. ترصّ الملابس الداخليّة النظيفة بالقرب من الطشت. تأمرهم بالتجرّد من ملابسهم واحدًا بعد الآخر، تنزح من الماء المغلي بدورق، تخلطه مع الماء البارد أمامها، ترشّ الولد بالماء ثم تبدأ في تصبين رأسه ودعك جسده بالليفة. يرتجّ نهداها ويسري الخدر إلى جسمها من البخار المعطّر وملمس الولد الذي يستند بيديه على رأسها مغمضًا عينيه اتّقاء للصابون. ترى كيس خصيتيه يتحرّك ويتجمّع حتى لا يبقى ظاهرًا منه سوى قمّة صغيرة يابسة، بينما تتحرّك الحمامة الصغيرة وتشتدّ منتشية ببراءة في مواجهتها. تديره بيدين مسرورتين، تدعك ظهره ثم تريق الماء فوق رأسه، قبل أن تلفّه بالمنشفة وتُلبسه ملابسه النظيفة ليخرج مفسحًا لغيره. وعندما تنتهي، تخرج لتسترخي بينهم، ملكة بين رعاياها، وليست مربّية أو جليسة أطفال.

لا تشعر باهتزاز عرشها إلّا عندما يأتي سلامة ليزورهم لعدّة ساعات كلّ أسبوعين في مواعيد الخبيز، يحمل إليهم الخبز الطازج والمقدّد والبطّ والإوزّ المذبوح بأكباده التي يحبّها الأولاد. تشعر في الساعات التي يقضيها بينهم أنّها أُقصيت عن مملكتها لصالح رجل يصدر الأوامر إلى أولادها، وعليها أن تقف على خدمته. ولم يشفع لها هذا الضيق عند سِلفتها التي شعرت بالغيرة من زيارات سلامة

لزوجة أبيه. تفيدة التي لم تكن تجد فرصة للانفراد بمباركة إلّا وتلمّح لها بما يوحي باطّلاعها على علاقتها بناجي كانت تستبعد إمكانيّة ميل سلامة إليها، لكنّها ليست مطمئنّة إلى انفراد زوجها بامرأة يخدّر سحرها كلّ الرجال ويجعلهم مطيعين لها وأليفين مثل أطفال يتامى، حتى أولادها جعلهم سحرها أكثر أطفال العائلة هدوءًا وطاعة.

ـ رجلي على رجلك.

قالتها تفيدة بإصرار لم يدع لسلامة فرصة تفكير. رافقته في زيارتين ضاقت بهما مباركة، وطلبت منه ألّا يتعب نفسه بعد الآن، وأن يرسل لها المصروف والزوّادة مع أيّ مرسال. واستراحت إلى هذا الحلّ الذي تسبّبت فيه امرأة لا تستطيع أن تقدّر متعة الحياة بغير رجال في فردوس سكّانه من الغلمان، لا تخرج منه مباركة إلّا مرغمة بالعطلة الصيفيّة التي يعودون لقضائها في العشّ.

عرفت في فردوسها كيف تحبّ نفسها. تخلع كلّ ملابسها بعد خروج الأولاد، وتتأمّل عريها على مهل في المرآة، ترى لفّة فخذها بحثًا عن التغضّنات والدوالي التي تشكو منها النساء في سنّها، فلا تجد أثرًا في الفخذ الغضّة. بأصابع مضمومة كمنقار طائر تسرح بيديها على الفخذين، تقرص أسفل بطنها وتمدّهما إلى ثدييها الممتلئين من دون ترهّل، تقرص الحلمتين المتوهّجتين بحمرة نحاسيّة، تتأمّل تشقّقهما والثقب في المنتصف، تتخيّلهما رأسي طفلين توأمين مستغرقين في النوم. ترتدي فستانًا قطنيًّا مشجّرًا يسترخي بفتنة على الصدر، لتبدأ عادات الكسل الصباحيّة مع الجارات.

عشر سنوات قضاها سلامة عمدة للعشّ، ذاق فيها مرارة السلطة أكثر ممّا عرف من حلاوتها، ومع ذلك صار متفهّمًا لوضع المسؤوليّة اللائق بما حقّقه من مكانة.

لم يكن يهتمّ لو بقيت العشّ بلا عمدة للأبد، لكن أن يكون هناك عمدة فلا ينبغي أن يكون غيره، لكنّ هذا، للأسف، هو ما حدث عندما تغيّرت السلطة في القاهرة، واختارت نظارة داخليّتها عمدة جديدًا للعشّ: عبد الرازق عصفور، رجل في منتصف عقده الخامس مثل سلامة، لكنّه بقامته الربعة وكرشه النافرة تحت الجلباب الصوف يبدو أسنّ منه بعشر سنوات على الأقلّ. كان تجنيده في الفترة ذاتها مع سلامة، ولم يعد إلى العشّ بعد تسريحه. عمل في سوق الخضار بروض الفرج، ثم تحوّل إلى تجارة الخردة التي يشتريها من معسكرات الإنجليز. كوّن ثروة كبيرة وبدأ في الاهتمام بالسياسة متنقّلاً بين أحزاب لم يعرف الفرق بينها.

وبعد انقطاع سنوات طويلة تذكّر العشّ؛ فبدأ في التردّد إليها.
أعاد بناء بيت الأسرة المهجور منذ سنوات طويلة، واتّفق مع سلامة على بناء مدرسة إلزاميّة لأطفال القرية. رحّب سلامة بالاقتراح. تبرّع بنصف فدّان من الأرض، وتولّى عصفور تكاليف الإنشاءات، حيث أقام ستّة فصول في جانب من الأرض، وأقام في الآخر بيتًا صغيرًا لإقامة المعلّمين الذين سيأتون من المدن. اكتمل البناء وحمل على كتفه لافتة «مدرسة العشّ الإلزاميّة». جاء وفد من كبار المسؤولين، ضمّ مدير المديريّة والحكمدار ووكيل وزارة المعارف، افتتحوا المدرسة التي استقبلت تلاميذها.

لم ير سلامة في الزائر أكثر من مغترب يشعر بالحنين إلى مسقط رأسه، ولا يمكن أن يتنازل عن حياته في القاهرة. لكنّ عبد الرازق مع كلّ ما حقّقه هناك، كان يعتبر نفسه غريبًا في العاصمة؛ فخطّط للعودة إلى العشّ ليراه من عرفوه في طفولته وشبابه، ويتمكّن من إدراك أهمّيّة ما حقّقه في غربته. واظب على زيارة العشّ في أوّل رمضان والعيدين مع زوجته وصبيّين لا يخلعان البذلة الإفرنجيّة والطربوش وربطة العنق.

لم يظهر في البداية أسوأ ما عاد به؛ ذكرى عداء مضت عليه سنوات لا يعرفون عددها، حتى لم يعد هناك من يذكره بين أبناء عصفور والديب إلّا بشكل مشوّش، حيث لا يعرف أحد سببه، ولا من كان المبتدئ بالعدوان من الجدّين، لكنّهم يعرفون أنّ العداء استغرق حياة جيل كامل من العائلتين تبادل حشّ الزراعات قبل النضج، وتسميم المواشي مرّة بعد أخرى، إلى أن استطاع أعيان

المنطقة عقد صلح احترمه الطرفان من دون أن يتخلّصا من الكراهية التي تسري في الدماء جيلاً بعد جيل.

جمع عبد الرازق أقرباءه حوله، واستطاع بالهدايا والولائم إعادة تأليف عائلة فرط عقدها الخلاف على ميراث صغير، أو تزاوج انتهى بالطلاق. وعندما صدر قرار تعيينه عمدة للعشّ جاءت قوّة من بوليس المركز لنقل السلطة. وللمرّة الأولى يشعر سلامة بهزيمة. أحسّ بإهانة خروج التلفون. ولكي يستبقي المكان مفتوحًا، جعل خفراءه مكان خفراء الحكومة، من دون أن يظهروا بنادقهم غير المرخّصة، وبقيت حفرة النار مشتعلة وفوقها كنكة الشاي أمام التلفون المهجور، لكنّ العمدة عصفور لم يعجبه توقّف الخفراء النظاميّين في جولاتهم الليليّة لشرب الشاي مع حرّاس مصنع النسيج؛ فطلب تسلّم «التلفون» القديم بصفته عهدة أميريّة، وأغلق بابه بالطوب وليّسه بالطين، ملزمًا خفراءه بالبقاء في «التلفون» الجديد الذي بناه مكان دار صغيرة اشتراها في مواجهة بيته.

للمرّة الأولى يجد سلامة نفسه مطالبًا بالدفاع عن مكانته، والإبقاء على مظاهر تفوّق عائلته. اشترى سيّارة أجمل من تلك التي عاد بها عبد الرازق وتعلّم قيادتها بنفسه، أعاد طلاء السراي، وصار يتحرّك في جمع من عمّاله، وللمرّة الأولى يُقيم وليمة كبيرة لمنشدي مولد سيدي الساكت، بعد أن كان يكتفي بدفع أجورهم بسبب انشغاله، تاركًا للعائلات الأخرى التناوب على إطعامهم.

ولم تدع الأحداث الصراع يتصاعد؛ فقد أنهى النيل سبع

سنوات من الشحّ بعصبيّة بدت واضحة في أوّل طبقة من الماء المزبد المندفع بطميه الأحمر في ارتفاع متوال. تعاون الجميع في وضع أكوام من الردم على النقاط الخفيضة من الشواطئ، لكنّ ذلك لم ينجح في وقف اندفاع الماء.

تمّ نقل ما أمكن من بكر الخيط ولفّات القماش من المصنع ورفعها بالحبال إلى سطح السراي، قبل أن تبدأ المياه مداهمة الشوارع وتخطّي العتبات إلى داخل الدور. مضى ناجي بالمواشي مع النازحين بمواشيهم إلى البلاشون، بينما حمل سلامة في السيّارة أبويه والأطفال الذين لا يقدرون على المشي من أبناء عليّ، ومضى باتّجاه الزقازيق، ضابطًا سرعة السيّارة على سرعة حشد العائلة المهرول وراءها. وعندما صاروا بعيدًا عن الخطر، استأجر للمهرولين عربة كارو لحملهم بقيّة الرحلة، وانطلق بسيّارته بعد أن وصف للحوذي العنوان النهائي الذي ينبغي أن ينتهي إليه.

مشاعر متناقضة سيطرت على مباركة عندما استمعت للجلبة على سلّم العمارة، وفتحت الباب استجابة للطرقات المتعجّلة، لتجد العائلة كاملة على الباب، بعد أسبوع واحد من انتهاء العطلة الصيفيّة وعودتها برعاياها من تلاميذ العائلة إلى الزقازيق.

فرحت بمنصور الذي صار رجلاً، وبزينب التي تركتها طفلة، لكنّها في الوقت ذاته وجدت نفسها في مواجهة ضرّتها المسنّة وزوجها الشيخ الذي استراحت من هذياناته، وسِلفتها تفيدة الأسوأ من ضرّة، والسِلفة الأخرى مسعدة، التي ستتولّى تبديد سلامها.

اكتشفت أنّ الزمن لم يحمل مسعدة على الهدوء، ولم يردعها

الزحام في الشقّة، حيث تضطجع إلى جوار زوجها في الصالة المرصوصة لحمًا، تمنحه نصفها الأسفل تحت اللحاف، بينما تلقم ثديها لطفلها، فإن أحسّت بأنّ هناك من ينصت إلى تأوّهاتها، تضرب الرضيع على مؤخّرته، وتنتش ثديها من فمه، وهي تسبّ لؤمه وتهدّده بعدم إرضاعه مرّة أخرى إذا أصرّ على عضّها بأسنانه التي كأسنان الفأر، رسالة مكشوفة لمن يسمعها وليس للرضيع الذي يختلط بكاؤه مع تأوّهاتها، من دون أن تتوقّف حركتها اللائبة كبندول حول محور عليّ المتناوم.

وعلى عكس اجتهاد مسعدة في الكتمان، لجأت تفيدة إلى مبالغات لم تكن من عاداتها، غيرةً من مسعدة أو تفاخرًا على مباركة. لا تدع سلامة ليلة واحدة في هذه الظروف الاستثنائيّة، حتى عندما يعود منهكًا من رحلاته إلى القاهرة وبلبيس ومنيا القمح التي يستمهل فيها تجّار الغزل المطالبين بديونهم، أو يستحثّ تجّار القماش لدفع ديون لا يجدون ضرورة لردّها، طالما لم يتسلّموا قماشًا جديدًا.

حاولت مباركة أن تقنع نفسها بأنّ الأسوأ في هذا الغزو هو فقدانها عاداتها الصباحيّة. لم تعد ترى جاراتها إلّا بشكل عابر على السلّم، أو في السوق، مقيّدة بحضور تفيدة ومسعدة المتعثّرتين في جلابيبهما الريفيّة. وجدت نفسها أمام مسؤوليّة إطعام هذا الحشد، والخروج ببعض أفراده إلى الشارع خلال النهار لتخفيف الزحام. لكنّها في الليل كانت تستمع إلى فحيح المرأتين، فتمتلئ أذناها بهذيانات منتصر وناجي، وقد توحّدا معًا في رجل واحد يفترشها

فوق كومة من التبن تدغدغ جلدها بألم لذيذ.

ـ لمّوا كلّ حاجة، راجعين كلّنا.

قال سلامة الذي خرج مبكرًا كما اعتاد طوال ستّة أسابيع، لكنّه عاد في ذلك اليوم حزينًا موحلاً. لم تفهم مباركة لماذا تعود برعاياها من الأولاد في بداية العام الدراسي. وهو لم يقل شيئًا، ولم يسأله أحد ممّن أثارهم صمته المعتم. أمّا الأولاد فكانوا حزانى لمفارقة المدينة. انطلقت القافلة الصامتة إلى العشّ، كومة من البشر وصرر الملابس فوق عربة كارو، سبقتها عربة سلامة بآثار الطين على عجلاتها وصدّاماتها.

أطبقت على الكارو التي وصلت متأخّرة سحابة من البعوض المنسحب مع آخر شعاع شمس في شوارع لم يكتمل جفافها بعد. قليل من الدور تتصاعد منها خيوط الدخان. بوّابة سور السراي مفتوحة، ومع ذلك يخيّم عليها صمتها القديم المقبض. أخذوا في مغادرة العربة. كان سلامة يجلس مع والديه صامتين، ينظرون إلى الطابور مطأطئي الرؤوس.

ـ ناجي.

لم يبدّد الهمس بالاسم غموض الصمت. لم يضف أحد كلمة «الصبر» بعد الاسم، كما يُقال للأحياء الأقرب للفقيد، أو «تعيش إنت» لإبلاغ من يعنيه الأمر من بعيد. فقط يلفظون الاسم، ولن يحقّ لأحد احتسابه ميتًا.

اختفى ناجي. ترك البهائم في رعاية جيرانه بين أخصاص

الهجرة بالبلاشون، وقال لهم إنّه سيذهب إلى العشّ لاستطلاع إمكانيّة العودة. مضى النهار بطوله ولم يعد في تلك الليلة أو التي بعدها؛ فبحثوا عن سلامة وأبلغوه نبأ الاختفاء.

لا أثر لجثّة في الدوّار أو السراي أو الترع والمصارف. الجنِّيّة تمكّنت منه في القرية الخراب المظلمة، هبطت به إلى سابع أرض، وقد يقضي حياته هناك، وقد يستطيع الهروب منها بالحيلة في أيّة لحظة، وقد يعيش أسيرها حتى تقضي غرضها منه وتلفظه ليطفو فوق سطح الأرض شيخًا كليل البصر، وتستبدل به إنسيًّا آخر، شابّ يستطيع إرضاءها. هذا هو التفسير الذي فرض نفسه للغز الغياب، ولا يمكن معه إقامة عزاء، لكنّهم كانوا يستقبلون الزوّار الذين يجلسون في صمت دون أن يجهدوا أنفسهم في اختراع كلمات مواساة جديدة لتناسب حالاً لم يعرفوها من قبل.

لم تدع مباركة أحدًا يرى دموعها على الغائب، لكنّها كانت تتركها تتدحرج ساخنة من عينيها عندما تنفرد بنفسها في غرفتها ليلاً. وبعد أسبوع صمت كئيب، لم يجرؤ أحد على تسميته حدادًا، طلب منها سلامة العودة بالصبية إلى مدارسهم، وصار لديها في الزقازيق الوقت لتتعرّف على دموعها في النور.

مجاهد المشغول بمطاردة الأطفال، نسي الأمر تمامًا، وعاد يطلب من حفيظة قراءة الفاتحة لأبيها، وعندما يلحّ، تذكّره بأنّها ليست في حال يسمح لها بالتفكير في الذي شبع موتًا لأنّها مشغولة على غياب ابنها، يسألها عن الغائب، فتكبّب له بيديها.

ـ أنا عارفة الموتُ تايه عنّك ليه؟

لكنّها، نفسها كانت ترهق سلامة وعليّ ومنصور بإلحاحها المستمرّ:

ـ أخوكم اتأخّر قوي يا ولاد.

في البداية كانوا يردّون عليها، ثم بدأوا يشيحون بوجوههم عنها، لكنّها ظلّت تحتفظ له بحصصه من اللحم حتى تتلف أو يجدها أحدهم فيأكلها، وتظلّ تتحرّى حتى تعرف من أكل مناب أخيه وتخاصمه، لا تكلّمه إلّا عندما ترى وجبة دسمة أخرى وتحتفظ منها بشيء لناجي تجتهد في إخفائه، لدرجة أنّها تتوه عنه هي نفسها، وتقودهم النتانة إلى مكانه في طاقة مهجورة أو تحت مرتبة سريرها.

أخذت تشعل لمبة في ضريح الشيخ الساكت كلّ ليلة، وتتضرّع إليه ليتشفّع لابنها عند الجنّيّة لتتركه. وعندما لم تتلقّ استجابة أيقنت أنّ الشيخ غاضب لأنّهم نسوه، مهملاً في بنائه الذي تهدّم. أجبرت سلامة على إعادة بناء الضريح. تحمّل نفقة البناء، على الرّغم من تدهور الأحوال الماليّة للعائلة؛ فمحصول القطن لم يعد يجد من يشتريه، والحبوب لا تغطّي تكاليف زراعتها. والمصنع لم تعد أحواله كما كانت؛ فرغم انخفاض أسعار الغزل لم يكن هناك من بوسعه شراء قماش جديد.

وعندما لم يتمكّن الشيخ الساكت من إعادة ناجي، بدأت تطلب من سلامة أن يأخذها معه لزيارة الأولياء في المدن القريبة، ثم الحسين والسيّدة زينب في القاهرة، ولم تسلّم باليأس، لكنّها صارت أضعف من أن تغادر السراي بعد أن ضمرت وصارت

بحجم طفلة. أخذت تتساند في الليل وتتسلّل إلى سطح السراي. يسمعها سلامة أحيانًا فيصعد وراءها ليجدها، كاشفة شعرها رافعة يديها إلى السماء، فيحملها وهي ترفِّس بيديها ورجليها لتتملّص منه.

ـ سيبوني، يمكن يحنّ عليّا.

بعد أن كانت تتولّى مجاهد صارت مثله عبئًا، تشكو منهما تفيدة لزوجها، بينما تعيش مباركة منعّمة في المدينة، ولا تأتيها مسعدة كلّ يوم إلّا بعد الضحى عندما يكون الرجل والمرأة الخرفان قد أنهكاها طلباتٍ وشجارًا بعضهما مع بعض أو معها. لا يغضب سلامة من زوجته، لأنّه، هو نفسه، لم يعد يحتملهما.

ـ لو بسّ عرفنا له قبر!

يُحدِّث نفسه، حزينًا على أخيه، متفهّمًا حرقة أمّه. وسرعان ما ينسى كلّ هذا أمام التهديد الذي يواجه مكانته التي صنعها بعرق جبينه.

كانت الأزمة تتفاقم. ولم يصب انهيار الأسعار مصنعه فقط، بل هدّد شركات طلعت حرب العملاقة. وتزايدت الأموال الأميريّة المطلوب تسديدها للسلطة، لكنّ أهمّ ما كان يشغل سلامة هو التطاول الذي بدأ عصفور ممارسته، حيث بدأ في تهديد بعض أطراف عائلته المتعثّرين في دفع الأموال الأميريّة. تفادى سلامة المواجهة، لكنّه كان يضطرّ إلى فكّ الرهن عن أراضي بعض الأقارب، أو يقرض بعضهم تفاديًا لبيع بهائمه بالبخس. وكان يعتبر أنّ أيّة خسارة ماليّة أفضل من الانتظار حتى يستدعي عصفور أيًّا من

أقاربه ليوبّخه، عندها لن يكون بمقدوره الصمت.

طلب من عليّ الانتقال إلى السراي، ليتعاونا هما وزوجتاهما في رعاية الأبوين والأبناء. لكنّ الأمّ التي لم تعد تنام ساعة في الليل، كانت تتحرّك أمام الغرف؛ فتسمع تأوّهات مسعدة. تلطم الباب بكلتا يديها.

ـ كفاية بقى يا بنتي، حرام عليكي.

يعمّ الصمت قليلاً، ثم يبدأ الصياح من جديد؛ فتمضي تكلّم نفسها:

ـ واحد انخطف والتاني هتقتله المرة الوسخة.

صارت شبحًا، لكنّها واصلت الزحف إلى السطح، بعد أن يعمّ الهدوء، لتبدأ ضراعاتها الليليّة مباشرة إلى الله، دون حجاب من سقف أو غطاء رأس، تقرن الدعاء بعودة ناجي مع الدعاء على المرأة اللبؤة بالموت، إلى أن استيقظوا ذات يوم فوجدوها مطروحة فوق أغصان شجرة ليمون. رأتها مسعدة واستغربت أن تنشر تفيدة ثوبًا على شجرة لن تستطيع تخليصه من أشواكها عندما يجفّ. لكنّ حماتهما كانت ميتة داخل الثوب، مكلّلة برائحة زهر الليمون، بلا أثر لدماء حتى في وجهها المكشوف، الذي لم تتمكّن الأشواك من اختراق جلده اليابس. وأُقيمت لها جنازة ضخمة، بينما كانت الكنّتان تضحكان من حزن زوجيهما على المرأة التي لم يجد عزرائيل معها حلًّا إلّا بدفعها من فوق السطح.

قبل أن تحسم الحرب الأوروبيّة الثانية مصير أيّ من المتحاربين قوّضت مملكة مباركة. كانت الحكومة متحالفة مع إنجلترا بحكم اتّفاقيّة ملزمة، بينما يهتف المصريّون للألمان: تقدّم يا روميل، استبشارًا بالقائد الذي عبر بجنوده من برقة إلى العلمين. فكّر سلامة في ضرورة عودة الأولاد من الزقازيق، خوفًا من القصف والاجتياح وبلطجة الجنود الإنجليز المحبطين في شوارع المدن، بينما ظلّت القرى بمنأى عن هذه الأخطار.

عادت مباركة، وقد زاد عدد رعاياها اثنين، حيث ضمّت القافلة صبيّة شقراء بزغب الطفولة الذهبي في وجهها، تحمل بين ذراعيها طفلة لا تكفّ عن البكاء، تشبه يوسف أكثر ممّا تشبهها.

ـ جواز وخلفة كمان، وانا ولا هنا؟

تساءل سلامة بخيبة أمل، وردّت مباركة باقتضاب:

ـ بعدين يا عمدة.

صمّمت على تأجيل النقاش حماية للصغيرة التي بدت مذعورة من العدد الكبير لسكّان السراي، وقد أخذوا يتفحّصونها باستغراب. كانت تعليمات مباركة لكنّتها المزيّفة ألّا تتحدّث مع أحد، وأن تترك الردّ على الأسئلة لها..

ـ بنت جارتي الولد غلط معاها.

لم تعط مباركة أكثر من هذا التوضيح المقتضب وغير المقنع، بسبب بكارة النهد الوردي المتصلّب الذي تخرجه ضحى لإرضاع صغيرتها. كانت الفتاة تضطرب وتتهيّج بألم من مصّ الرضيعة لحلمتها، دون أن تحظى بقطرة حليب واحدة، ولا تلبث أن تلفظ النهد باكية؛ فتتلقّفها مباركة وتتولّى إرضاعها من زجاجة مليئة بحليب ماعز.

ـ بكريّة يا روح أمّها.

تقول مباركة ردًّا على النظرات الفضوليّة. ولم يكن عدم وجود اللبن وحده ما يُثير الدهشة. كان غياب الاكتراث المتبادل بين مراهقة ومراهق غريبًا، لا دخل له بالخجل ولا بالفتور الذي يعتري الأزواج بين وقت وآخر. كان واضحًا أنّه لا توجد بينهما صلة من أيّ نوع، هذا ما تأكّدت منه تفيدة.

ـ مفيش أثر لريحته فيها.

قالت بثقة لمسعدة التي أحسّت بالتعاطف مع الفتاة، ولم يكن لديها فضول للتدخّل في شؤونها أو دفعها للكلام فيما لا ترغب.

أمضت ضحى أسبوعين في السراي، لم تتبادل فيهما مع الآخرين سوى إيماءات تحيّة صامتة بالرأس كما لو كانت خرساء، حتى لقّنت مباركة ابنها يمين الطلاق، كرّرها وراءها ثلاثًا على مسامع الصغيرة التي جمعت أشياءها القليلة وعادت إلى الزقازيق، تاركة الرضيعة في رعاية الجدّة.

لم يستمرّ فضول تفيدة حول المراهقة التي رحلت. سريعًا ما نسيتها وركّزت اهتمامها في كيفيّة التعامل مع مباركة نفسها، التي قطعت اثنتي عشرة سنة من عمرها بالعكس، وعادت بضّة ناعمة ترتدي الفستان كسيّدات المدن، وضعت الراديو، الذي وفّرت ثمنه من مصروف الأولاد، في بهو السراي، تستمع لأغنياته بصوت عال مع كوب الشاي. تتحدّث عن عاداتها وما تحبّ وتكره، مثل الرجال. تنظر إليها باستعلاء، على الرّغم من أنّ إقامتها الطويلة بالمدينة لم تسفر إلّا عن شهادة بكالوريا واحدة مهّدت لسالم طريقه إلى مدرسة الحربيّة في القاهرة، بينما لم يتمكّن أيّ من الشباب الآخرين عبور عتبة الإعداديّة، وعادوا ليتوزّعوا بين العمل في المصنع والأرض.

بدأت تعيّرها بأنّها أتلفت الأولاد. عادوا بهائم كما ذهبوا؛ لأنّها كبست على عقولهم، لكثرة ما أطعمتهم من الرقاق الغارق في السمن ودهن البطّ والإوزّ. لم يتعلّموا إلّا قلّة الأدب، حتى يعود أحدهم متورّطًا في زيجة غامضة، ولا تعرف ماذا يمكن أن ينكشف بعد.

لا تستطيع تفيدة منْع نفسها من الغيرة على زوجها من مباركة،

حتى عندما كانت تشمّ رائحة ناجي في ملابسها. لكنّها لم تكن تقدر على البوح لأحد. الآن، مستندة إلى أبنائها الذين يكبرون من حولها، صار بوسعها أن تجهر بهواجسها أوضح فأوضح، كما بدأت تتصرّف على راحتها: تدخّن الجوزة وتسعل وتبصق على الأرض، وكأنّها تنتقم من سنوات طويلة من الحذر، والاجتهاد كي لا يتخلّى عنها سلامة، الذي تتطلّع إليه وإلى نفسها؛ فتتأكّد أنّ زواج الرجل الوسيم محنة يجب ألّا تُقبل عليها امرأة عاقلة.

ـ ليه ما تناميش في غرفة أبويا مجاهد، مش راجلك؟

قالت تفيدة؛ لكي تؤلم المرأة التي تزايد بريق عينيها القادر على تخدير أكثر الرجال زهدًا.

ومباركة تعرف أنّ من يستطيع إجبارها على شيء لم يُخلق بعد، لكنّها أحسّت بحزن، من تذكيرها بمجاهد، الذي لا يغادر غرفته إلّا محمولاً لتشميسه في الحديقة، فلا يكفّ عن الأنين حتى يعيدوه إلى فراشه. استغربت أنّها لم تعد تحمل له أيّ ذكرى في داخلها، كأنّه لم يكن شيئًا. لا أثر، لا وخز ولو خفيف لألم ظلمه لها، أو ندم على تعذيبها له. المؤلم هو أنّه لم يزل موجودًا، كحّته المستمرّة التي يعقبها بصاق أسوأ إهانة لنظافتها التي لم تكتسبها فقط من إقامتها في المدينة، والأسوأ أنّ شيخوخته الهاذية بمقدورها أن تعدي روحها، وهي ليست مستعدّة للتهدّم بعد؛ فقد عادت إلى منصور وزينب، وتريد أن تطمئنّ عليهما بزواج يليق، كما لم تتخلّ عن أولاد الزقازيق أو يتخلّوا عنها، وإنّما ظلّوا يتعاملون كما لو كانوا أسرة واحدة داخل العائلة. ينادونها «أمّي مباركة» بينما ينادون

تفيدة ومسعدة باسميهما، ولديها الرضيعة عطيّة، طفلة طفلها يوسف الذي اختارته جارتها من بين إخوته.

لطيفة، زوجة ضابط الصفّ الغائب في السودان، جاءتها بعد أن خرج الأولاد إلى المدرسة، صنعتا معًا حلاوة السكّر بالليمون، أغلقتا الشبابيك والباب بالمفتاح من الداخل وتخلّصتا من ملابسهما، وبدأتا في تبادل نتف شعر جسديهما. وفجأة سمعتا طرقًا مجهدًا على الباب. سترت كلّ منهما نفسها بسرعة وفتحت مباركة الباب.

كان يوسف، يجرّ كتبه جرًّا، وقد صبغت حرارة الحمّى وجهه بالأحمر. أسرعت مباركة لتبليل منشفة ووضعتها فوق رأسه بينما احتضنته لطيفة ومدّدته على الكنبة واضعة رأسه فوق فخذها. مراهق في الرابعة عشرة فارع الطول، لكنّه لم يزل يذهب إلى المدرسة بالشورت الذي يكشف عن فخذين لم تغادرا غضاضة الطفولة.

ناولتها المنشفة وراحت تعدّ له كوب ليمون بالسكّر، وعندما عادت كانت لطيفة تدلّك رأسه ورقبته وصدره بعد أن فكّت أزرار قميصه. أنهضته مباركة، شرب الكوب بشراهة، كأنّه يستعجل العلاج، ثم أراحته على فخذها هي. وجلست لطيفة على الأرض دون أن تتخلّى عن تدليك الصبي، وتختلس النظر إلى الانتفاخ الذي بدأ يظهر في الشورت، ولاحظه الولد فجمع فخذيه مقرفصًا، وأحسّ أنّ هذا الوضع لم ينجح في إخفائه فانقلب على بطنه. أوصلته دغدغة يدها إلى النشوة، واختلطت رعشة اللذّة برعشة الحمّى، أصابت انتفاضاته رعب مباركة.

ـ ما تخافيش، شدّة وتزول.

قالت لطيفة وقامت إلى غرفة جلبت منها لحافًا نشرته فوقه، وعادت إلى جلستها على الأرض، تجسّ حرارته وتربّت على كتف مباركة لتطمئنها.

كانت لطيفة تزور مباركة وتتأخّر في الانصراف حتى ترى الأولاد عند عودتهم، وأحيانًا تقف على السلّم عندما تسمع دبدبة أقدامهم. بدأت مباركة تخاف عليهم من عين جارتها، لحظة دخولهم مثل سرب بطّ أخضر. وعندما لاحظت أنّ جارتها الثلاثينيّة التي ترى زوجها مرّة واحدة في العام، تستمتع بمشاغبتهم، تصوّرتها تُصبِّر رغبتها بالنظر للأولاد والحديث معهم. لم تفكّر بأنّ جارتها تنظر إلى واحد منهم، وبالذات يوسف، الذي تعرف لطيفة أنّه لم يتوقّف عن تبليل فراشه.

هذه المشكلة جعلته أكثر الأولاد خجلاً وانطواء. أخذ يوزّع نومه بحيث لا يكمل ثلاث ساعات دفعة واحدة، وكان يلتزم بهذا الاستيقاظ المجهد بدعوى المذاكرة، ليلتين أو ثلاثًا، ثم يأخذه النوم في الرابعة ويوقظه البلل في الصباح الباكر. يغيّر ملابسه، يغسلها ويبدأ في محاولات تجفيفها على النار قبل أن يراه أحد. حاولت أمّه التخفيف عنه، وأخبرته أنّ هذا يحدث لآخرين، صارحته بسرّها؛ فهي الأخرى ظلّت تبلّل فراشها حتى صارت عروسًا، لكنّها كانت محظوظة بكونها طفلة وحيدة، لم يدر أبوها عن صباحاتها شيئًا. وقتها لم تستطع استشارة أحد، لكنّها حاولت البحث عن علاج لابنها وسؤال الجارات إن كانت هناك وصفات

لهذا الأمر وبينهنّ لطيفة نفسها، قبل أن تطلب منها إرساله إليها كي يكتب خطابًا إلى زوجها.

ـ وليه يوسف بالذات؟

سألتها مباركة، وردّت لطيفة على الفور:

ـ إخواته قالوا خطّه حلو.

اعتبرت مباركة أنّ ذلك أفضل من أن تطلب من سالم، فكّرت ساخرة أنّ جارتها ربّما تكون بحاجة إلى غلام يبول عليها، لكنّها أزاحت الخاطر الساخر وسألتها:

ـ هي ضحى ما بتعرفش تكتب؟

ـ بتعرف بسّ عبده ما بيقدرش يقرا كلمة من خطّها.

خطابان بخطّ يوسف المنمنم، لم يتسلّم الزوج الغائب غيرهما؛ لأنّ الزوجة رأت أنّ إشباع الأشواق مع المراهق أفضل من إملائها.

ـ هنا بعيد عن الصالة ودوشة السلّم.

قالت في المرّة الأولى التي قادت فيها يوسف إلى غرفة نومها، تطلّع الصبي فلم يجد غير السرير ذي الناموسيّة من الدانتيل، وجّه نحوها نظرة متسائلة.

ـ إيه؟ ما تعرفش تكتب ع السرير؟

سألته بدلال، وسحبته من يده. تمدّد يوسف على بطنه فوق الورقة، والقلم في يده، منتظرًا ما تمليه لطيفة التي جلست بجواره.

ـ اكتب. . احنا في شدّة شوق يا أبو ضحى.

تملي كالمنوّمة، بينما أراحت يدها فوق ظهر الغلام. أخذت تعبث به، تدلّك كتفيه، ثم أمسكت به من قفاه، وأدارت رأسه لتضعه في مواجهة صدرها الذي ينتفض. ابتسم يوسف بمكر، ودفن وجهه في الوهدة بين الثديين، ضغطته، ثم رفعت وجهه وقبّلته من فمه. وأخذت تلعق وجهه. جرّدته من ملابسه وتجرّدت واستلقت فوقه. في لحظات كان الصبي قد انتهى. احتضنت فخذه في حضنها وأخذت تقبّل ربلة ساقه، التي تبلّلت بدموع بكاء استطاع الغلام أن يميّز فيه اضطراب البهجة والقلق والخوف. جفّفت دموعها، وجمعت له ملابسه، وأخذت تساعده في ارتدائها، ودفعت به إلى خارج الغرفة، وتبعته عبر الصالة، تلفّتت تستطلع مكان ابنتها، ثم جذبته وقبّلته ودفعت به ثانية.

ـ مش هتقول لأمّك، هه؟

سألته قبل أن تفتح الباب، وعدها بالصمت، وقبل أن يسألها إن كانت ستستدعيه ثانية، كانت قد أزاحته خارج الشقّة وأغلقت وراءه الباب.

أخذت تخبر مباركة بحاجتها إلى يوسف مرّة، وتتصيّده مرّات من أمام شقّتها قبل المدرسة أو بعدها، ومرّات يتسلّل إليها عندما يستسلم الآخرون لنوم القيلولة. تغلق على ضحى باب غرفتها أو ترسلها لشراء شيء من الشارع، وتجرّه إلى غرفتها، تخلع قميصها، بعد أن تفتح الشورت الذي يرتديه وتزيحه ليستقرّ عند كاحليه كقيد يكبّل حركته، تجلس على الأرض تتضرّع إلى حمامته المتصلّبة

بحذاء رأسها، تدور عليها بلسانها، تبتلعها في جبذات متلاحقة، ثم تدفع بأسيرها إلى السرير، فيستلقي بجذعه، تقفز فوقه، وتتضارب قدماه المقيّدتان على الأرض بارتباك حصان تستحثّه فارسته الشرسة للخوض في البلل.

ـ الدورة اتأخّرت.

قالتها بيأس، بعد أن سألتها مباركة عن سرّ شرودها.

ـ ليه؟ حبلت من قراية جوابات عبد الصمد؟

ـ من الكتابة.

عرفت مباركة ما ترمي إليه لطيفة. لم تلم جارتها، لكنّها سألتها بدهشة غمرت وجهها:

ـ والعمل؟

أخبرتها لطيفة أنّها تعبت من حمل المراتب إلى السطح والقفز من فوق السرير، وابتلاع شربة الخروع المُرّة نفّاذة الرائحة. جرّبت مباركة أن تتنطّط على بطنها. سقتها على الريق منقوع خلطة أعشاب مُرّة وصفها العطّار. كادت المرأة تموت ولم يفلح أيّ شيء في زحزحة الجنين المصمّم على البقاء في رحمها. وعندما استلقت في شقّتها بين الحياة والموت، أمسكت مباركة بيدها.

ـ دي حكمة ربّنا. كمّلي حملك وهنكتبه باسم ضحى.

فتحت المرأة المتداعية فمها دهشة. كيف تريدها مباركة أن تلقي بغلطتها على ابنتها الطفلة؟

ـ بنتك لو قالت يا جواز كان زمانها معاها اثنين، هنكتب لها على يوسف.

تدبّرتا مأذونًا جاء بشاهدين، كتبوا العقد في غياب إخوته. وعندما رجعوا وضعت مباركة أمامهم الغداء وأطلعتهم على خبر زواج يوسف من ضحى بأقلّ عدد من الكلمات، ومن دون أن تعتبر نفسها مطالبة بأيّ شرح أو تفسير.

وصار من المفترض أن يبدو أمام إخوته زوجًا لضحى. أخذ يتردّد على شقّة الجيران بشكل علني، ويبقى قريبًا من الفتاة التي تجلس طوال الوقت تخيط عرائس وتحشوها بقصاقيص من الملابس القديمة، وهو يرقبها بلا اكتراث. بدأت تخيط له أحصنة وجِمالاً، واندمج معها؛ فأخذ يحشو معها الحيوانات الدمى ويفصّل لها السروج.

لم تطلب من لطيفة أو يوسف الابتعاد أحدهما عن الآخر، لأنّ رهبة الحمل جعلتهما يتباعدان من تلقاء نفسيهما. يتذكّر الولد اللحظة التي كانت الخالة تحمحم فيها مثل مهرة، يغلق عينيه ويستعيد بياض جسمها الذي كان أكبر ما أدهشه عندما تجرّدت أمامه للمرّة الأولى، يرسم بخياله حدود السمرة التي لوّحتها الشمس في الوجه والرقبة والنحر، يحدّد المكان الذي يبدأ منه البياض كإشراق مفاجئ، يُنَمّل جسمه من الرغبة، وعندما يتصوّر نفسه في حضنها ترتعد مفاصله، وكأنّها ستحبل مرّة أخرى. وكان كلّ ما يشغل لطيفة هو إخفاء بطنها الذي أخذ ينتفخ، لا تكاد تشعر بوجود المراهق، وتستغرب كيف طيّر عقلها من قبل.

لم تعد تغادر شقّتها أو تدع ضحى تخرج، تشتري لها مباركة ما تحتاجان، كما استعدّت بموسى نظيف ومطهّر لتوليدها من غير أن يدري أحد.

وعندما بدأت آلام الطلق، جلست مباركة عند رأسها، لتمسك بيدها عند كلّ طرقة، بينما تضع يدها تستطلع مكان الجنين. بعد ساعات لمست بأصابعها الزغب المبلّل. طلبت من ضحى تسخين الماء، وأخذت تسحب الرأس بنعومة حتى انزلق المولود؛ فتلقّته في يدها، أزاحت الوسخ من بين فخذيه وهتفت:

ـ لبؤة زيّك.

لم تسمعها لطيفة التي انزلقت في النعاس. قطعت الخلاص وربطت السرّة، وحمّمت المولودة ولفّتها في قطعة من القماش النظيف، أمام ذهول ضحى التي كان عليها أن تعتبر المولودة ابنتها.

عاش مجاهد تسعين عامًا. ومات يوم عادت العموديّة إلى ابنه. وتقدّم جنازته المأمور والضبّاط الأربعة في المركز. وتلقّى عزاءه تسعة وثلاثون ابنًا وحفيدًا.

كان سلامة جالسًا على الدكّة المستندة إلى جذع شجرة المانجو قرب باب السراي، يشرب قهوة العصر كما اعتاد، عندما أجبر الإنجليز الملك مجدّدًا على استدعاء زعيم الأغلبيّة وتكليفه بتأليف الوزارة، امتثالاً لرغبة المندوب السامي البريطاني الغاضب من عجز أحزاب الأقلّيّة عن السيطرة على عداء المصريّين لدولته.

فور تلقّيه التكليف الملكي، استدعى النحّاس باشا وزراءه المُقالين معه منذ أشهر قليلة، وكلّفهم بمهامّهم. وفي اليوم التالي استدعى الباشا وزير الداخليّة ضبّاطه، وأعادهم إلى مواقعهم، وفي صباح اليوم الثالث استدعى مأمورو المراكز العُمد وردّوهم إلى مناصبهم.

عاد سلامة بالقرار. وانهمك في ترتيبات استعادة العموديّة. أمر بإعادة فتح التلفون المغلق بالطوب، أشرف على توصيل الحرارة ووضع عدّة التليفون الذي عاد من بيت عصفور في موكب يشبه زفّة العرس. وانهمكت النساء في الإشراف على الطبخ للضبّاط الذين سيأتون في الغد لتهنئة سلامة وتثبيت سلطته.

وعندما دخل للنوم بعد منتصف الليل تذكّر أباه. دخل غرفته؛ فوجده مستلقيًا على ظهره، مقرفصًا ساقيه. تصوّره نائمًا، لكن عينيه بدتا مفتوحتين في الضوء المتسرّب من الكلوبات التي لم تزل مضاءة في الحديقة. حيّاه؛ فلم يردّ. هزّه من ركبتيه فانهارت ساقاه المتخشّبتان من دون أن تسقطا على السرير تمامًا. قلَّبه؛ فلم يجد أثرًا للحياة. أسبل عينيه ومسح حول فمه. بذل مجهودًا لكي يفرده، حتى لا يراه المُغسّل على هذا الوضع الذي يؤكّد موته وحيدًا مهملاً. طقطقت العظام تحت يديه، لكنّه نجح أخيرًا في أن يجعله يبدو نائمًا على استقامته.

لم يخبر أحدًا. لا الشباب الساهرين في الحديقة، ولا النساء الثلاث المنهمكات في ذبح الحمام ونخل الدقيق لإعداد الفطير، استعدادًا لغداء المأمور ومرافقيه الذين سيأتون في الغد لتهنئته بالعموديّة.

بعد أن اطمأنّ إلى هندام الميّت. أغلق عليه بابه، ومضى إلى غرفته بعد يوم طويل من الإرهاق، مندهشًا من الحياد الذي تقبّل به الأمر، لا أثر إلّا لوخز خفيف من ذكريات الطفولة، عندما كانت لمجاهد صورة الوحش، يمنعهم من الحركة أو الكلام، ولا

يتنفّسون بحرِّيَّة إلّا عندما يغادر الدوّار.

تخلّص من جلبابه، وتداعى فوق سريره. غاص خدّه في الوسادة الطريّة فأعادته إلى إحساسه بهدهدة الموج في المدمّرة الحربيّة، وحملته سريعًا إلى النوم.

في الصباح، تمّ تغسيل الميت وإغراقه بكمِّيّة من المسك بلّلت الكفن، كي لا تخرج الرائحة حتى يُشيّع بعد صلاة الظهر. وعلى الرّغم من أنّ زيارة الضبّاط كانت مقرّرة سلفًا، إلّا أنّ حضورهم أعطى الجنازة طابعًا احتفاليًّا. تقدّم المأمور الجميع فوق حصانه، وخلفه سارت الأحصنة الأربعة بالضبّاط، يحفّهم الجنود وخفراء العشّ مهرولين في الجانبين، ووراءهم سار حاملو النعش، ووراء النعش سار سلامة متقدّمًا إخوته وأبناءه وأبناء إخوته.

كان الفخر هو التعبير الوحيد على وجوه متلقّي العزاء في رجل عاش حتى لم يعد وجوده محسوسًا، وبين ذويه من يحمل له ذكريات سيّئة تكفّل الزمان بنسيانها، وبينهم من رأى شيخوخته بإشفاق، ومنهم من لا يحمل له مشاعر أو ذكريات من أيّ نوع.

بعد ذلك سيتذكّر سلامة الوقائع ويقول إنّه حزن عليه، لأنّه لم ينتبه إلى أنّه بدأ في عقده السادس بفضل وجود أبيه، وأنّه لم يكن يتوقّع أن يحسّ بعد موته باليتم والتقدّم في السنّ معًا.

ـ إنت صغير طول ما أبوك عايش.

هكذا يلخّص الأمر. ولسنوات طويلة، سيبقى موت مجاهد، لا حياته، سببًا لتذكّره؛ لأنّه آخر من رحل عندما كان الموت

مفهومًا وله معنى؛ فبعد عام واحد من وفاته بدأت حالات الإسهال والقيء تضرب العشّ. من جرّبوا الخروج بمرضاهم إلى منيا القمح وبلبيس عادوا من دونهم مذعورين. توقّف المصنع منعًا للاختلاط، وأُغلقت نوافذ السراي وبدأوا في تنفيذ التعليمات التي استمرّ الراديو في إذاعتها مع أخبار تفشّي وباء الكوليرا.

لم يسأل أحد عن النتيجة التي انتهت عليها الحرب، ولم يعد أحد ينتظر تقدّم الألمان، بل وقف تقدّم الوباء، الذي تسلّل في قطار مع أمتعة الجنود الصاعدين من أفريقيا، وانتشر من المعسكرات إلى المدن والقرى المصريّة. أرسل سلامة باستغاثته إلى مأمور المركز بعد أن تزايدت حالات الإصابة بالعشّ. وأقام بجوار التليفون انتظارًا للردّ، لكنّ الصرخة التي حملتها الأسلاك لم يرجع صداها إلّا بعد يومين: «ستأتي شاحنة كلّ يوم، والمطلوب الإبلاغ عن أيّة حالة لحملها إلى الحجر الصحّي الذي أقامته الحكومة في ساحة محلج القطن ببلبيس».

استمرّ الراديو في إذاعة تعليمات الوقاية، وأهمّها التخلّي عن العادات العاطفيّة الضارّة؛ لأنّ التستّر على مريض عزيز سيقتل عزيزًا آخر لم يصبه المرض بعد. وفي الوقت نفسه كان الرعب ينتشر من الإهمال في معازل الحجر الصحّي التي سمّوها «العِفنة» يُلقى فيها المرضى بلا أيّة رعاية، انتظارًا للموت، وأحيانًا ما يُحملون إلى حفرة الدفن الضخمة أحياء؛ حيث يمكن سماع أنينهم من بين أكوام الجير الحيّ التي تُهال فوقهم.

صار لضجيج الشاحنة الضخمة الرهبة نفسها التي تُثيرها آليّات

جيش معاد. وكان توقّف الممرّضين المكمّمين بالمحفّة أمام إحدى الدور كفيلاً بإصابة السليم بالإسهال. لم يخلق الوباء التعاطف والتضامن الذي اعتادته العشّ أثناء الفيضان وعند اشتعال الحرائق؛ فليس هناك ما يمكن أن يقوم به الأصحّاء تجاه المرضى، بل على العكس، كان الخوف يدفع الجار للإبلاغ عن مريض مختف في الدار المجاورة مثيرًا غضب جيرانه. وللمرّة الأولى يشعر سلامة بالمسافة التي تفصله عن سكّان العشّ، وما تجلبه السلطة من كراهية. كان مطلوبًا منه تنفيذ النظام وتمكين البعثة الطبِّيّة من ممارسة مسؤوليّتها في أمان، حسب القرار الذي وصله مع جندي مراسلة ووقّع باستلامه. وأخذوا يعتبرون أنّ كلّ انتزاع لمريض من بين يدي أسرته هو بمثابة تنفيذ حكم الإعدام.

لم يطل صمود السراي في وجه الوباء، على الرّغم من احتياطات النظافة التي قادتها مباركة بصرامة، مدعومة بتعليمات الراديو. بدأت تفيدة التقيّؤ عند المغرب. وعندما همس أحد الخفراء لسلامة بإصابة زوجته، ترك التلفون وعاد إلى السراي. أشار إليها لتدخل إلى غرفتها بعيدًا عن الآخرين. لم يقترب منها. كان واضحًا من تعبيرات وجهه أنّها بالنسبة له في تلك اللحظة مجرّد مصدر للخطر. ومضت بنظرة في عينيها لخّصت فيها كلّ عتب وأسف عمر لم تشعر فيه بأنّ وجودها ضروري لدى رجلها؛ فهي تعرف أنّه لم يتزوّج عليها بأخرى إلّا لأنّه شديد الانشغال، وأنّها لم تبق في هذا البيت إلّا بفضل عناده وفخره بنجاحه الذي لا يريد أن يخدشه بفشل في الزواج.

ـ خلاص. ربّنا صلّح لك الغلطة.

قالت بمرارة، بينما كانت تجتهد لتكبح موجة جديدة من الاستفراغ؛ حيث صار بمقدوره أن يتزوّج ثانية من دون أن يُعدّ ذلك إخفاقًا يُحسب عليه.

جرجرت رجليها إلى الغرفة المظلمة، لم تره عندما أراح رأس أخيه عليّ في حجره، وأخذ يتلقّى استفراغه في يديه، بينما وقفت مباركة تتلقّى منه في دلو، وتجفّف يديه وفم المريض بمنشفة، وفي أقلّ من ساعة مات عليّ بين يدي أخيه وأُصيبت سميحة عليّ، ثم منصور ويوسف. وتوالت الإصابات طوال الليل؛ بحيث لم يعد واضحًا مَن التالي. في الصباح أعطت الشاحنة ظهرها للسراي، ولم تتحرّك إلّا بعد أن امتلأ صندوقها بكومة من اللحم والبراز والاستفراغ، لم يُعرف عدد أفرادها على وجه الدقّة إلّا بعد انتهاء الوباء وعودة من بقي على قيد الحياة من الشباب الذين هربوا إلى الحقول وعاشوا على الخضراوات طوال أسابيع، خوفًا من العدوى المنتشرة في هواء القرية المحبوس.

لم يقو سلامة ولا مسعدة على الوقوف لوداع الراحلين، بينما وقفت مباركة بعينين خاليتين من التعبير، كأنّها تنظر إلى جيران ينقلون أثاث بيتهم القديم. وعندما أغلق الممرّضان المكمّمان صندوق العربة العسكريّة وقفزا بجوار السائق الملثّم، سقطت من عينها دمعة، ولوّحت لزوج من العيون يلمع في قمّة الكومة، استطاعت أن تلمح استغاثة ابنها مصطفى عندما تحرّكت العربة، وسرعان ما غابت النظرة الحزينة خلف الغبار المختلط بسخام المحرّك الخرب.

أغلقت بوّابة السور، وفي طريق عودتها عثرت على عطيّة ابنة يوسف تحت شجرة برتقال، مغطّاة بالغائط، وجيش من النمل.

بعد التأكّد من انتهاء الوباء فتحت مدرسة الحربيّة أبوابها، ومنحت طلّابها أسبوع عطلة للاطمئنان على أسرهم. عاد سالم مقدّدًا مثل سمكة رنجة أنضجتها الشمس في بذلة كاكيّة بضفيرتين ذهبيّتين على كتفيه. لم يجد في السراي سوى أمّه، ومن كلّ إخوته لم يبق سوى محمود وزينب، والطفلة عطيّة، ومسعدة امرأة عمّه عليّ وابنها كامل، أمّا سلامة، الذي صار عمدة لقرية فقدت نصف سكّانها، فلم يبق من ذريّته إلّا عبدالمقصود.

بدت السراي خالية بعد أن توقّف صخب الأطفال في جنباتها كطنين النحل على مدار اليوم. عاشوا بحزن صامت وغصّة في الحلق لا يعرفون ضدّ من. أُصيب سلامة بالشرود والنسيان إلى حدّ الإعاقة، فصار لا يتحرّك إلّا بدفتر صغير وقلم الكوبياء في يده، يسجّل كلّ ما يراه ضروريًّا، وعندما يُذكّره أحد بوعد قطعه أو بمهمّة كان عليه أن ينجزها لا يبدأ بالغضب والاستنكار قبل أن يفتح دفتره.

ـ مكتوبة هنا؟! مكتوبة؟! فين ورّيني انت؟!

يردّ على سائله، ولا تصبح القضيّة أهمِّيَّة السؤال أو ضرورته، بل تبرئة نفسه ودفتره من النسيان. وضاعفت مباركة ومسعدة صمتهما، واضعتين تركيزهما في رعاية من تبقّى من الأبناء ورجل واحد لا يخصّ أيًّا منهما.

ـ شبعنا حزن بقى يا خويا.

قالت مباركة بعد عام من الحداد، وهي تدحرج طبليّة العشاء، وطلبت من سلامة الموافقة على تحديد موعد لخطبة زينب لوفيق الابن الأكبر لعبد الرازق عصفور. كان وفيق راكبًا حصانه يحوم حول سور السراي عندما رأى مباركة تمشّط شعر زينب ذات الثلاث عشرة سنة، وقد أجلستها فوق كرسي مرتفع بالحديقة حتى تباعد بين شعرها والأرض. توقّف يراقبهما وعندما انتبها همز حصانه ومضى، لكنّه ظلّ يطوف بالسراي يوميًا، يلاحق زينب بنظراته من فوق حصانه، وأخذت تجري إلى الداخل كلّما رأته. وعندما بدأت تستلطفه أخذت تتأنّى قبل الابتعاد عن مرمى بصره. أرسل أمّه تستطلع رأي الفتاة وأمّها؛ فتلقّى ردًّا بالقبول ووعدًا بمفاتحة أخيها العمدة، وإرسال ردّه.

- كنت بتحبّي أبوها قوي؟!

أجابها سلامة، مشيرًا إلى أنّ وفيق يشبه مجاهد في شبابه؛ يتعايق بالخيل والملابس النظيفة، ولا عمل له. كان مرتبكًا من المفاجأة، هل تنهي المصاهرة صراعه مع غريمه، أم يعكّر التنافس بينهما حياة أخته؟

وافق دون أن يعثر على إجابة للسؤال بسبب إصرار مباركة عليه. هي نفسها ستتذكّر بألم هذا الإصرار من دون أن تعرف سببه؛ هل كانت لا تزال تتذكّر حكمة أمّها «الراجل الحلو زيّ الكردان ع الصدر»؟ أم أنّها اختارته بسبب الإعجاب الذي تبادلته مع أمّه سكينة، ابنة المدينة التي فرحت هي الأخرى بالتعرّف إلى مباركة كما لو كانت قد وجدت لقية؟!

تمّ الترحيب بالخطيب، وبدأت الاستعدادات للعرس. تركت مباركة لمسعدة المهامّ العمليّة من اختيار ألوان قماش الملابس والمفروشات والخزين الذي ستحمله العروس معها من السمن والبقول، وتفرّغت لتلقين ابنتها أصول الحياة الزوجيّة، بعد أن اكتشفت أنّها لم تزل طفلة لا تعرف ما هي مقبلة عليه. شرحت لها ما يمكن أن تشرحه؛ كيف تتصرّف بعد فضّ البكارة، ما تفعله في الفراش، وكيف تخفي بلل الدورة الشهريّة عن الرجل، وحدّدت لها الأيّام التي ستكون فيها أكثر استعدادًا للحمل.

ـ لمّا أحبل أبعد عنه لحدّ ما أولد؟

سألت زينب ببراءة، وهتفت مباركة ضاحكة لتُشهد مسعدة على سذاجة ابنتها:

ـ يا وقعتك سودة يا ابن سكينة، هتتلوّع تسعة أشهر!

بعد أن خرجت العروس بدت السراي أكثر وحشة؛ فأخذ سلامة يستحثّ عبد المقصود ومحمود وكامل على الزواج. حاول مساعدتهم في الاختيار، ثم كفّ عن ذلك، لأنّه أخذ يقترح الفتاة لأحدهم، وبعد أن يوافقه يُفاجأ بأنّه عاد واقترحها على أخيه. ترك لهم أن يختاروا بأنفسهم، وخصّص لكلّ منهم صفحة في دفتره كتب فيها اسم الفتاة التي اختارها، وبدأ في طلب المواعيد من ذويهنّ، وتسجيل كلّ موعد في الصفحة ذاتها.

يصطحب الثلاثة للموعد الواحد، كما جرت عادة العائلات بذهاب أكبر عدد من الرجال في مواعيد من هذا النوع. وفرض على كلّ منهم أن يرتدي جلبابًا أبيض يوم خطبته ليكون مختلفًا عن

الآخرين فيطلب له الفتاة من غير العودة إلى دفتره. ولأنّ أحدًا خارج السراي لم يعرف سرّ هذا الإجراء الذي اقتضاه ضعف ذاكرة سلامة، تحوّل إلى تقليد في العشّ، وأصبح شؤمًا أن يذهب شابّ لطلب يد فتاة بغير اللون الأبيض.

بعد أن خرج ثلاثة ذكور إلى ولاية نساء أخريات لم يبق أمام مباركة ومسعدة سوى التنافس على الاهتمام بسلامة وابنه عبد المقصود. تشيران إليه باسم البكر الذي رحل في الكوليرا.

ـ أبو أحمد كلْ؟

ـ غسلت عدّة القهوة لأبو أحمد؟

تسأل إحداهما الأخرى؛ فإن فاتها السبق إلى إطعامه تجري إلى ملابسه تغسلها، أو تطلب منه أن يأخذ حمّامًا ليعطيها ملابسه التي ارتداها في الصباح فقط.

ـ الدنيا حرّ، زمانك عرقت فيها يا خويا.

وعندما تغسلان الجلباب تنشرانه على الحبل المعلّق بين شجرتين في حديقة السراي، وتقفان أو تجلسان بالقرب منه حتى يجفّ، من دون أن يلوّثه عصفور بزرقه، أو ذبابة بأطرافها الملوّثة.

تتذكّر مباركة غيرة تفيدة منها، التي لم تفهم أبدًا إن كانت غيرة على سلامة، أم غيرة من جمالها الذي يحمل سلامة على عقد المقارنة بينهما. تتذكّر تعبيراتها الجارحة بالكلمة والنظرة. مع مسعدة الأمر مختلف. لا تنافسها على العناية بسلامة، لكنّها تتعاون معها كما تعاون الأمّ ابنتها في العناية برجلها. أحصت عمر

مسعدة. عرفت لماذا ترتاح إليها منذ دخلت العائلة؛ إذ تيقّنت أنّها من جيل السبعين الذي تشعر بأنها من حبلت به، لأنّ فتنتها يوم عرسها دفعت بأمّهاته إلى أحضان الآباء. لكنّ هذا ليس السبب الوحيد الذي يجعلها بعيدة عن التنافس معها؛ فالرجل الذي لا يخصّ أيًّا منهما حتى الآن، يحلّ زوجًا لمسعدة، وليس لأرملة أبيه، لكنّ ولعها الصامت بقيمة الذكورة يضيف سببًا آخر للاهتمام. وهذا ما جعلها بعيدة عن إغواء النساء، مهما صرخ عليها جسمها. تعرّضت لتوسّلات أحلام ونرجس، جارتيها في الزقازيق، وعرفت كيف ترفضهما، لكنّها لم تفعل ذلك بغضب أو استنكار.

ـ مش حابّة.

تقول بهدوء وكأنّها ترفض طعامًا أو شرابًا لم تتعوّده، بينما حافظت على العلاقة معهما، ولم تكفّ عن التعرّي أمامهما وتلقّي مساعداتهما في نتف الشعر عن الزوايا التي لا تطولها يداها في جسمها، الأمر نفسه مع سكينة زوجة عبد الرازق عصفور التي التقت بها في عزاء، وزارتها في اليوم التالي في السراي، قبّلتها على زاوية فمها عندما صافحتها. ولمّا اختلت بها بكت وتوسّلت حتى همّت بتقبيل قدميها، ولم تستجب مباركة أو تبدي استهجانها. ولم تيأس المرأة البضّة التي يبدو سحرها في نعاس لحمها الأبيض، واصلت زياراتها لمباركة بين وقت وآخر، تجلس أمامها بالساعات، تحكي لها عن كلّ شيء في حياتها، تتوجّع وتطلب منها أن تجسّ حرارتها فتفعل، وتطمئنها مباركة.

ـ مفيش سخونة.

تقول بثبات، متغافلة عن الانحلال الذي يبدو في جسم المرأة، التي عرفت كيف تدفع ابنها إلى التعلّق بزينب كوسيلة للتقرّب أكثر من مباركة دون أن تنجح في استمالتها.

ـ لو مفيش راجل في الدنيا، أصوم لحدّ ما ربّنا يخلقه.

تتمتم لنفسها باعتقادها الواضح، الذي لم تدركه النساء اللائي تحرّشن بها، بينما يحسّه الرجال دون التباس؛ في نظراتها، في رخاوة صوتها عندما تنطق كلماتها القليلة، في الإنصات العميق الذي يخدّر الرجل ويجعله يشعر بأنّها تمتصّه، في النظافة، والطعام الذي يصل بآكله إلى نشوة المضاجعة. كلّ هذا جعل سلامة مشدودًا كالمنوّم إلى مجالستها حتى في حياة أبيه، ولو كان الأمر بيده لاختار المرأة التي تكبره بعامين وليس مسعدة التي تصغرها بخمس عشرة سنة. لكنّ مباركة لم تدع فرصة لاستمرار هذا الغموض. بعد أن وضعت أمامه الطعام، جلست بجواره وبادرته:

ـ ما تتجوّز مسعدة يا بو أحمد.

اصطنع سلامة الدهشة من اقتراحها، لكن كان من الواضح أنّه فكّر بالأمر، وأنّ مسعدة كانت تنتظر طلبه.

تزوّجا وصارت مباركة سرّ الاثنين، تثرثر معها مسعدة بأسرارها الحميمة، وتعقد مقارنة بين الأخوين، تتذكّر هذيانات عليّ في مقابل الأداء الهادئ لسلامة الذي يتصرّف في السرير باقتصاد وحكمة تصرّفه في المصنع.

ـ يا ختي تقيل قوي، كأنّها بيعة خايف ينغلب فيها.

لكنّها تستدرك بأنّها هي الأخرى كبرت، ولم تعد كما كانت، أمّا سلامة فكان يكتفي بجملة يمكن أن يقولها جادًّا لمباركة على انفراد، من دون أن يشعر بالإثم، أو مازحًا بها في حضرة مسعدة تدليلاً لها:

ـ كأنّي عمري ما عرفت جواز.

تستمع إليه مباركة باهتمام، جادًّا كان أو مازحًا، وتقول إنّها تعرف ذلك، وإنّها كانت تسأل نفسها دائمًا كيف يعاشر امرأة يكفي أن يشمّ الرجل رائحة فمها لكي لا يتوقّف عن الجري؛ فكيف برائحة فرجها!

بعد تسعة أشهر وضعت مسعدة عادل، تولّته مباركة. وأخذت تلوّح به للعرسان الشباب الذين تزوّجوا قبل سلامة ولم يبد على بطون زوجاتهم أيّ أثر للضجيج الليلي. وصار عليها أن تراقب عطيّة، التي اعتبرت المولود لعبتها، حتى لا تؤذيه.

عندما لاحت لها العشّ، شعرت نجيّة الحدباء برهبة لم تحسّها عندما تركها أبوها مع رجلين غريبين. أخذت تفكّر بصدمة اللقاء؛ من رحل؟ من بقي؟ هل سيتذكّرها من كانوا يجتهدون لنسيان وجودها وهي بينهم؟ تحجل أمام ابنتها على الزراعيّة التي صارت طريقًا مرصوفًا، تقف على جانبيه أشجار الكازورينا العتيقة نفسها، لكنّها هزلت وشاخت حتى إنّ بعضها لم يتبقّ منه إلّا جذوع قصيرة نخرها السوس. لاحظت أنّ الأشجار لم تعد تحجب قرص الشمس الذي بدأ في الغرق وسط حقول القمح الصفراء في البعيد.

فكّرت أنّها أيضًا تغيّرت. صارت عجوزًا، لكنّها عادت مع ابنتها، تعانيان إعياء لم يحجب جمال المرأة الأربعينيّة النحيفة، تحمل بقجة صغيرة كتلك التي خرجت بها أمّها من العشّ، تضمّها إلى صدرها.

استطاعت نجيّة الاهتداء إلى الدوّار بصعوبة؛ لأنّ العشّ بدت في ضعف حجمها يوم غادرتها. صارت طويلة مثل ثعبان بسبب الدور الجديدة المرصوصة صفًّا واحدًا على الزراعيّة، بعد أن كانت متضامّة بعضها على البعض الآخر في شكل دائرة.

عندما وقفتا أمام الدوّار توقّف العمّال بالمصنع عن الجلبة، يتأمّلون المرأتين اللتين تشبهان الحياة والموت. بصعوبة فهموا اللهجة الفلسطينيّة للسؤال وخرج أحدهم، وأشار إلى السراي، حيث تسكن العائلة.

ـ ساكنين مع الجنّ؟

تساءلت نجيّة، وسحبت ابنتها التي تحتضن بقجتها بقلق، تاركة وراءها العامل المبهور بجمال المرأة الشابّة.

وقفت أمام بوّابة السراي، تتذكّر يوم وصولها إلى المجدل، عندما ترجّلت عن الحصان بمساعدة زياد، تتأمّل مذهولة الدار التي رأتها في أحلامها مرارًا. أخذها الشيخ أبو شرخ من يدها مشجّعًا، لكنّ ارتباكها لم يكن بسبب الإحساس بالغربة، كما تصوّر، بل بسبب رعبها من دقّة أحلامها. الدار المترامية بطابقيها، بهذه الأعشاب والطحالب الدقيقة التي تنمو بين أحجار الجدران، حتى عشّ عصافير الدوري الذي تتدلّى منه أطراف قشّ فوق عارضة البوّابة العتيقة رأته من قبل في الأحلام.

كانت مسعدة في الحديقة تجلس وحدها على الدكّة. وعندما رأت الواقفتين على البوّابة تصوّرتهما شحّاذتين، دخلت لحظة وعادت إليهما برغيف مدّت به يدها بينما تتفحّص المرأة الصغيرة

التي لم تر شحّاذة في جمالها أبدًا. تجاهلت نجيّة يد مسعدة الممدودة بالرغيف، وأزاحتها من طريقها ودخلت. رأتها مباركة التي وقفت في الفراندة أمام باب السراي.

- نجيّة؟!

هتفت مباركة، باستغراب من يرى ميّتًا يمشي. وأخذ قلبها يدمدم. جعلتها وقفة الحدباء على الباب ترى كلّ حياتها مجتمعة في لحظة واحدة. ليس بينهما ما يجعلها تخشاها أو تفرح أو تحزن بعودتها، لكنّ رؤيتها أمامها فجأة شقّت قلبها على سالم الذي سافر فور تخرّجه مع الجيش المصري المحارب في فلسطين، وتذكّرت في اللحظة ذاتها منتصر. تعرف أنّ فلسطين دولة، صحيح أنّها ليست بحجم مصر، لكنّها دولة، وليس شرطًا أن تعرف الحدباء شيئًا عن منتصر، أو سالم، لكنّها جعلتها تتذكّرهما. ماذا يمكن أن يحدث لسالم هناك، وماذا لو كان العائد الآن منتصر وليست الحدباء ابنة عمّه، ربّما حملت إليها أخبارًا تزعزع سلامها، بعد سنوات طويلة من لهيب انتظاره، الذي أطفأته برائحة ذكر آخر من العائلة، لم يلبث أن تركها واختفى.

توقّفت نجيّة مكانها، بينما استجمعت مباركة تماسكها وهرولت تحتضنها. سحبتها من يدها، عبرت بها الدرجات الخمس التي ترفع الفراندة عن الحديقة، وتبعتهما المرأة الشابّة.

- بنيّتي زينة.

قالت نجيّة، فعادت مباركة لتحتضن الشابّة الجميلة بحميميّة أكبر، ونادت مسعدة الواقفة بالرغيف في يدها، وعرّفتها بالضيفة

التي غادرت العشّ عروسًا فاتها عمر الزواج، عندما كانت مسعدة مجرّد انتفاخ في بطن أمّها.

على الرّغم من الترحيب الذي لقيته نجيّة وابنتها من العائلة، لم تضع في اعتبارها أنّها جاءت لتبقى. فضّلت أن تتشارك مع زينة في غرفة واحدة كضيفتين، ستعودان فور تحرير فلسطين، محافظة على لهجتها الفلسطينيّة التي تبالغ في نطقها أكثر من زينة، معلنة تضرّرها عقب كلّ وجبة من أنواع الأكل التي تربك بطنها، لأنّها تعوّدت على الطبخ بزيت الزيتون.

ظلّت معلّقة بماضيها الذي لم يطّلع عليه أحد في العشّ، وتستطيع أن تخترع فيه ما تشاء. تحكي عن والد زينة، بعد أن اختصرت من عمره الحقيقي يوم زواجهما عشرين عامًا ملأت نهاراتها بالأحداث ولياليها بالمطاردات الغراميّة العنيفة، في أماكن لها أسماء لا يعرفها المصريّون تحت الزيتونة العتيقة وفوق التلّة، وأسماء غرف كالعلِّيّة والبرانيّة.

ـ يا ويلي! قدّيش كان فظيع!

تتوقّف، سارحة في البعيد كأنّها تتذكّر وقائع حقيقيّة، ثم تستأنف، بأسى، الحديث عن ولاداتها الأربع التي أثمرتها المطاردات: لم يعش منها إلّا زينة، إخوتها الصبية كانوا أجمل منها. ترى الفضول في عينَيْ مباركة انتظارًا للحديث عن الذكور، فتخرج كلماتها متبّلة بقليل من الأسى، عن الملائكة الثلاثة الذين كانوا يخرجون من رحمها إلى الحياة مبتسمين مع دفق من النور، ويموتون بعد ساعات من الولادة.

كانت القصص محبوكة إلى درجة أنّها، هي نفسها، كادت تصدّقها، منتشية بفحولة لم يمتلكها زوجها الشيخ، الذي دخلها في مرّة وحيدة أحسّت فيها بملوحة مائه عندما رشح من سلاح راعش وطريّ، لم يكن له من أثر إلّا لسعة تسلّل بذرته إلى رحمها، ولم يكرّرها مرّة أخرى، ورحل عندما كانت زينة ابنة عامين، حتى إنّها لا تتذكّره، وتنادي أخاها زياد أبًا، مثلها مثل أبنائه.

أجهشت، ومسحت دمعة تدحرجت من عينها. وقد عادت غريبة مرّة أخرى، تتذكّر عندما تدافعت نسوة بيت أبو شرخ لرؤية عروس الوالد، وما إن اقتحمت عيونهنّ جسمها الضئيل المشوّه في جلباب أسود مع مقطع من الشاش الأسود يلفّ رأسها، حتى تبادلن نظرات الرضا اليائس، وتقدّمن واحدة بعد الأخرى إلى نجيّة يصافحنها بعطف ويعرّفن بأنفسهنّ، ثم قدنها إلى العلّيّة حيث غرفتها مع رجلها. صعدت النسوة أمامها في كامل حليّهنّ بجلابيبهنّ المقصّبة بالخيوط الذهبيّة، وقد شعرن بإحباط جيش احتشد لعدوّ وهمي. لكنّها عرفت كيف تبدّد التعاطف الأقرب إلى الازدراء من وجوه كنّاتها اللائي عرفت بعد ذلك كيف تحملهنّ على احترامها، وإن لم ينادينها بالخالة كما تقتضي التقاليد. لم ترع أغنامًا في المجدل كما تصوّرت وهي تقطع الصحراء على ساحل البحر من رفح إلى المجدل، وباستثناء اختلاف البيت عن بيتهم في العشّ، لم تختلف الأعمال مع ما كانت تقوم به، من حلب وفرز للحليب وصنع الجبن، باستثناء أنّ جاموس العشّ صار في المجدل أبقارًا.

تستمرّ بين كنّاتها من الصباح إلى المساء. وبعد العشاء تتوجّه

إلى غرفتها مع الرجل الذي صار سعيدًا بوجود زوجة تخصّه، ويستطيع أن ينكشف عليها، بعكس الأبناء أو زوجاتهم اللاتي يستحي أن يناديهنّ عندما يشعر بالعطش أو بالجوع.

ـ عجيب! الزلمة بضرّط قدام مرته وما بقدر قدّام ابنه اللّي من صلبه!

يقول أبو شرخ ضاحكًا، بينما يحزّق ليتبع الضرطة بأخرى، وتردّ نجيّة بابتسامة مقتضبة، وتناوله جلباب النوم النظيف، ثم تضطجع في حضنه، تخدّرها أنفاسه المخضّبة برائحة التبغ واليانسون المميّز لشراب العرق المسكر.

كان يجد سعادته عندما تسأله عن الأشياء التي لم تعرفها في العشّ؛ فيستفيض لها في الشرح. وفي الليالي التي يكثر فيها من الشراب، كان وجهه يصطبغ بحمرة متألّقة، وعندما يستلقي بجوارها، يلتصق بها ويمدّ يده إلى نهديها، يتحسّس انتصاب حلمتين لا تختلفان عن غيرهما من حلمات تتمسّك بأهداب الشباب. ينزل بيديه الخشنتين على بطنها، يتلمّس تبلّلها، يتحرّك ما بين فخذيه بدفء لا يكفي لنسيان حدبتها وتجعّد وجهها، فيسحب يده ليطوّقها وينام، وتغفو بحضنه من غير أن يشعر أحدهما بالأسف. صار كلّ ما يطلبه أحدهما من الآخر هو الأنس والأمان، ودفئًا لا يأتي من الأغطية الصوفيّة الثقيلة. أشهر طويلة حتى عاد من حفل عرس قرب الفجر؛ كانت نجيّة في انتظاره كعادتها، أخذت عنه عباءته وأنامته. بدا وجهه تحت السراج المعلّق بالحائط كأنّه سينفجر، عروق رفيعة منتفخة بالدم تبدو من

تحت الجلد. لا أثر للتجاعيد في وجهه اللامع، أحسّت أنّها أمام ما يسمّونه «فورة الدم» التي تقصف الأعمار. شرعت تدلّك له جسمه، صدره، بطنه. خلّصته من ملابسه واهتدت إلى طريقة تصوّرتها ناجعة لتهدئة خفقانه الواضح. بلّلت قطعة قماش قديمة وأخذت تمسح وجهه، لكنّها رأت في سرواله، اهتزازًا أثار فضولها وتحوّل إلى رغبة لا تقاوم.

خلّصته من سرواله وبدأت في ملاعبته، وأخذ النائم يرفع رأسه حتى تصلّب في يدها. جلست عليه وأحسّت بقطرة مالحة في رحمها، وسرعان ما انطفأ. استلقت بجواره بلا حركة، تستمتع بإحساسها بالقطرة التي تلسعها بحلاوة عسل تغذّت نحلاته على زهر الليمون.

ـ ربّنا يخلّيك.

قالت ممتنّة، وهي تتحسّس بيديها وجه الرجل الذي ارتفع غطيطه بجوارها، ولم تعرف التجربة مرّة أخرى، لكنّها لن تنساها أبدًا بفضل زينة التي جاءتها كأفضل تعويض عن دمامتها.

أخذت مسعدة تنتبه لشرود العائدتين، تدفعهما دفعًا لتتحدّثا عن الظروف التي حملتهما إلى العشّ؛ فتحكي زينة كيف وصلتهم أنباء مذبحة دير ياسين، كيف اقتحم اليهود القرية وكيف استهدفوا النساء الحوامل.

ـ كانوا بتراهنوا. صبي ولا صبيّة؟ ويشقّوا بطن المرا.

تحكي بثبات كأنّها عاشت حياتها كلّها وسط الحرب، بينما

يرتسم على ملامحها ظلّ باهت للقرف أكثر من أيّ شيء آخر. تصمت قليلاً كأنّما تسترجع وقائع نسيتها.

ـ كان قصدهم يخوّفونا، بدّهم يانا نفلّ.

تقول نجيّة، لتمنح زينة فرصة للتذكّر، لكنّها توغل في الصمت، تحدّ بصرها كأنّها تريد أن ترى الغيب. كانت لم تزل في أيّام الحداد على زوجها الذي راح في المعارك ضدّ العصابات اليهوديّة، عندما بدأ نزوح سكّان القرى. توقّف أخوها أمام بيتها بالشاحنة المحمّلة بأثاث بيته، تجلس فوقها أسرته، وناداها لتركب معهم، لكنّها رفضت أن تترك بيتها؛ فحمل الصبي وطوّح به فوق الشاحنة، ليستقرّ بين أسرته.

ـ خلص يا زينة رياض معنا، ابقوا الحقونا ع سوريا.

ركب زياد إلى جوار السائق وانطلقت الشاحنة، لكنّها لم تلحق بهم، ولم يكن بيدها أن تختار المكان الذي ستلجأ إليه. بعد أسبوعين دخلت القوّات المصريّة المجدل، وأخذت في ترحيل السكّان حتى لا يكونوا عبئًا على المقاتلين. جاء صفّ من الشاحنات، تمتلئ الواحدة منها وتمضي. وجدت نفسها مع أمّها في عربة انطلقت إلى رفح، وبدلاً من البقاء في المخيّم الذي أُعدّ على عجل، أخذتها نجيّة وعادت بها إلى العشّ.

ـ منشوف أخوالك ومنرجع بعد ما يطردوا اليهود.

كانت مثل كلّ النازحين، لا تشكّ في أنّها سوف تعود بعد أسبوع على الأكثر. بعضهم حمل مفتاح بيته، والبعض تركه في

المكان الذي اعتادته العائلة: تحت العتبة أو في شقّ بالجدار أو تحت جذع زيتونة أو عنبة ليجده من يعود أوّلاً.

تأخّرت العودة، وظلّت زينة ملمومة على نفسها بحرج ضيف طالت إقامته، لا يرون في عينيها تعبيرًا إلّا عندما تتطلّع إلى الراديو الضخم فوق المدفأة المهجورة. كانت تصغي باهتمام عندما تسمع الإشارة المميّزة لنشرة الأخبار، تجلس مع مباركة تتسقّطان أخبار المعارك، بعد أن توقّف سلامة عن إدخال الجريدة إلى السراي.

كان يعود بجريدة الأهرام كلّما سافر إلى مدينة. وكانت مباركة تواصل التقليب في الصحيفة بحثًا عمّا يطمئنها على سالم حتى تهترئ في يدها، لا تتركها إلّا عندما يزوّدها بعدد جديد. وعندما بدأت الأخبار تتوالى عن حصار الجيش المصري في الفالوجا لم يعد يأتي بالجريدة إلى السراي. ولم يتبقّ لمباركة إلّا متابعة الإذاعة التي لا تأتي بكلّ ما تنشره الجريدة. ولكنّها بدأت تبثّ أخبارًا عن تقهقر الجيوش وفرار مزيد من اللاجئين في كلّ اتّجاه.

أخذت مباركة تنتظر عودة ابنها، بينما تنتظر زينة ما هو أكثر من العودة إلى ابنها؛ تنتظر القصاص لأبيه، الذي قبّلت قدمه عند الفجر ليبقى فانحنى على رأسها، قبّلها وأزاحها بقوّة من طريقه، وعند الظهر عاد إليها جثّة. أصرّت على رؤيته عاريًا، لعقت بقايا الدم المتخثّر فوق ثقب ثديه الأيسر المحروق الحوافّ. لم تجزع من موضع الرصاصة النافذ إلى قلبه، ولم تبكِ إلّا عندما وضعت شفتيها على شفتيه وتيقّنت من جفافهما أنّه مات عطشان.

لم تصدّق زينة كلّ ما يُقال عن تأسيس دولة يهوديّة بموجب

وعد سماوي أو أرضي، متيقّنة أنّ الرجال البيض لم يغادروا أوطانهم الأجمل من فلسطين ويأتوا إلى هنا إلّا لكي يحرموها من غسّان. تقول هذا لمباركة، وعندما تلاحظ أنّها تتفحّصها بدهشة، تخشى أن تظنّها مجنونة؛ فتضيف آخر براهينها.

ـ إنت ما عرفتي شو يعني غسّان.

كانت مباركة تتأمّلها، لا شكًّا بعقلها، بل لتكتشف ما يربطها بهذه السمراء ذات العينين الزيتونيّتين غير غياب الابن. وعرفت أنّ الشابّة النحيفة، التي تبدو ملاكًا ماكرًا غافل خالقه وسرق فتنة شيطان، تشبهها في ميل البخت، كلتاهما وجدت الرجل الذي يستحقّ العشرة ثم فقدته.

عندما انسحبت الجيوش العربيّة وصدر قرار الأمم المتّحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين بين الفلسطينيّين واليهود، ضربت زينة صدرها.

ـ شو؟ طيّب وين صارت المجدل؟ بدولتنا ولّا دولتهم؟

تسأل أبناء أخوالها، فيؤكّدون لها أنّ العرب رفضوا التقسيم وأنّ الجيوش العربيّة ستحرّر كلّ فلسطين وتُعيد إليها أهلها. وعندما طال الانتظار بدأت تطلب منهم معرفة عنوان أخيها زياد، لكي تسافر إلى ابنها.

حاولوا أن يوضحوا لها أنّ سوريا دولة كبيرة، ولا يعرفون كيف يمكنهم معرفة مكانه، لكنّها لم تكن على استعداد لتسمع. فقط تملي طلباتها ثم تتساقط دموعها على خدّيها. وتقول إنّها ستذهب بنفسها للبحث عن ابنها.

بعد أن أعادها الخفراء في الليل أكثر من مرّة، وضع سلامة قفلاً ضخمًا على البوّابة، لكنّها عرفت كيف تقفز من فوق السور، فبدأوا يشدّدون الرقابة حولها، تتسلّق شجرة التوت الضخمة، وتهدّد بالقفز من فوقها. ولا يستطيع أحد غير مباركة إقناعها بالنزول. تأخذها في حضنها فتظلّ تنشج حتى تسكن وتنام.

وقفت مباركة في الفراندا تتأمّل الأطفال الصاخبين، برضى يغلّف جمرة الأحزان؛ لأنّ من تبقّى من أولادها انتقم لها من الموت، من دون أن يمحو الأطفال الجدد الألم على الراحلين الذين لا تكاد تميّز في حزنها عليهم بين أبناء بطنها وأبناء تفيدة ومسعدة، الذين عاشوا معها في الزقازيق أطول ممّا عاشوا مع أمّيهما.

صار واضحًا أنّ اكتشاف سلامة المتأخّر لمتعة الزواج لن يسفر عن طفل آخر بعد عادل، الذي جاء، في غير الأوان، مثل حبّة مانجو النسو. له عينا أمّه الصغيرتان الخضراوان، يحمله أينما ذهب. ولكنّ سباق الإنجاب بين الأزواج الشباب استمرّ، ليملأوا السراي بالأطفال ويُعيدوها كما كانت قبل الوباء.

كانت تتابع انتفاخ بطون الزوجات. تتلقّى على يديها المولود، وتسمّيه باسم واحد من الراحلين. باستثناء عادل الذي سمّاه سلامة

بنفسه، والطفلة الأولى لابنها محمود؛ التي أصرّ على تسميتها مباركة. تولّت بنفسها تسمية مولوده الثاني ناجي، كما سمّت لعبد المقصود أولاده: أحمد، يوسف، وعليّ وسمّت لكامل: منصور ومصطفى وسميحة.

لم تستغرب زوجتا عبد المقصود وكامل أنّ زوجيهما يناديانها «أمّي» لكنّ الزوجات الثلاث كنّ يستحين من تدخّلها في حياتهنّ الحميمة.

ـ مش ناقص إلّا تيجي تمسكيه بإيديك.

تقول زُهرة أبو جاموس زوجة كامل، مستقية ملاحظتها من مهنة أبيها المتخصّص في تلقيح جاموسات العشّ من فحله، تتندّر بأنّه لم يبق إلّا أن تمرّ الجدّة مباركة على الغرف لتضع رجالهنّ فوقهنّ، وتمسك الإحليل لتدخله بيدها كما يفعلون عندما يساعدون الفحل على اعتلاء الجاموسة. ولم تكن مباركة تضيق بمداعبة الشابّة البيضاء الفارعة، وأخذت هي الأخرى تداعبها بمخاطبتها بصيغة المذكّر، ليس فقط لجرمها الرجولي، ولكن لأنّها دخلت السراي بجوزة في جهاز عرسها، وتركت عريسها نائمًا يوم الصباحيّة ونزلت مبكرًا إلى الحديقة، أعدّت نارًا صنعت عليها كوب الشاي وجلست تدخّن المعسّل، وعوّدت الجميع على ذلك، حيث لا يمكن أن تبدأ شيئًا قبل هذه الاصطباحة. وكانت مباركة تحذّرها من تأثير ذلك على حملها.

ـ طيّب بلاش اليومين دول.

تحاول أن تجعلها تتفادى أيّام الخصوبة بعد الدورة. تعرف

أوقات حيض كلّ منهنّ، وتتفقّدهنّ في الموعد نفسه الشهر التالي.

ـ جاتك العادة يا بتّ؟

تسأل الواحدة منهنّ، فإن أجابتها بنعم، تقلب شفتها امتعاضًا، وفي أوّل فرصة تنفرد فيها بالزوج توبّخه على التقصير. وعندما تظهر على إحداهنّ أعراض الحمل تبدأ في تدليلها، وتنقل حصّتها من أعمال البيت إلى امرأة أخرى أو تتولّاها بنفسها. ومع كلّ صرخة ولادة كانت تشطب رقمًا من دينها لدى الموت.

لم تكن تكتفي باستعادة الراحلين بالأسماء فحسب؛ بل أخذت تستعيد طفولاتهم في الجيل الجديد، وتنتظر من كلّ منهم أن يتصرّف كما كان سلفه يتصرّف في طفولته. تندهش عندما ترى طيش منصور الجديد وعدم تركيزه، بعكس ابنها الذي لم يكن يتحرّك إلّا نادرًا، مركّزًا كلّ موهبته في رواية الأمثال، والتحدّث في طفولته كشخص بالغ. وتستنكر أن تطرق جارة باب السراي لتشكو أحمد بسبب ضربه ابنها، لأنّ أحمد الأوّل لم يشكُ أحد مرّة من اعتدائه على طفل آخر. يوسف الحفيد بدأ التحكّم في بوله قبل أن يتخطّى العامين؛ فظلّت مدّة طويلة تتحسّس فراشه متعجّبة من جفافه. يحيّرها جمود عينيه الخاليتين من أيّ بريق لشياطين عيني ابنها، لكنّها لم تُحرم من استمرار سلسالها؛ فقد ترك يوسف الأوّل جيناته التي ورثها عنها كاملة لعطيّة، التي ظلّت تبول في فراشها حتى اكتملت أنوثتها، وجمعت مثل جدّتها بين بلل الدم وبلل الماء، وصار بمقدورها في سنّ العاشرة أن تسحب وراءها طابورًا من الصبية المنوّمين، لا ينبّههم إلّا اصطكاك بوّابة السور في

وجوههم. وكانت مباركة ترى هذا، وتقارن الإعجاب المرتعد في عيون شباب جيلها مع الجسارة التي تجعل صبية هذه الأيّام يتبعون عطيّة من المدرسة إلى البيت، ويتشاجرون عليها بعضهم مع البعض الآخر بكلّ وضوح. تسأل نفسها: هل كانت أقلّ جاذبيّة من عطيّة أم أنّ الشباب صاروا أقلّ حياء؟

لم تتوقّف فتنة عطيّة على الغرباء، بل بدأت تثير الضغائن بين أولاد أعمامها الذين يصغرونها، وكان عليهم في الوقت نفسه أن يتّحدوا في مواجهة وقاحة الآخرين التي انتهت بكارثة.

تجرّأ ولد وكتب على سور السراي بحروف ضخمة «سراي الرمش اللي يدخلها ما ينحرمش». أزال أولاد الديب العبارة سريعًا، ولم يتعبوا في البحث عن صاحبها؛ لأنّه وقف في منتصف الليل يزعق:

ـ أركبك مرّة واحدة وأموت يا عطيّة.

لم يكمل الكلمة حتى كان أولاد عمّها يطوّقونه، وتقدّم منه منصور غارسًا سكّينًا في قلبه. أخذ الصبي الذي لم يكمل السادسة عشرة يتخبّط مثل دجاجة حتى سكن تمامًا. استدعى سلامة الشرطة بنفسه، حتى لا يتعرّض أولاده لانتقام عائلة القتيل.

جاءت اللوريات المحمّلة بالجنود تهدر وراء سيّارة مأمور المركز، الذي وجّه لومه إلى عمدة لم يتدهور الأمن في قريته فحسب؛ بل تورّط حفيده في جريمة قتل. تمّ دفن القتيل تحت حراسة قوّات الأمن، واقتيد منصور إلى الحبس في المركز، أمّا عطيّة التي رأت من شبّاكها الحادث؛ فقد أغلقت عليها الباب لمدّة

ثلاثة أيّام، لا تردّ على أحد ولا تفتح لتأخذ ما يتركونه على بابها من طعام. وعندما كسروا عليها الباب كانت مبلّلة على سريرها في بول الغيبوبة، بشعر مجزوز بغير انتظام كجزّة خروف، وعلى الأرض كومة شعرها سوداء مهوّشة. كسروا بصلة وحرّكوها أمام أنفها فعطست، فتحوا فمها وأخذوا يدلقون فيه ماء بالسكّر حتى بكت.

بمجرّد أن استردّت لونها عادت أكثر فتنة ممّا كانت، على الرّغم من فروة رأسها المكشوفة. صارت تقف بالساعات أمام المرآة بحقد من يتطلّع إلى عدوّ. وفي كلّ مرّة تنهي وقفتها بتبديل ملابسها، من سيّئ إلى أسوأ.

ـ مش باقي غير تخيطي لنفسك خيش.

تقول لها مباركة، التي تراها تزداد حسنًا كلّما أمعنت في محاولات إخفاء جمالها، محاولة أن تعلّمها كيف تتقبّل قدرها.

رابطت عربات الأمن عدّة أشهر ذكّرت المعمّرين بمرابطة الهجن أيّام حظر التجوّل التي أعقبت سرقة بهائم مزارع العائلة الخديويّة في أنشاص، واستحالت حياة العشّ إلى جحيم، لا يستطيع أحد أن يخرج إلى حقله مساء لريّ الأرض، حتى صار إنهاء الخصومة مطلبًا لجميع العائلات التي تدخّل كبراؤها بالضغط والتوسّل لإتمام الصلح بين العائلتين، حيث دفع سلامة فدّانًا دية للقتيل، وعاد منصور إلى مدرسته بعد سنة قضاها في إصلاحيّة الأحداث.

عندما انتهت القضيّة بكلّ ذيولها، عاد سلامة إلى منصبه إكرامًا

لشقيقه سالم، وقرّر تقسيم العائلة.

ـ كلّ واحد يدوّر على ميتة تسخن.

قال، بينما كان يتناول عشاءه بين مسعدة ومباركة، ولم تعقّب أيّ منهما. كان حادث القتل في حساب الرجل الذي بدأت علامات الشيخوخة تظهر عليه، لكنّهما كانتا تعرفان كذلك الصعوبات الماليّة التي بدأت تواجهه في تدبير شؤون عائلة استمرأ رجالها الرعاية، وظلّوا صغارًا، فوّتت إقامتهم في الزقازيق فرصة تعليمهم النسيج، ولا جلد لأحد منهم على أعمال الزراعة، بينما يكبر أبناؤهم وتزداد أعباء انتقالهم لمدارسهم يوميًّا.

وكانت أحوال المصنع من سيّئ إلى أسوأ. لم تمرّ لعنة الحرب حتى غرقت الأسواق بقماش المصانع الكبيرة، وأبقى سلامة على عمل المصنع كنوع من العناد، لكنّه بدأ يعوّض الخسائر ويغطّي حاجات الأسرة من بيع الأرض الزراعيّة. وجاءت حركة الجيش، لتثبت للأوروبيّين أنّ مصر بلد صناعي وليست مجرّد مزرعة قطن. أُمر الضبّاط بإقامة مصانع ضخمة للنسيج على الأراضي الزراعيّة الملاصقة لمدن تحوّلت فجأة إلى تجمّعات صناعيّة، وتعثّرت الأنوال الصغيرة في عملها. وكان تأميم المصانع الخاصّة الضربة الأخيرة، حيث احتكرت الحكومة تجارة وتصنيع القطن، وأصبح وجود كيس قطن واحد في غير أيّام جمع المحصول جريمة تشبه تجارة المخدّرات. رفض سلامة عرض التوظيف عاملاً في أحد مصانع الحكومة، مثله مثل أيّ من عمّاله، واختار بدلاً من ذلك تجارة القماش الذي صار يأتيه كتموين بدلاً من حصّة الغزل. اقتطع

بضعة أمتار من سور السراي بنى فيها متجرًا صغيرًا، بينما أغلق الدوّار ودار مباركة على الأنوال التي تراكم فوقها العنكبوت.

سافر لزيارة سالم في القاهرة لمدّة ثلاثة أيّام، كانت كافية لكي يفتح الأولاد الدارين ويفكّكوا الأنوال في غيابه. وعندما عاد كانوا قد شرعوا في فتح النوافذ التي أُغلقت، وإقامة الحوائط التي تمّ رفعها عند تأسيس المصنع. لم يتمالك نفسه وهو يتفقّد المكان، بينما يتردّد في أذنيه ضحك وغناء جيلين من العمّال، وأصوات الأنوال التي يلقمونها الخيوط وهم يديرونها بأقدامهم مثل السحرة في السيرك، لكنّه عاد من عند سالم بحزن آخر.

كان عالم سالم يتقوّض مثل عالمه. لم يعد يحتمل الإقصاء الذي يُعامل به منذ نشوب الخلاف بين الضبّاط حول طريقة إدارة البلاد، بعد حركتهم التي ما لبثت أن حملت اسم «ثورة»، وكان مع الضبّاط الذين يرون ضرورة عودة الجيش إلى ثكناته، لكنّ المتشدّدين انتصروا، وأُقصيت القيادات المؤيّدة للّواء محمّد نجيب، بينما تركوا يوسف وأمثاله من صغار الضبّاط وقت الحركة في الخدمة، من دون أن يمنحوهم الثقة مرّة أخرى.

بعد انتهاء التعديلات قسّم سلامة الدوّار بين محمود وعبد المقصود، بينما انتقل كامل إلى دار مباركة. واستراح لإبعاد الجيل الجديد عن السراي؛ كي يتحمّل كلٌّ منهم مسؤوليّة عياله. ولم يبق في الدوّار إلّا هو ومسعدة وعادل، ومباركة مع عطيّة، والحدباء وابنتها زينة اللتان يُشار إليهما باسم «الفلسطينيّة البِشعة» و«الفلسطينيّة الحلوة» حيث لم تُبْقِ الكوليرا على الكثيرين ممّن

يتذكّرون خروج نجيّة من العشّ، وليس هناك من يصدّق أنّ السمراء الجميلة يمكن أن تكون ابنة هذه الحدباء.

خفّت الضجّة في السراي بعد أن خرجت منها الأسر الثلاث.

وأخذ سلامة يغالب النعاس، عمدةً منسيًّا في دكّان القماش، بعد أن أعادت حركة الضبّاط حالة المساواة التي عرفتها العشّ بالتراضي لقرون عدّة، لكنّ المساواة هذه المرّة كانت تفوح منها رائحة الثأر. لم تعرف العشّ الإقطاع الذي عامل الفلّاحين كعبيد، إلّا أنّ فقراءها نالوا من أرض الوسايا التي صودرت على تخومها بقانون الإصلاح الزراعي؛ فلم يعد هناك من لا يملك أرضًا يزرعها لنفسه.

لم يتصرّف سلامة كسلطة في يوم من الأيّام، إلّا أنّ الكثيرين سرّهم أن يروا العمدة بلا صلاحيّات، مع أنّ المنصب الشرفي ظلّ محجوزًا له ولأخيه محمود من بعده، بفضل ما تبقّى من هيبة سالم. هذه الحماية المستمدّة من حركة الجيش هي التي أبقته في منصبه رغم جريمة حفيده، وهي نفسها التي كانت مصدرًا للنيل من هيبته؛ إذ كان هناك اعتقاد بأنّ الضابط الشابّ جمال عبد الناصر الذي أزاح الرئيس نجيب من منصبه موجود في كلّ مكان من أرض مصر، ويستطيع أيّ شخص أن يصل إليه، إلى درجة أنّ تلاميذ المدارس يراسلونه فتأتيهم صوره ممهورة بتوقيعه، وصار حاضرًا دائمًا في رهانات الصغار والكبار.

ـ لو كان أبوك جمال عبد الناصر...

يقول أحدهم قبل أن يطرح التحدّي على الآخر، مثل قفز

الترعة أو دقّ وتد في المقابر ليلاً، أو أكل حفنة من الفليفلة الحارّة. ولم يكن اللعب بالكرة يحلو للصبية إلّا أمام دكّان سلامة، وعندما يركلها أحدهم وتصطدم بوجهه وتوقظه من غفوته يثور عليهم، ويحتجز الكرة مهدّدًا بشقّها بالسكّين.

ـ لو شاطر شقّها، هبعت للرئيس جمال أقوله إنّك بتشتم عليه.

يقول الولد صاحب الكرة متحدّيًا عندما يهدّده سلامة بتمزيقها؛ فيلقي بها إليهم، ويضحكون عندما يرون الخوف الحقيقي في وجهه.

كلّما أوغل في السنّ كان يرتدّ طفلاً خائفًا، تُعرض عليه الخلافات فينهيها لصالح صاحب الصوت الأعلى، وإذا شكا له أحدٌ أيًّا من أفراد عائلته يبادر بالاعتذار وتقبيل الرأس قبل أن يستمع إلى الشكوى، حتى بدأ الأولاد يتململون لإحساسهم بتدهور مكانة العائلة على يديه، وخاصّة عادل الذي صار له القوام المعتزّ الذي لأمّه، وصارت تنازلات الأب الخرقاء تؤلمه. أجبره الأولاد على الاستقالة، وفتح مأمور المركز الباب أمام من يريد أن يتقدّم بطلب، لكنّ النتيجة انتهت بتعيين محمود مكانه.

أصبحت كلّ امرأة من النساء الأربع المتبقّيات في السراي تعرف المطلوب منها منذ استيقاظها. لم تعد هناك أموال فائضة لكي يدفعنها لواحدة تساعد في البيت. ولم تعد هناك ضرورة لاستخدام نساء في المساعدة كما كان في السابق؛ لا ضيوف من التجّار الغرباء ولا عمّال مصنع.

ينهين أشغالهنّ، يفطرن مع سلامة قبل أن يخرج إلى الدكّان، ويجلسن لرتق ثوب أو غزل الصوف من جزّة الأغنام، بينما تتولّى نجيّة تعليمهنّ كيف ينسجن اللفحات والسترات لأبنائهنّ، محاولة ما أمكنها دمج زينة فيما يجري حولها، من دون جدوى، حيث واصلت المرأة الشابّة عزلتها، لا تتحدّث إلّا مع ابنها الغائب.

انضمّت إليهنّ زينب التي عادت غاضبة، عندما دخل عليها وفيق عصفور بامرأة تبدو مثل نشّالات الأسواق اللائي يُشمّمن ربّات البيوت البنج وينشلن مصاغهنّ. أحسّت بالإهانة لأنّ المرأة

بوجهها الطويل مثل وجه حمار، وعينيها الغائرتين وصدرها الصغير مثل عضلات رجل، تمثّل أسوأ إساءة إلى أنوثتها.

ـ بسّ لو تستاهل!

لم يكن ما قالته زينب متحسّرةً مجرّد ردّ فعل غاضب. كانت تتمنّى من كلّ قلبها لو كانت فردوس التي يدلّلها «دوسة» جميلة.

ـ اعتبريه مات.

حاول سلامة أن يقنعها بالعودة إلى بيتها، لأنّها أمّ الأولاد. لكنّها رفضت، على الرّغم من أنّها لم تعتبر وفيق موجودًا في يوم من الأيّام. وكانت سعيدة عندما استقرّ في القاهرة بعيدًا عنها، لأنّها لم تتمكّن من إطعام أبنائها قطعة لحم أو ثمرة، إلّا بعد أن ذهب. ولم يتمسّك أخوها برأيه، قال إنّهم لن يضيقوا بأولادها، لكنّه كان يرى أنّ الأكرم لهم أن يتربّوا في بيت أبيهم. وذكّرها بأنّه لم يكن يريد تزويجها له.

لم تكن بحاجة إلى الكثير من الوقت لتعرف لماذا كان سلامة يعارض تزويجها منه، لكنّها مثل أخيها تخشى الفشل، لم تتحدّث من قبل عن متاعبها، مصرّة على النجاح رغم أنّها اكتشفت بالفعل أنّه النسخة الأسوأ من أبيها.

ـ أبويا ع الأقلّ ما كانش بيخرّف.

قبل أن يدخل بها لم تكتشف شراهته وجحوده، وتصوّرت أنّ نهمه الشديد للكلام، والإعادات المملّة للحكاية الواحدة عشرات المرّات، كان حبًّا لها ورغبة في مواصلة الحديث، دون وجود

موضوع لذلك، لكنّها اكتشفت بعد ذلك أنّ نهمه للطعام دون إحساس بشبع أو اعتبار لغيره، هو نفسه نهمه للكلام بدون توقّف أو إحساس بأنّه قال الشيء مائة مرّة. وإذا تحدّث أحد غيره يعطيه انطباعًا بأنّه بلا أذنين، يحدّق نافد الصبر حتى ينتهي المتكلّم ويكتشف أنّه لم يسمع شيئًا ممّا قال.

ـ والحاجات التانية، ولّا مقضّيها أكل وكلام؟

تسألها مسعدة مازحة، لكنّ زينب التي أخذت عن أمّها ملامحها الشهيّة، كانت جادّة أكثر من اللزوم، ترفض الخوض في «الكلام الفارغ». نسيت كلّ ما لقّنته لها أمّها عن الفراش قبل الزفاف، ثم نسيت ما تعلّمته منها عن الطبخ مع رجل شره يبتلع ما يقابله، من دون أن يتذوّق.

بدّد كلّ ما ادّخره أبوه على نفسه وحصانه؛ شعير، ولحم وحشيش، ثم البيرة التي كان أوّل من أدخلها إلى العشّ، والملابس الإفرنجيّة التي يصرّ على ارتدائها. وعندما سافر إلى القاهرة فيما يشبه الهروب لم يترك لأبنائه الأربعة وأبويه سوى الحصان، باعه عبد الرازق واشترى به فدّانًا، كان سعيدًا بأنّ له شيئًا في الغيط، حتى لو لم يحسن زراعته، يحسّ أنّه الصلة والمبرّر الوحيد لبقائه في قرية.

تعلّمت زينب الخياطة، واشترت ماكينة، صارت تنفق منها على أبنائها وحمويها، وعندما أنهى أبناؤها الثلاثة الكبار المدرسة الابتدائيّة في العشّ وبدأوا يسافرون إلى بلبيس، ولا تجد أجرة مواصلاتهم، تذهب إلى السراي مبكرًا قبل أن يستيقظ أبناؤها، تطرق شبّاك سلامة برفق، فيناولها ما تريد.

كان معجبًا بإصرار أخته على النجاح طوال اختفاء وفيق، لكنّه لم يشأ أن يضغط عليها لتواصل العيش مع ضرّة وتتحمّل سخافات تصرّفات الاثنين اللذين لا يحلو لهما الهراش إلّا وسط الجميع مثل الكلاب.

ـ طول الليل تضحك كأنّه بيزغزغها، والصبح يفرشوا ويقعدوا رجلها على رجله.

تشكو بأسى؛ لأنّها تحمّلت زوجًا عاطلاً وجاحدًا، ولا يمكن أن تتحمّله مع ضرّة لا تقلّ عنه وقاحة. تنتظرها حتى تطبخ، وتدخل لتغرف لهما، وتُعيد الأطباق من دون أن تغسلها. تدخّن وتشرب معه، ويخرجان بمخلاة من زجاجات البيرة الفارغة يستبدلون بها غيرها من بلبيس، ويعودان، يحمل المخلاة في يد ويتأبّطها بالأخرى، يثيران انتقاد من يراهما، لكنّ المثير أكثر كان استمرار زينب في البيت وقبولها بهذا الوضع.

وكان محمود متمسّكًا بطلاقها حتى لو التزما اللياقة، بينما لم ير سلامة ضرورة لذلك، واضعًا في اعتباره أنّ الطلاق ليس في صالح مستقبل أبنائها، وخصوصًا البنتين.

ـ أختك مش عايزة جواز تاني، هتطلّق ليه؟

قال ليُسكت محمود عن الإلحاح على الطلاق، وأرسل في طلب أولادها وماكينة الخياطة، التي أحضرها حموها بنفسه، وصار يأتي يوميًا مع سكينة للاطمئنان على زينب. يترك زوجته مع النساء في السراي، بينما يقضي الوقت مع سلامة في دكّان القماش، يتذكّران أيّام التجنيد ويحكي كلّ منهما للآخر عن تجارته

وأحواله قبل أن تتدهور أوضاعهما، من دون أن يتعرّضا لتنافسهما الذي لم يصل إلى حدّ التصادم أو الإيذاء.

فرحت نجيّة بعودة زينب؛ لأنّها رأت أنّ وجود امرأة أقرب في السنّ من زينة يمكن أن يخفّف من صمتها، محاولة أن تدفع ابنتها لتعليم زينب تطريز الثوب الفلسطيني، الأحمر بخطوط زرقاء طوليّة، أو المطرّز بتعريجات مذهّبة على الصدر ونهايات الأكمام. ووجدت فتيات العشّ في هذه الجلّابيّات الفخمة حلًّا وسطًا ينهي حيرة المتعلّمات بين العودة إلى الجلّابيّات الفلّاحيّة ذات السُفرة المكشكشة عند الصدر، وفساتين المدينة التي تظلّ محلّ غمز بين الفلّاحات.

ـ بنت بارم ديله طلعت من توبها!

يشرن إلى من تتمرّد على الجلّابية مهما وصلت في التعليم والوظيفة. ولذلك لقيت الجلّابيّات رواجًا جعل زينب غير قادرة وحدها على تلبيته، وبعد أن كانت الفتيات يشرن إلى الأثواب بشكلها: المخطّطة أو المطرّزة، صرن يطلبنها بالاسم المجدلي «جنّة ونار» و«عشّ البلبل».

لم يشعر طٰه، الابن الأكبر لزينب، بأنّه في بيته، على الرّغم من ملاطفات الجميع له ولإخوته. بقي منزويًا يملأه إحساس باليتم، وكثيرًا ما يوجّه ملاحظات إلى إخوته وخصوصًا بديعة.

ـ إحنا مش في بيتنا، كلي بالراحة.

تضحك الفتاة الصاخبة، وتحكي ما قاله طٰه وسط الجميع، فيحمرّ الولد الذي ورث عن أمّه عينيها السوداوين، وينكمش على

نفسه أكثر. تريه أمّه النقود التي تكسبها، لكنّه لم يتخلّص من وضع الضيف حتى صار خيالاً يكاد لا يُرى. يعود من مدرسته مع أختيه، تضع له أمّه ليأكل منفردًا، لأنّها ترى كيف يتألّم عندما يجلس على المائدة بين الآخرين، لكنّه مع ذلك لا يأكل إلّا القليل، ويشرع في المذاكرة في أيّ ركن من الحديقة، وينام مبكرًا، رافضًا الاختلاط بأبناء أخواله. ثم قرّر أن يأخذ بديعة ونجاة ويعود إلى أبيه، تاركًا فاروق الصغير مع أمّه.

لم يعارضوه، ورجته أمّه ألّا ينقطع عنها، وألّا يتحمّل، أو يجبر أختيه على تحمّل ما لا تريدان تحمّله. بدأت الدماء تجري في وجه طٰه الذي ترك الشعرات القليلة النابتة في ذقنه، وبدأ المواظبة على الصلاة من دون أن يتخلّى عن كآبته، ومن غير أن يعود إلى أمّه بتفاصيل ما يجري في بيتهم، لكنّ البنتين كانتا تنقلان لها الأخبار يوميًّا، وتقضيان معها وقتًا أطول ممّا يقضيه طٰه.

بعد أن نفدت نقودها بدأت فردوس مشاجرات مع وفيق، يتبادلان فيها أسوأ السباب. ورأت أمّه أن تساهم في التعجيل برحيل المرأة الصفيقة التي جعلتهم فرجة في العشّ منذ وصولها.

ـ جمّدي قلبك وسيبي عليه العيال هو والصايعة بتاعته.

همست سكينة. ولكنّ زينب تعلم أنّه لن تهتزّ فيه شعرة لو انقطع الأولاد عن مدارسهم.

ـ طفّشيها هيّ، جرّبي بسّ ما تغسليش هدومهم.

نفّذت زينب الوصيّة، وطلبت من أولادها ألّا يحملوا ملابسهم

المتّسخة إلى السراي، وأن يخبروه بذلك. وجاء مفعول الوصيّة أسرع ممّا قدرتا. عندما طلب من فردوس أن تغسل ملابس أبنائه، صرخت فيه أمامهم:

ـ قالوا لك عنّي خدّامة يا روح أمّك؟!

اشتبكا بالأيدي وألقى عليها يمين الطلاق وحملت أشياءها ومضت. طلبت سكينة من زينب العودة إلى بيتها لتوفّر على أولادها الحيرة بين البيتين. وطلب عبد الرازق من سلامة التدخّل لإلانة رأسها. ووافقت زينب بشرط:

ـ حدّ الله بيني وبينه.

حرّمت عليه أن يقترب من غرفتها التي وضعت فيها ماكينة الخياطة. وبعد أن كبر أبناؤها طلبوا منها أن تستريح، وأخذها طٰه إلى الحجّ، وعادت تقضي أوقاتها على السجّادة تصلّي وتسبّح، وبعد سنوات طويلة كان أحفادها يتجمّعون حولها، ويسألونها إن كانت تدعو لجدّهم في صلاتها، تلمع عيناها بالغضب.

ـ عمري ما عملت ذنب إلّا الدعا على المفحور الوسخ ده.

يضحكون وينبّهونها إلى أنّ الله يُبيح للرجل أربعًا، وجدّهم لم يتزوّج إلّا واحدة إضافيّة.

ـ غلط، كان لازم حدّ يشور عليه في الحكاية دي.

تردّ بحرقة؛ ثم تنهرهم وتطلب منهم ألّا يجرجروها إلى الخطأ مرّة أخرى، لأنّهم ينصرفون إلى نومهم ويتركونها تصلّي وتستغفر طوال الليل.

عندما عاد العقيد سالم الديب من اليمن ملفوفًا في علم شارك في تغيير لونه الأخضر إلى ألوان الموت؛ الأسود والأبيض والأحمر، أشارت الحاجّة مباركة بيدها للفرقة العسكريّة لتقف بعيدًا عن الصندوق، رافضة أن يتولّى الجنود إنزاله إلى القبر.

ـ عملتوا اللي عليكوا وموِّتّوه. خلّوا الدفن علينا.

صرخت فيهم، وتعرّضت في فتحة القبر. أمر قائد «نوبة الرجوع» جنوده بالتراجع. وأشارت إلى لحّاد العشّ الأعرج المذعور من النجوم اللامعة على أكتاف الضابط.

ـ انزل يا شيخ مختار.

أمرته وأفسحت له مكانها. جرجر الشيخ رجله الضامرة، وانزلق إلى عين القبر. أشارت الحاجّة إلى أبنائها فتقدّموا لإخراج الجثمان من الصندوق.

لم تنجح إحدى وعشرون رصاصة أطلقها الجنود تحيّة للشهيد في إقناعها بأنّها في عرس. وبعد انتهاء المراسم التي تحمّلتها على مضض، أشاحت للجميع بيدها:

ـ يالله بقى، سيبوني معاه شويّة.

لم تدع معها إلّا زينب وخركليا، مع الصبيّين نجيب وجمال. وظلّت حتى غابت الشمس تحكي له كلّ ما حدث في غيابه؛ كلّ ما لم تجد وقتًا لتطلعه عليه في زياراته السريعة التي كان يقوم بها دون ترتيب، عندما يجد نفسه متوجّهًا إلى معسكر أنشاص، ويأمر السائق بالانعطاف نحو العشّ.

أطلقت على سالم كلّ ما حبسته من دموع في مناسبات الموت والغياب التي فوّتت فرص البكاء فيها كبرياء. وأخذت تنثر التراب في وجوه النسوة الصامتات كي يشاركنها البكاء.

ـ عيّطوا يا وساخة على اللّي خلّاكو بني آدمين.

في العزاء جلست بجوارها سكينة، بخمار على وجهها فرضه عليها حفيدها طٰه، كما فرضه على زينب وأختيه. أخذت سكينة تلاحق دموع مباركة بمنديلها، بينما قالت بديعة من تحت خمارها تواسي جدّتها:

ـ وحّدي الله يا ستّي، النبي مات، إحنا هنعيّط على نفسنا ولا ع النبي؟

جمدت الدمعة في عين الحاجّة مباركة، وردّت بغيظ:

ـ النبي؟ يعيّطوا عليه أهله، أني بعيّط على ابني يا قليلة الحيا.

أخفت المعزّيات ابتساماتهنّ بالطرح السوداء، وتمتمت بعضهنّ بالاستغفار والدعاء إلى الله ألّا يؤاخذ المرأة الحزينة. وجلست سكينة صامتة دقائق، ثم ربتت على يدي مباركة وانصرفت، ولم تعد إليها مرّة أخرى طوال أيّام العزاء.

لم تتوقّف عن البكاء حتى جفّت عيناها، وعندما حملوا إليها النياشين، رفضت إدخالها السراي.

ـ عندنا نحاس يسدّ عين الشمس، مش عارفين نودّيه فين.

قرّروا لها منحة حجّ مع أرملته، تكريمًا للشهيد. قالت إنّها حجّت مع الغالي ودلّلها هناك، وأطعمها ما لم تأكله في حياتها، وليس هناك ما يدعو لكي تعود ثانية. حاول أحفادها إقناعها صرخت فيهم:

ـ أروح تاني ليه يا ولاد، هو أنا حشّيت زرع ولا سمّمت بهايم مين؟

الأرملة أيضًا لم تكن بحاجة إلى هذا التكريم، استغربت أنّهم لا يعرفون أنّها مسيحيّة.

عندما قرّر سالم أن يتزوّجها، اشترط عليها شرطًا واحدًا: أن تقبلها مباركة. اصطحبها إلى العشّ. رفعت له مباركة إبهامها استحسانًا عندما خطت خركليا أولى خطواتها بعد بوّابة السراي. قالت له بينها وبينه إنّها رأت الأوروبيّات للمرّة الأولى عندما ذهبت إلى بلبيس لشراء جهاز عرسها، ورأتهنّ بعد ذلك في الزقازيق، وإنّ من رأتهنّ لم يعجبنها بنحولهنّ الرجّالي والزغب الذي يتركنه على

أجسادهنّ، متعجّبة من العروس الممتلئة بطولها الفارع وعينيها الحوراوين، وشعرها الأسود السابل حتى مؤخّرتها.

ـ تعرفي أنّ اسمها يعني سعيدة باليوناني؟ بس يا خسارة، نصرانيّة.

قال ممازحًا كي تتوقّف عن مديح الفتاة، فأجابته زاجرة:

ـ خسارة إيه يا خايب، كلّها سكك لربّنا.

حكى لخركليا ما قالته أمّه. فأخبرته أنّها هي الأخرى أحبّتها من كلّ قلبها، ولو تركها هو؛ فلن تنقطع عن الحاجّة. ظلّت تزورها أكثر ممّا يفعل سالم المشغول من حرب لحرب، حتى بعد أن أنجبت ولديها التوأمين، كانت تضعهما في السيّارة وتنطلق إلى العشّ، تقضي أيّامًا مع الحاجّة، لا تكفّان عن تبادل الحكايات. لم يبق لخركليا من أمّها ليتسا إلّا الصور، أمّا أبوها ماركو الصقلي فلا تعرف عنه إلّا اسمه المنسيّ في ورقة مطويّة. كان صديقًا لأمّها، تركته وذهبت إلى صديق آخر، قبل أن تكتشف حملها منه، ثم إلى ثالث قبل أن تضع خركليا. ولم تجد غير بائع بطاطا مشويّة قبل بتسجيل المولودة باسمه مقابل جنيه واحد، ولم تره بعد ذلك أبدًا.

ـ عشان كدا بحبّ البطاطا يا حاجّة، من ريحة بابا!

قالت ضاحكة عندما رأت أثر حكايتها في عيني مباركة، وأخذت تطلعها على صورها مع أمّها؛ شابّة تبدو أختًا لا أمًّا، كانت في الخامسة والثلاثين، عندما تزوّجت خركليا من سالم. عادت ليتسا إلى اليونان عندما استقرّ الضبّاط في الحكم؛ لأنّها لم

تعد تجد نفسها في الإسكندريّة، بعد أن بدأ أصدقاؤها الرجال في مغادرتها. هي شاعرة، أو هكذا كانت تقول، لأنّ خركليا لم تهتمّ أبدًا بما تكتبه، ولاحظت أنّه لم يكن يهمّ أصدقاءها أيضًا إلّا في أوقات التعارف الأولى. جميلة وباردة مثل أيقونة في برواز. تتنقّل بين الرجال بروح عاهرة سرعان ما يخذلها جسد القدّيسة. تجتهد في الأيّام الأولى، وتتصرّف بالشكل الذي تتخيّله لما يجب أن تكون عليه امرأة شبقة ترضي تطلّع الرجل، يمتدح كتابتها، لكنّها لا تلبث أن تسقط في الحزن، وتتصرّف على هوى جسد متأفّف ينكمش قرفًا من دنس السوائل. تهمل الرجل ويهملها؛ فتغرق في الشراب حتى تبدأ البحث عن آخر تلقي عليه شباكها بالمظهر المضلّل لقطّة هائجة.

ـ كنّا بنعيش في ستوديو، قوضة صغيرة وحتّة كدا يا حاجّة. وكنت أسمعها نايمة معاهم، ومش فاكرة من صراخها إلّا الألم.

تقول خركليا، بإشفاق يفسّر السرّ الذي جعلها تحلم بكلّ ما يناقض شخصيّة أمّها. من سنّ التاسعة كانت تقع في الحبّ مع أيّ شابّ. شرطها الوحيد في رجلها ألّا يكون شاعرًا. حلمها أن تكون سيّدة بيت، وتنجب عشرة أطفال تخدمهم مع أبيهم. جذبها سالم على باب السينما في محطّة الرمل بالإسكندريّة، كان بين اثنين من زملائه، وكانت مع صديقتها. راقبت مكانه، ولم تشاهد شيئًا من الفيلم لأنّها كانت مشغولة بمتابعته هو في الصالة المظلمة. وعند الخروج تلكّأت حتى حاذاها وغادرت مقعدها لتصطدم به وتقع حقيبتها.

ـ حركات مصريّة مكشوفة.

يضحك سالم، كلّما ذكّرته بحيلتها التي جعلته يلتقط لها الحقيبة ويردّها معتذرًا، ثم يخرجان معًا. وكلّما تواعدا بعد ذلك يقوى بداخلها اليقين بأنّه قدرها.

في زيارتهما الأولى للعشّ بعد الزواج، تلبّس مباركة خوف على خركليا من الموت؛ لأنّها تعتقد أنّ الدنيا لا تحتمل هذه الحدود القصوى من الفرح. تراقب بغبطة قلقة حفاوتها بسالم، وتشفق على ابنها من الألم الذي سيسبّبه رحيل الفرس الجريكيّة، ولم تتوقّع أنّه هو الذي سيرحل، بعد أن تفادى ثلاثة كمائن للموت؛ في الفالوجا عندما ضاعت فلسطين، وفي القاهرة عندما أخرجوا الملك، وفي بورسعيد عندما تحالفت إسرائيل مع إنجلترا وفرنسا لتأديب عبد الناصر.

ـ طيّب يهود ووكّسوكم، ملك وطردتوه، بتحاربوا مين في اليمن يا معفورين؟

تكلّم نفسها، وتسرح مع طيف ابنها، تتذكّر لحظة عودته من حرب فلسطين، دخل متسلّلاً بعد منتصف الليل، مثل سجين هارب. ترك لحيته وارتدى الجلباب، ولم يكن هناك من يستطيع أن يقنعه بالاستحمام وتغيير ملابسه إلّا عطيّة التي تناديه «بابا سا» تدسّها عليه أمّه. تدخل متعثّرة في كومة ملابسه النظيفة التي تحملها، تجلس على حجره وتتعلّق بعنقه وتتوسّله، وعندما لا يستجيب، تدفعه بيديها متأفّفة:

ـ ليحتك كُخّ بابا سا.

يتشمّم نفسه؛ فيكتشف أنّ رائحته لا تُطاق، يشعر بالخجل من الطفلة، يجري وراءها، يمسك بها ويحملها، تتململ بين يديه، يقبّلها عنوة ويتركها، ثم يحمل ملابسه ويمضي إلى الحمّام.

مكث في العشّ عدّة أشهر حتى جاءت عربة عسكريّة صغيرة، ترجّل منها ملازمان مثله، اختليا به في غرفته، ثم خرجوا إلى حديقة الڤيلّا، تركهما حتى حلق لحيته وارتدى بذلته العسكريّة، وتناولوا الغداء، وغادر معهما. بعد ذلك لم تتجاوز زياراته الساعات كلّ عدّة أشهر. وعندما أعلن الراديو عن قيام الجيش بحركته المباركة، كان سالم واحدًا من أصغر الضبّاط المشاركين فيها. لم يعرف أحد في العشّ حجم هذه المشاركة، ولا مدى قربه من اللواء محمّد نجيب، لكنّ مكانته تجلّت عمليًّا في تمهيد طريق العشّ ورصفه بالزفت، وبناء مجمّع ضخم للخدمات أُقيم على خمسة أفدنة تبرّعت بها العائلة، وحمل على بوّابته لافتة «مجمّع العشّ القروي» سيتحوّل بعد ذلك إلى «مجمّع الشهيد سالم الديب» ويضمّ مدرسة إعداديّة، وثانويّة، ومستشفى، ومركز شباب، وملعب كرة، ومبنى صغيرًا لماكينة نور، ومكتبًا للبريد، وصهريجًا للمياه النقيّة.

امتدّت الأسلاك لتضيء الشوارع، وصار بوسع من يطلب إضاءة بيته بالكهرباء أو إدخال المياه إلى داره أن يدفع الرسوم المطلوبة ويشترك، لكنّ أحدًا لم ير ضرورة لذلك، اكتفاء بأعمدة الشوارع وصنبور عمومي داخل المجمّع وصنابير المساجد التي صارت أربعة بالعشّ. لم يعرف الكهرباء والماء الذي ينزل من الصنابير إلّا بيت عصفور وسراي الديب.

زار البكباشي جمال عبد الناصر العشّ لافتتاح المجمّع، وكانت صورته وهو يتهامس مع سالم في سرادق الافتتاح أوّل وآخر الصور التي يحملها جدار في السراي. اختارت لها مباركة مكانًا بارزًا في البهو وأضافت شريطًا أسود على زاوية منها بعد موت سالم.

عندما أراد أحفادها تعليق صورهم وهم يتسلّمون جوائز تفوّق في مدارسهم، بعد ذلك بسنوات، منعتهم بحسم. بدأت تعتقد أنّ تعليق الصورة شؤم؛ لأنّه تمهيد للاختفاء، وبداية السير على طريق تحوّل الشخص إلى ذكرى. وصارت كلّ أمنيتها أن يبقى أولادها في العشّ، ولا يسافروا حتى لو كان من أجل التعليم، ورأيها أنّ ملاك الموت في العشّ مفهوم، لكنّها لا تضمن حياتهم في جهات يسكنها ملك للموت أقلّ حكمة، يضرب خبط عشواء، فيأخذ شبابًا في عمر الورد بضربات هوجاء: حادث قطار أو سيّارة أو في حرب لم يؤخذ رأي الولد فيها. كانت تنصح آباءهم الذين لم يعودوا يسمعون كلامها. وتتوسّل إلى خركليا، عندما تزورها مع ولديها، أن تبقى بهما في العشّ.

ـ غلبتم في أكلهم؟

تقول للآباء عندما ترى فرحتهم بعقد عمل لأحد أولادهم في الخليج، من غير أن تنتبه إلى تحوّلات الزمن، وإلى أنّه لم يعد من الممكن أن يبقى الأولاد بلا عمل، وأنّ ما تبقّى من الأرض لا يكفي لإطعامهم خبزًا. كلّ ما تعرفه أنّها لم تشبع من سالم.

لم يتمكّن عادل من تجاوز عتبة الثانويّة العامّة؛ ينجح في كلّ الموادّ باستثناء اللغة الفرنسيّة، التي يعتبرها الآخرون، بمنهجها الصغير عديم النفع، فرصة لتحسين المجموع العامّ لدرجاتهم، وكانوا يضحكون منه وهو يتحدّث بكلّ أسف:

ـ لو ما كانش الفرنساوي، كانت الثانويّة تبقى هزار في هزار.

قنع بشهادته المتوسّطة، وتقدّم لوظيفة ساعي بريد، لكنّه لم يوصل خطابًا واحدًا إلى صاحبه. يستلقي على كومة التراب بجلباب إفرنجي أنيق أمام مكتب البريد، وحيدًا صامتًا، أو يتّكئ بين قلّة من أصدقاء عاطلين يسوّون رقعة السيجة على التراب ويشرعون في اللعب، يتنقّلون مع الظلّ حتى تغيب الشمس، فيتفرّقون ويغلق هو المكتب ويعود.

إذا جاء من يسأل عن خطاب ينتظره يشير عادل إلى كومة

الخطابات على طاولة المكتب، ليذهب ويبحث بنفسه، وكان هذا أقصى ترويض تمكّنت منه مصلحة البريد، بعد عدد من التحقيقات والجزاءات بسبب شكاوى من إلقائه الرسائل في الشارع!

ـ مالكم إنتم ومال الدنيا؟

هكذا كان يردّ على احتجاجات المحتجّين، مؤكّدًا أنّهم سيفقدون السلام والتسامح مع بؤسهم، إذا ما عرفوا ما يجري هنالك في المدن، بعيدًا عن المواشي التي يعيشون معها تحت سقف واحد. وكان الآخرون يعتبرون أنّه البائس وليسوا هم، ويقولون إنّه كان بإمكانه أن يجني أرباحًا مضاعفة من القروش التي يمكن أن يمنحوه إيّاها، لو تواضع وقام بتوصيل الخطابات إلى المنازل. ولكنّهم كانوا يعرفون أنّ أيّة قوّة لن تستطيع أن تقنع ساكن السراي بالتنازل، حتى لو مات جوعًا.

كان الجوع آخر ما يمكن أن يحرّك عادل، المهمّ أن تكون ملابسه نظيفة، وفي جيبه قطعة حشيش يلفّ منها السجائر، بينما يرتفع صوته بالصياح كلّما كسب دورًا في السيجة التي تزوّج بفضل مهارته فيها. كان يلعب ضدّ عبد السميع الجحش، يتناوبان كسب وخسارة السجائر المحشوّة والسجائر الحاف، حتى تعادلا قرب غياب الشمس. واتّفقا على رهان أكبر لدور أخير.

ـ إذا كسبتني أجوّزك الفلسطينيّة الحلوة، إذا كسبتك تجوّزني بنتك.

فاز عادل، وعاد مع عبد السميع الجحش، ليرى ابنته سميرة التي لم يبرز نهداها بعد، وتبدو ببشرتها التي في لون عسل النحل

وعينيها الخضراوين مثل عينيه كما لو كانت أخته.

اندهشت الفتاة عندما أطلعتها أمّها على سرّ زيارة الضيف؛ فأخذت تتأمّل نفسها، بحثًا عن شيء لم تنتبه إليه. لم تظنّ أنّها في سنّ الزواج أصلاً. نهرها أبوها.

ـ إيه هتاخدي البكالوريا يعني!

وقالت أمّها إنّ ابن الديب مقبول ولو عريان، بينما خبطت عمّتها زكيّة صدرها قلقًا.

ـ دي عيلة معفرتة.

قالت بأسى، محاولة كسب زوجة أخيها في صفّها لإقناعه برفض عادل؛ حيث لم تزل تتذكّر خطوبتها العجيبة لعمّه ناجي، وانصرافه عنها ثم اختفائه الغريب. ولم تكن أيّ من المرأتين تعلم أنّه كسب الفتاة في رهان. بعد ليلتين كان عادل مع عمّه محمود يخطبان ابنة صديقه معتذرين عن عدم وجود الأب المتوعّك.

فرحت مسعدة لخطبة آخر عنقودها. تصحبه في زياراته لعروسه، لا تدعه يدخل بيد خالية أبدًا. إيشارب، علبة حلوى، فاكهة، أو قطعة قماش.

ـ فترة الخطوبة هيّ عزّ البنت.

تقول، عندما ترى نفاد صبره من تأخيرها له بحثًا عن هديّة كلّ ليلة. تؤكّد له أنّه وعروسه سيتذكّران فيما بعد هذه الأيّام الخالية من الهموم. تدلّل سميرة بالطريقة التي كانت تتمنّاها لنفسها عندما تزوّجت عليّ، وليس سلامة، الذي أطلق خروجها غيرة عليها

جعلتها تبتسم في البداية، وسرعان ما تحوّلت غيرته هوسًا.

ـ بتسهري مع عبد السميع البايظ؟

يحاصرها بالأسئلة، حتى توقّفت عن الخروج ملتزمة، مرّة أخرى، برفقة النساء الهاذيات بأحزان الراحلين والغائبين، لكنّ غيرة سلامة التي ألزمتها السراي تطوّرت إلى رغبة مجنونة. لا تستلقي بجواره حتى يشرع في التجرّد بصعوبة من ملابسه، ويطلب منها خلع ملابسها، متعثّرًا في الوصول إلى ثمرتها.

ـ ارفعي الرجل دي.

ترفع ساقيها اللتين لا تزالان متماسكتين، لا ساقًا واحدة، يردّ حانقًا، بينما يتعتع قدمه العالقة في اللحاف:

ـ مش رجلك، رجلي آني.

تتوسّل إليه أن يدعها تنام، يغضب ويستدير منطويًا على نفسه كجنين.

في الصباح يجلس على دكّته، يرى عادل خارجًا يستوقفه ليشرب القهوة معه، يتعلّل بتأخّره على المكتب، فيلحّ عليه. يتناول عادل منه فنجان القهوة التي لا يحبّها، ويبدأ في ارتشافها مرغمًا بينما يشرع أبوه بمقدّمات ينتهي منها إلى رغبته في إطلاعه على سرّ، لا يستطيع أن يبوح به لعبد المقصود ابن تفيدة، ولا يستطيع أن يكشفه مع كامل ابن عمّه عليّ. يقترب منه ويهمس:

ـ أمّك مخيّطاه.

يحمرّ وجه عادل ويبتسم.

ـ صلّ ع النبي يا حاجّ.

ـ مش مسدّقني؟ طيّب أنا موافق الحاجّة مباركة تكشف عليها.

ـ بلاش الكشف، أنا هتكلّم معاها.

وسقطا في صمت. رجاه ألّا يفاتح أحدًا، ووعده بأنّه سيناقش المشكلة مع أمّه، ومضى لا ينظر وراءه، ولم يعد إلّا مع صياح الديكة، بعد سهرته مع عروسه. مضى إلى غرفته متسلّلاً على أطراف أصابعه، حتى لا يحسّ به.

أخذ يتحاشى رؤية أبيه، وفي كلّ مرّة يتشجّع لمخاطبته، يعود ويتراجع. لكنّ أباه بدأ يترصّده ليسمع منه ردّ مسعدة. اضطرّ عادل أن يفاتحها. ألقى في وجهها بالكلمات محرجًا. ضربت صدرها خجلاً وهتفت:

ـ يا عيب الشوم، الراجل خرّف!

همس إليها راجيًا:

ـ عشان خاطري ريّحيه.

ـ يا بني، والله طول الليل يفعص فيّا، هو اللي ماعدش قادر.

أبلغه عادل بردّها ورجاه ألّا يعود إلى ذلك الاتّهام مرّة أخرى، حزينًا على لهجة التأنيب التي طبعت رجاءه لرجل لم يلق منه إلّا التدليل. يحاول تعزية نفسه بأنّه ربّما أخطأ بسبب الاضطراب والحزن على أبيه الذي ارتدّ طفلاً، يحتاج إلى من يؤنّبه على الغلط

والعيب، بعدما كانت كلمته سيفًا على رقاب الآخرين، لا يخطئ، ولا يتفوّه إلّا بما يُثير الفخر.

حاول لعدّة أيّام الاعتناء به، لترميم علاقتهما، لكنّه سرعان ما نسي، مشدودًا إلى عروسه التي بدأت هي الأخرى في تلمّس مشاعرها تجاهه.

أعجبها الاهتمام المفاجئ بها، غير مصدّقة أنّها صارت مركز الدار. بدأت تستلطف فكرة الزواج، سعيدة بالتحوّل بين يوم وليلة من طفلة يحاسبونها على المذاكرة ويعاملونها بجفاء، ويمنعونها من الجلوس مع الكبار، إلى سيّدة صغيرة، يحترمونها، ليس في الدار فحسب، بل في المدرسة؛ حيث كفّ مدرّسوها عن ملاحقتها بالتكليفات، حتى لو كان ذلك من باب استخسار جهدهم مع فتاة ستلزم البيت بمجرّد حصولها على الإعداديّة.

بدأت تستريح إلى عادل، وتتلمّس فيه شخصًا رقيقًا مختلفًا عن صورة المتكبّر التي يعرفها عنه الناس، وعمّا توقّعته من شبه بينه وبين أبيها الذي يبدو شخصًا غير مسؤول ويتركها وإخوتها، لا يسأل كيف تتدبّر الأمّ أمورهم وحدها. عادل، على الرّغم من مظهره كشابّ مدلّل، يستمع إليها ويزيد ثقتها بنفسها كفتاة ناضجة، يستشيرها في كلّ شيء، يتحدّث معها عن أحلامه بعدد الأطفال الذين سينجبهم، يسألها عن الاسم الذي تريده لمولودهما الأوّل.

يومًا بعد يوم أخذا يتعلّقان أحدهما بالآخر. ينتظرها أمام المدرسة ليعيدها إلى الدار، وتنتظر زياراته بعد العشاء، التي صار

يتملّص فيها من مصاحبة أمّه. يجلسان في حضور أمّها، حتى تنعس؛ فيبدآن في ملامسات حارّة، تؤجّج رغبات محمّصة عبر ساعات من النظرات والإيماءات المتشهّية. تفتح الأمّ المجهدة عينيها فتجد يده في صدر ابنتها أو يدها بين فخذيه. تغلق جفنيها متناومة؛ لتتيح لكلّ منهما لمّ أطرافه بعيدًا عن الآخر. يتباعدان، ويخفي كلّ منهما بقعة البلل في جلبابه ويشرعان في ثرثرة مضطربة، لا يفلحان في جعلها تبدو ممتدّة ولا في منحها أيّ معنى.

تفتح الأمّ عينيها المجهدتين، تسأل عن الساعة لتنبّهه إلى ضرورة انصرافه. يفهم سؤالها، لكنّه يتغابى ويجيبها من دون أن يتحرّك. تحاول المشاركة في حديثهما، لكنّها تنعس مجدّدًا ببقيّة الكلمة في فمها.

ـ أنا مش قدّ مسؤوليّة بنتك الصايعة زيّك.

تقول ندرات في الصباح لزوجها بضيق، لأنّها لا تستطيع أن تسهر في حراسة الفتاة بعد نهار من الشقاء في الغيط والبيت. وتتّهم عبد السميع بانعدام مشاعر الغيرة لديه، حيث عاد إلى السهر خارج الدار، تاركًا عادل، وكأنّه صار من أهل البيت.

ـ خلاص، نكتب الكتاب، وآخر يوم في الامتحانات يدخلوا.

ردّ عبد السميع بضيق. وعندما طلبوا من عادل تحديد موعد لعقد القران فرح للاقتراح الذي سيحرّره في علاقته بسميرة، لتصبح زوجته شرعًا.

قبل الموعد بأيّام جاءت إشارة استدعاء عادل للتجنيد. ذهب

إلى الفرز بالزقازيق، لكنّه لم يعد لعقد القران. تسلّم في اليوم نفسه مخلاته، ورُحّل إلى مركز التدريب.

كانت الأنباء تتوالى عن حشود عسكريّة إسرائيليّة على حدود سوريا، ولاحت حرب جديدة بعد أن أعلن عبد الناصر أنّ الهجوم على سوريا هجوم على مصر. غاب عادل أربعين يومًا، وعاد في إجازة قصيرة، شخصًا آخر، منتفخ الصدر، مشدود القامة، أسمر كفخّار زاد نضجه، حزينًا، وكأنّ قوّة سحريّة أفرغت عينيه من صلافتهما وملأتهما بتواضع مثير للشفقة.

ثمان وأربعون ساعة قضاها مشتّتًا بين خطيبته والعائلة التي يريد أن يشبع منها، تسامح حماه وتركها تصحبه إلى السراي، ساهمت في إعداد الغداء مع نساء العائلة، وعادل بينهم يتبع خطاها كلّما تحرّكت.

قبل أن يغادر، جاء مندوب سجّل بيانات الأسرة، والتقط صورًا للأب والأمّ. سأله سلامة، عن السبب.

ـ عشان المعاش، لو يعني. . لا قدّر الله.

ردّ الرجل بحرج، بينما كان رأسه لا يزال مخفيًّا في الجراب الأسود للكاميرا.

ـ بقى عندهم خبرة واستعداد، بسّ للموت.

تمتم سلامة، مغالبًا دمعة توقّفت على وجنته. تجاهل الزائر تعليقه، وطوى آلة التصوير، وضعها في حقيبته، ولمَّ حاملها تحت إبطه ومضى إلى بيت آخر، بينما تناول عادل غداءه بين الصامتين

كما في حلم. لم يرفع أحدهم يده إلى فمه، متأكّدين أنّهم يأكلون مع شهيد.

عانقهم واحدًا واحدًا. بكت مسعدة وسميرة متعلّقتين في رقبته، وبكت مباركة كما فعلت لحظة دفن سالم، وبكت زينة، كما لم تبك عندما قذف زياد بابنها ليستقرّ وسط كومة اللحم فوق شاحنة ذهبت إلى مكان لا تعرفه.

عاد الشباب من الجامعة، ولم تعد الحياة إلى السراي كالمعتاد في كلّ صيف، منذ شدّتهم القاهرة واحدًا وراء الآخر.

بعد عمّها سالم، كانت عطيّة أوّل من تجاوز الثانويّة في بيت الذيب، بتأخير سنتين، واحدة لم تتقدّم فيها للامتحان؛ السنة التي وقعت فيها جريمة القتل، وأخرى رسبتها في نهاية المرحلة بعد أن تحوّلت إلى نظام التعليم من المنازل، تاركة وراءها صبية صفّها الذين لم يتمكّن إلّا القليل منهم من النجاح، لأنّهم لم يكن بوسعهم سماع ما يقوله المعلّمون في الصفّ أو يروا في كتبهم غير صورتها، عندما يجلسون في الأمسيات للمراجعة، بينما لا يستطيع أحدهم أن يصارح نفسه بخيالاته حولها منذ وقوع الجريمة.

سبقت أكبر مواليد ما بعد الكوليرا إلى الجامعة بسنة قضتها في مدينة الطالبات. وعندما توالى التحاق الأولاد بالجامعة صار من الضروري استئجار شقّتين، واحدة للأولاد والثانية للبنات. كانت

آخر مهام عمّها سالم العائليّة، قبل سفره إلى اليمن، البحث عن الشقّتين في الطابقين الثاني والثالث من عمارة بالدقّي وتأسيسهما باللازم. سكنت عطيّة يوسف ومباركة محمود شقّة الطابق الثالث، ثم انضمّت إليهما سميحة كامل، وسكن الشباب شقّة الطابق الثاني، كي تكون عيونهم مفتوحة على الصاعد والهابط إلى البنات.

وكانت هذه الإقامة شديدة الإرهاق لعائلة واصلت بيع ما تبقّى من الأرض. وكان الأبناء يقدّرون ذلك؛ فإذا ما انتصف شهر مارس يعودون لقضاء شهرين في العشّ للمراجعة قبل الامتحانات. يصلون مع إزهار شجرة البرتقال الوحيدة المتبقّية في السور.

يعودون جميعًا إلى السراي، لأنّ من انتقلوا مع آبائهم إلى الدارين الطينيّتين تعاملوا معهما كما لو كانتا ثكنتين للمبيت فقط. يشيع وصولهم حالة من البهجة ويجدّد الحياة في المكان، لا يصلون حتى يشرعوا في كنس ما تبقّى من الحديقة وإشعال النار في القمامة، والتخلّص من الزجاجات وعلب الصفيح الفارغة التي تحتفظ بها النساء، ويمكن من عددها قياس حجم ما استهلكوه من سمن صناعي، تعتبر الحاجّة مباركة دخوله السراي عارًا، وتوصي مسعدة بالتخفّي والحرص كلّما ذهبت إلى البقالة.

ـ لو هاتجيبي لاندين إوعي حدّ يشوفك.

تُشبِّه السمن الصناعي بمبيد دودة القطن، متعجّبة من ضياع البركة، حتى إنّهم يسمّون هذا الشيء كريه الرائحة سمنًا. ولا تستحي أن تشمّ الكعكة التي تقدّم إليها، وتردّ اليد بلا خجل:

ـ ما باكلش اللاندين.

تأخّرت عودة الأولاد، حتى منتصف مايو، بعد أن غادر عادل إلى التجنيد. قضوا شهرين في انتظار عودة عطيّة التي اختفت مع نجّار استأجروه لإصلاح بعض الأثاث في الشقّتين. لم يعرفوا كيف أقنع النجّار طالبة الطبّ بالهرب معه، كيف تفاهم معها، وقد رافقه منصور وعليّ خطوة بخطوة وقت عمله في شقّة الفتيات، ومنحوه أجره وانصرف في وجودهم.

بعد أيّام من زيارة النجّار، خرجت عطيّة إلى محاضراتها كما تفعل كلّ يوم، لكنّها لم تعد. ذهبت مباركة وسميحة في كلّ اتّجاه للبحث عنها عند من يعرفن من زميلاتها فلم تجداها. مسح الشباب المستشفيات وأقسام البوليس؛ فلم يجدوا أيّة جثث لمجهولات أو بلاغات بجرائم غامضة. نظر سلامة مصادفة إلى مكتبها، فوجدوا إلى جوار رصّات الكتب المنظّمة رزمة عالية من الأوراق.

كانت خطاباتهم الرومانسيّة إلى عطيّة على مدى ثلاث سنوات، مرتّبة من الكبير إلى الصغير، على قمّتها خطابات أحمد عبد المقصود، وبعده منصور كامل، ثم يوسف عبد المقصود، فمصطفى كامل، ثم ناجي محمود وعليّ عبد المقصود.

فوق تلّ الخطابات تركت عطيّة رسالة مقتضبة، تخبرهم بزواجها من النجّار، وتطلب ألّا يتعبوا أنفسهم في البحث عنها، وأن يتابعوا حياتهم، لأنّ قلبها اختار. ردّ واحد على كلّ رسائلهم. لم يكن بينهم من لم يكتب إليها؛ ناجي ابن عمّها الوحيد، والباقون تقع منهم في مقام العمّة وبينهم من يصغرها بسنوات.

تبادلوا النظرات الكسيرة فيما بينهم وهم يتطلّعون إلى كومة

خطاباتهم، التي كانوا يدسّونها لها في مذكّراتها الجامعيّة، وفي أكياس الخضراوات عندما تتسلّمها منهم لتتولّى مع الفتيات طبخها، أو يطبقها أحدهم في يدها مع بقيّة النقود.

قرّروا أن ينتظروا، متعلّلين باستمرار المحاضرات، على أمل أن تنتهي نزوتها وتعود دون أن يدري أحد في العشّ بما جرى. لكنّها لم تعد، حتى صدر قرار بتعليق الدراسة بسبب أجواء الحرب.

لم يترك الغائب في الحرب مساحة للغائبة في الحبّ. الجميع آذانهم مع الراديو، يعدّون أنواع الأسلحة التي احتشدت في سيناء للمواجهة الحاسمة الأخيرة مع العدوّ. حتى جدّتها الحاجّة مباركة لم يبد عليها أكثر من تغيير لهجة أصابعها. كانت كلّما استمعت إلى النشرة تبدأ في تحريك الأصابع الأربع في كلّ كفّ مثل باب حول مصراع الإبهام. كان كلّ نبأ بمثابة نبش لقبر سالم، الذي يتضاعف فقده بسبب شوقها إلى الصبيّين، لأنّ خركليا بدأت تقلّل من زياراتها للعشّ.

عندما شرعت مباركة الصغيرة تحكي لها واقعة اختفاء ابنة عمّها، أعطتها أذنًا وواصلت بالأخرى الاستماع إلى الأخبار. كلّما تقدّمت الصغيرة في الحكاية ضاعفت الجدّة من سرعة أصابعها بالشلشلة، من دون أن تنطق.

اخترق صوت المذيع الجهوري أسماعهم معلنًا عن اندلاع المعارك وإسقاط مئتين وخمسين من طائرات العدوّ في الساعات الأولى من المواجهة، قفزت زينة ترقص، وأشرق وجه نجيّة بأمل

العودة إلى دير ياسين، وأمسك سلامة بيد مسعدة يطمئنها.

ـ عادل بخير يا أمّ كامل.

لم تعلّق الحاجّة مباركة ولم تتوقّف عن الشلشلة، إلّا عندما توقّفت الأخبار تمامًا، ولم يعد أحد يسمع عن تقدّم أو تقهقر، كأنّها أحسّت بأنّ الكارثة أكبر من قدرة أصابعها على التعبير. لكن لا هي ولا أيّ أحد آخر كان بوسعه معرفة الحجم الحقيقي لما سُمّي فيما بعد بالنكسة. حتى عندما ألقى عبد الناصر خطاب التنحّي، وأعلن تحمّله المسؤوليّة عن «كلّ ما حدث» لم يعرف أحد حجم ذلك الذي حدث. خرج سكّان السراي للمرّة الأولى بالراديو على المصطبة أمام دكّان القماش المغلق منذ سنوات، يستمعون إلى خطاب عبد الناصر يتصادى في الراديوهات الأخرى، وسط صمت الحشود محبوسة الأنفاس.

في الصباح بدأ زحف الرجال والشباب إلى الزراعيّة، يصادرون أيّة لوريات أو جرّارات زراعيّة تمرّ بالعشّ، يتدافعون فوقها، ويوجّهون سائقها إلى القاهرة للانضمام إلى الحشود المرابطة في الشوارع رفضًا لاستقالة عبد الناصر. استند سلامة على عصاه وخطا باتّجاه الشارع، تصوّروه خارجًا مع الزاحفين، لكنّه توقّف عند البوّابة، وجلس يلهث خلفها ليمنع أحفاده من الخروج.

ـ مع السلامة، هي أرواح الناس لعبة؟

لكنّه لم يكن بحاجة إلى إغلاق الباب. لم يقترب أحد الأحفاد من البوّابة ولو فضولاً، حتى الشباب والشابّات العائدين من القاهرة. قلبت الهزيمة حزن سالم، وخلطته بخذلانهم من عطيّة،

مع الخوف على عادل. يتحاشون النظر في أعين آبائهم وأمّهاتهم تشاغلاً بالنظر في كتاب لا يستوعبون منه شيئًا.

انتهى كلّ شيء. عدل ناصر عن استقالته، ولم يعد عادل من الحرب. لم يكن الوحيد الذي اختفى من شباب العشّ. ذهب معه أربعة. ولم يعد سوى جندي وحيد. عاد هزيلاً مذعورًا صامتًا في الجلباب الذي غادر به العشّ قبل الحرب بيوم واحد. لا يصحو إلّا لينام. توسّلوا إليه أن يحكي، بعد أيّام وليال من استجداء أمّهات الغائبين لمعرفة أيّ شيء عن أولادهنّ.

ـ انتوا فاهمين سينا دي قد العشّ؟!

قال سعيد الجحش بضيق، وسكت طويلاً قبل أن يبدأ مجدّدًا، يكلّم نفسه أكثر ممّا يكلّم مستمعيه:

ـ ما شفتش حدّ. شفت بسّ الموت.

ما قاله العائد حول فوضى الهزيمة التي لا تسمح لمن شارك في الحرب بمعرفة أيّ شيء هو نفسه الذي حاول الشباب أن يشرحوه لمسعدة، لكنّها لم تفهم، أو لم تشأ أن تفهم منهم شيئًا، مهووسة بمصير آخر عنقودها.

تمضي مع أمّهات الغائبين، يجلسن مع أمّ العائد أمام دارها، على أمل أن يحكي شيئًا جديدًا. تدخل المرأة وتعود إليهنّ بأسف واستحياء. دائمًا نائم. حتى يستجيب أخيرًا، ويخرج إليهنّ، يتطلّعن إلى وجهه، يكدن يشددن الكلمات من لسانه.

ـ كانوا بيرشّونا رشّ زي الناموس.

لم تفهم النسوة سببًا للألم الذي يعاني منه، بدلاً من أن يفرح بعودته. بدأ يندمج في الحكاية ويزداد حماسًا بإنصاتهنّ، يشرح معنى أن تُلقى إلى النهر مقيّدًا.

لم تتح له فرصة فتح مخلاته التي تسلّمها على عجل. لم يجرّب قياس سترته العسكريّة. لم يضع رجله في الحذاء. أخذته اللوريّات مع الآلاف من مراكز التجنيد بملابسهم المدنيّة إلى سيناء. حوصرت كتيبته بقوّة إسرائيليّة صغيرة. طلب منهم قائد القوّة بلهجة بدويّة إلقاء بنادق لم يتعلّموا بعد كيف يطلقونها، ألقوا البنادق، أمرهم بإخراج كواريك الحفر من مخاليهم وإلقاء ما يتبقّى من محتوياتها فوق كومة البنادق. وطلب حفر خندق طويل، انتهوا منه لاهثين.

ـ مكانش يهمّني أموت، بعد ما أبلّ لساني. ريقي كان حطبة وهمّا كانوا عارفين، بدأوا يذلّونا باللعب بالميّة قدّامنا، قالوا مين عطشان، اللّي يرفع إيده يسقوه ويطخّوه.

تسيل من عينيه الدموع، يسيطر على نشيجه ليستأنف، إرضاء لفضول النسوة الحزينات.

ـ أمروا اللّي فضلوا مننا يقفوا صفّ واحد مشبكين إيدينا فوق روسنا.

ترتعش شفتاه. يشيح بعينيه بعيدًا. يأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يشرح كيف أمر الضابط الإسرائيلي جنوده بالتقدّم واحدًا بعد الآخر للتصويب على صدور الأرقام الزوجيّة، ثم أمر من تبقّوا بأن يجرّوا جثث زملائهم إلى الحفرة ويردموا عليها. وبعد ذلك أمرهم

بالصعود حتى اكتملت حمولة اللوري من الأسرى. ترك الإسرائيليّون من تبقّى، لكنّهم لم يتوقّفوا عن المزاح، وهم يصوّبون النيران عشوائيًّا من عربتهم الجيب المنطلقة خلف لوري الأسرى. أربعون يومًا عاش فيها سعيد على ما يجد من حشرات أو عشب، حتى وصل أخيرًا إلى حدائق المانجو على أطراف السويس.

ـ ما حاربناش. جماعتنا كانوا نادرين يدبحونا.

قال الشابّ، وتركهنّ ومضى.

بعد أسابيع عادت المتعلّقات الشخصيّة للغائبين، الذين اعتُبروا شهداء، أدّوا عليهم صلاة الغائب عقب الجمعة، بينما بقي عادل في عداد المفقودين، تجلس مسعدة مع النسوة الأخريات، تقارن حالها بأحوالهنّ.

ـ على الأقلّ، عرفتوا مصير ولادكو.

ـ يعني دفنّاهم بإيدينا؟ أنت ع الأقلّ عندك أمل إبنك يرجع.

أحسّت مسعدة بأنّ تضامن الفاجعة يتحوّل إلى حسد متبادل. سحبت نفسها من بين أمّهات الشهداء الذين بدأت أسرهم السفر سعيًا وراء صرف التعويضات. تجلس بالساعات، بين نساء السراي المعدّدات. وعندما تسافر مباركة الصغيرة وسميحة إلى الجامعة لا يبقى بجوارها إلّا سميرة التي صارت واحدة من العائلة، لا تفارق مشروع الحماة الحزينة، بينما تعاملها مسعدة بامتنان، وتعتبرها من رائحة عادل، وتعتبر تمسّكها به فألاً حسنًا بعودته، لكنّها لا تهدأ يومًا حتى تتجدّد نارها.

ـ معقولة؟ هنفضل قاعدين كده، يعني إيه مفقود؟

تتساءل، من دون أن تسمع لإخوته الذين اعتبروا أخاهم شهيدًا منذ انتهاء أيّام الحرب الستّة. قرّرت السفر إلى بلبيس مع سميرة، تسألان عن معنى المفقود ومصيره، لم تتلقّيا جوابًا، لكنّهما عادتا بحكايات مشابهة في قرى أخرى، وصداقات أخذت تتوثّق بين أسر الغائبين، وتبادل للنصائح والحلول.

حيوات متخيّلة بدأها عادل في تأكيدات لقارئات أثر ومشعوذين يقبضون مقدّمًا، وفي إلهامات لناس طيّبين طلبوا التعهّد بنذور للأولياء يتمّ الوفاء بها عند عودته. تضاربت القصص وتشعّبت بالغائب دروب الحياة. وكلّ رواية تجد ما يدعمها بمشهد في حلم تراه مسعدة أو سميرة أو أيّ من نساء السراي المؤرّقات. ولم يبق غير خدّوجة العمياء في أنشاص.

ـ مفيش بعدها.

قالت فكيهة، المرأة السمينة من شلشلامون التي لا تذهب مسعدة إلى بلبيس إلّا وتجدها أمام المركز في كارو من الصاج، مشدودة إلى حمار مشغول بمخلاة التبن المعلّقة برقبته، بينما تجلس متربّعة يتماسّ جنباها مع حائطي الصندوق من الجانبين، أمامها ورقة من جريدة عليها رصّة من الخبز الإفرنجي وكومة من الطعميّة والباذنجان والفلفل المقلي، وعندما يخرج زوجها تكون قد أتت على الكومة. يخلّص الرجل الحمار من المخلاة، يلقي بها إلى مؤخّرة العربة، ويسوطه قافزًا على مقدّمة العربة بعد أن يوجّهه إلى الطريق.

ـ المعفورين دول ما يعرفوش حاجة، خدّوجة تشوف لك أثره.

أخذت مسعدة بنصيحة فكيهة. ذهبت وحدها بآخر جلباب ارتداه عادل قبل أن يذهب إلى التجنيد. بدأت المرأة تقصّ مزقًا من الجلباب وتلقي بها فوق النار ليختلط دخانها بدخان البخور وأخذت تتنفّسها بعمق، بينما ترسم سبّابتها على الرمل المسارات التي مضى فيها منذ بدء الفوضى، وتصف لمسعدة ملامح البدوي الذي أخفاه عن أعين اليهود، تلقي بقطعة أخرى لتراه وسط حشد من الرجال.

ـ هيئة فرح، آه، فرح، بسّ العروسة فين؟

تصمت للحظات بينما هي تركّز بؤبؤي عينيها على النار، وتستأنف:

ـ كلّهم رجّالة، آه تقاليدهم كده.

تسأل نفسها وتُجيب. دفعت لها مسعدة خمسة جنيهات وعادت متمسّكة بما رأته العمياء لابنها. يقين ثابت بأنّه يحيا بين البدو مع زوجة وأبناء. لا تركّز، عندما تستعيد الحكاية، على مشهد الزفاف خوفًا على مشاعر سميرة التي واصلت دراستها، كي تردّ خاطبين بدأوا في طرق بابها. لكنّ حياة عادل البدويّة كانت تتأكّد في قلب مسعدة يومًا بعد يوم. تطلب من أحفادها مصاحبتها في رحلات للبحث عنه بنفسها، توسّط كامل.

ـ قول للعفاريت دول، واحد ييجي معايا.

يتوسّل كامل لأبنائه أن يطيعوا جدّتهم، ولو كانت على خطأ. تحلم به يرعى أغنامًا، ترى في مناماتها ملامح زوجته وأطفاله، تحدّثها بلهجة غريبة. تفتح عينيها مبتهجة بحلمها، لأنّها لا تذكر أنّها سمعت تلك اللهجة في صحوها أبدًا، ثم تتذكّر أنها تسمعها يوميًّا في السراي منذ سنوات طويلة، من الفلسطينيّتين. تتغاضى عن الإحباط الذي قلّل من فرحها بحلمها دون أن تتراجع عن حلمها بالسفر إلى الصحراء والالتقاء بابنها وجهًا لوجه.

ولم تكن الأمّ الوحيدة التي تعيش على هذا الحلم. عندما وافق سالم على مصاحبتها دبّت فيها الحياة، وانطلقت إلى أصدقائها من أمّهات وآباء الغائبين في ميت سهيل والبلاشون وقرملة. اتّفقوا على اليوم المحدّد وخرجوا مثلها بصحبة أبناء وأحفاد في رحلة انتهت في قرى الإسماعيليّة غرب القناة، آخر الحدود المسموح للمدنيّين بالتحرّك فيها.

التقوا بضرب هجين من البشر، لا هم فلّاحون ولا بدو. قصّوا عليهم الحكايات عن بطولاتهم في التغرير بجنود إسرائيليّين، عن إيواء جنودنا الفارّين. يستمع الزائرون إلى الحكايات بصبر نافد قبل أن يخرج كلّ منهم صورة مفقوده.

ـ شفت ابني ده يا شيخ العرب؟

ـ يجوز يا حاجّة.

لا أجوبة تشفي حرقة السؤال، ولكنْ نصائح بقصّاصي أثر جدد، ورحلات جديدة من دون الحاجة إلى الأحفاد، بعد أن عرفت هي ورفيقاتها الطِريق. كلّ رحلة تضعهم في حيرة أوسع من

سابقتها. لم تتوقّف إلّا عندما عاد حفيدها عليّ مجرّد جذع من الاشتباكات التي بدأت عقب النكسة لاستنزاف العدوّ. اقتصرت حركتها على تبادل الزيارات في الأعياد والمناسبات الدينيّة مع أصدقاء البحث. وكانوا مثلها أصابهم الإجهاد؛ فبدأو في التنسيق لرحلات حجّ أو عمرة تطفئ النار بإمساك شبّاك الحبيب النبي.

لم يخطئ سلامة في اختيار الوقت المناسب، ولا مرّة واحدة في حياته، لكنّه اختار التوقيت الخطأ لموته.

كان متّكئًا في فراش احتضاره تسنده مسعدة، بينما وقف شقيقه محمود والحاجّة مباركة والحدباء يتابعون لهاثه الواهن، عندما قطع التليفزيون إرساله وبدأ في بثّ تلاوات قرآنية.

ردّ يد مسعدة بكوب الليمون. غمست إصبعين بالكوب وبلّلت شفتيه. أشار إلى الملتفّين حوله فمدّدوه. تجشّأ بعمق وسكن. أسبل محمود عينيه متمتمًا بالدعاء، وشدّت مسعدة الغطاء حتى أخفت وجهه. في اللحظة ذاتها توقّفت التلاوة في التليفزيون، وانطلق صوت متهدّم: «أيّها الإخوة المواطنون فقدت الإنسانيّة كلّها رجلاً من أغنى الرجال، رجلاً من أغلى الرجال وأشجع الرجال وأخلص الرجال، هو الرئيس جمال عبد الناصر...».

غاب الصوت تحت هدير أخذ يرجّ زجاج الشبّاك مثل مرور الطائرات المنخفض الذي عرفته العشّ. لم يبق أحد في داره، رغم الظلام الذي عَمّ العشّ بانقطاع الكهرباء. ألقى عليّ بنفسه من فوق كرسيّه المتحرّك واتّصل نحيبه وصراخ الفتيات داخل السراي بهدير الصراخ في الشوارع، بينما جمد الكبار في مكانهم أمام جثمان سلامة.

مثلما يفعلون عندما ينتظرون جثمان أحد أبنائهم قادمًا من مدينة بعيدة، لم يدخل الناس دورهم طوال الليل، احتلّ الشيوخ والنساء المصاطب في الشوارع والحارات، وأخذ الشباب يتمشّون على الطريق خارج العشّ، حيث لن تأتي عربة دفن الموتى بأيّ جثمان، لكنّ الفاجعة أعادت حالة التكاتف التي لم تعد تعرفها العشّ، بعد صيف الحرائق ونوبات الفيضان التي طواها النسيان منذ اكتمال بناء السدّ العالي؛ الخزام الذي لوى به عبد الناصر عنق النيل، ومنعه من الجموح.

في الصباح تمكّن الطبّال بصعوبة من المرور بين الحشود الباكية المستغربة سلوك طبال مختلّ؛ لأنّ موت الزعيم لا ينتظر طبله للإعلان عنه، ولم يسمع أحد إلى صياحه باسم سلامة.

وعندما حمُل الجثمان إلى المسجد، صلّى عليه كلّ رجال العشّ، ولكن بالمصادفة.

انتحب الإمام وهو يقيم صلاة الغائب على روح «الزعيم الخالد جمال عبد الناصر» وفي إضافة لم ينتبه إليها أحد قال «ومن حضر من موتى المسلمين».

لم يحسن الإمام ولا أيّ من المردّدين خلفه نطق حرف واحد من تلاوتهم ودعائهم. وعندما انتهت الصلاة تجمّع ابنه وأحفاده وحملوا النعش، الذي صار خفيفًا مثل ريشة، يتأرجح فوق الحشد، لاحظ عبد المقصود أنّ أباه يكاد يطير. أخذ بالتهليل.

ـ كرامة يا ولاد، الله أكبر، الله أكبر.

بدأ حملة النعش يتجاوبون مع خفّته، مواصلين التكبير، بينما أخذ الحشد بالتناقص حتى وصلوا إلى المقبرة. كشفوا الغطاء الحريري الأخضر، فلم يجدوا الجثمان. كان الصندوق ملآنَ بقطن الموسم. انتبه محمود إلى أنّ نعش شقيقه أُبدل مع النعش الرمزي للزعيم. أعادوا نشر الغطاء، وركضوا في كلّ اتّجاه يبحثون عن الجثمان الأصلي الذي يدور به المنتحبون.

كثيرون لم تثبت في ذاكراتهم وفاة سلامة. متخاصمون يرفض أحدهم تحكيم محمود في مشاجرة أو توزيع إرث أو حقوق مطلّقة، فيطلب منه الاحتكام إلى «العمدة الكبير». تخرج مسعدة إلى عزاء فتسألها النسوة عن صحّة العمدة الكبير. حتى الأحفاد كان بعضهم يخطئ ويكتبه على رأس قائمة العائلة عندما يُطلب منهم ذلك عند التجنيد، أو التقدّم إلى وظيفة. مع ذلك كان موته ثقيلاً على السراي، لأنّه بدا تأطيرًا لكلّ وقائع الموت السابقة.

ـ اتسرق منّنا.

يقول الشقيق الذي كان أكثر اقتناعًا من الآخرين في العشّ بأنّ العمدة الحقيقي هو سلامة، وأنّ ما قام به في المنصب كان مجرّد مساعدة فيما لم يعد سلامة يقوى عليه. ابنه وأحفاده وكلّ من في

السراي شعروا بالتقصير معه في سنواته الأخيرة. لم يقدّروا حزنه الصامت على عادل، ورغم التدهور الذي انزلق إليه، كانوا يتصوّرونه موجودًا إلى الأبد. يرونه جالسًا بالساعات على دكّته ينظر إلى الخارجين والداخلين، لا يكلّف بعضهم نفسه إلقاء تحيّة عليه، ينعس ويستيقظ ليذبّ الذباب عن وجهه بمنشّة من ذيل عجل، ثم يغفو من جديد.

لم يكن يجلس معه سوى حفيده عليّ. يدفع كرسيّه المتحرّك بيديه، وينزل من الفراندا إلى الحديقة على المنحدر الذي أقاموه خصّيصًا له على جزء من السلالم، مندفعًا كمن يقود سيّارة سباق، يوقفها أمام جدّه الغافي على الدكّة فيستيقظ مذعورًا من صوت كوابحها.

ـ صحّ النوم يا حاجّ.

يبادره عليّ، ويصوّب الحاجّ سلامة نظره إلى نهايتي الفخذين البنّيّتين بلون الكبد تبدوان من تحت جلباب عليّ الشفّاف. يرى الإشفاق في عينيه؛ فيداعبه:

ـ احمد ربّنا، رجعت لك حتّة منّي، مش أحسن من مفيش؟

ينظر الجدّ بذهول إلى حفيده متعجّبًا من عينيه المصمّمتين، بينما يحكي له عن تدريبه، والروح التي وُلدت في الجيش.

ـ روح؟ بيتمرقعوا وأولاد الناس تموت وتقولّي روح؟!

يقول الجدّ، ويردّ عليّ:

ـ كلّ دا اتغيّر.

يشيح سلامة بيده غير مصدّق.

ـ الراجل دا أنا مارتحتش له لمّا جه العشّ.

يضحك عليّ.

ـ يا جدّي دا انت كنت طاير م الفرحة.

ـ واجب الضيافة، هو انت كنت قدّ إيه عشان تعرف؟

لا يستطيع عليّ أن يزحزحه عن موقفه. وعندما قطعت الإذاعة إرسالها وأُعلن عن استشهاد الفريق عبد المنعم رياض، رئيس أركان الجيش، في آخر نقطة تماسّ مع العدوّ، اندفع عليّ إلى جدّه، كأنّه كسب رهانًا.

ـ ودا كمان بيتمرقع؟!

عندما أنهى عليّ سنته الأخيرة في كلِّيّة الهندسة، سلّم نفسه للتجنيد، مثل أبناء أعمامه وملايين الشباب، لا يحلم إلّا بالثأر، لأنّ الصفعة التي خلّفت شهيدًا في كلّ عائلة كان يجب أن تُردّ.

بعد التدريب الأساسي التحق بسلاح المهندسين، عاش ملحمة بناء حائط الصواريخ تحت قصف الطيران المعادي، واستطاعوا في النهاية إقامة الخطّ الدفاعي الذي كان خطوة كبرى في الاستعداد للثأر، أوقفت نزهات الطيران الإسرائيلي فوق سماء مصر.

لم يتمكّن عليّ من زحزحة جدّه عن آراء يقول إنّها نتيجة خبرة حياة وليست مجرّد تهيّؤات. تدهورت صناعته وتجارته في ظلّ حركة الضبّاط، فقد أخاه وابنه في حروب دخلوها من غير

استعداد، وعاد واحد من الأحفاد عاجزًا، ولا يعرف ماذا يكون مصير بقيّة الأحفاد الغائبين. يعود الواحد منهم في إجازة قصيرة، أو يعبر لساعات قليلة لا تكفي لتبريد نار أمّه بلقمة تصنعها له بيديها.

ـ الكتيبة بتتنقّل والقائد سمح لي أسلّم عليكم.

يقول الشابّ غير المستقرّ في جلسته كضيف متحرّج، ينظر إلى ساعته أكثر ممّا ينظر إلى محدّثيه، ثم يقف معانقًا كما لو كان وداعه الأخير.

لم يبح سلامة بألمه على غياب عادل، إلّا لعليّ. لم يكن يرى أيّة جدوى لرحلات مسعدة، لكنّه لم يشأ أن يضاعف أحزانها. يستمع في كلّ مرّة إلى حكايات رحلتها، يغبطها على لمعة الأمل في عينيها. يخشى الحرب أكثر ممّا صار يخشى إثارة المشكلات مع أيّ من عائلات العشّ.

راح يواصل انطفاءه يومًا بعد يوم، لكنّه ظلّ، حتى اللحظة الأخيرة، واعيًا بنفسه، يستحي أن يسيل لعابه، أو يأتي بحركة غير لائقة. بدأ يتناول طعامه منفردًا، محافظًا في تعاملاته، حتى مع أحفاده، على قواعد الذوق في التصرّف، التي قد تفوت الكثيرين. مرّة انتبه إلى ناجي محمود، يضبط الكاميرا عليه خلسة، كي يلتقط لحظة شروده.

ـ هتصوّرني يا ناجي؟

أشار له الشابّ مستمرًّا في ضبط الكاميرا.

ـ طيّب مش أصول تستأذن؟

الملاحظة التي أبداها الجدّ المتداعي حكاها ناجي مرارًا لزملائه في المستشفى، مؤكّدًا أنّ الكثيرين من خرّيجي الجامعات لا يعرفون هذا الحقّ الذي دافع عنه عمّه.

ـ لو باعرف أشعِر، كنت ألّفت عن جدّكم كتاب قدّ ألف ليلة.

قال العمدة محمود مخاطبًا عليّ والحفيدات، بعد أن تحوّل موت سلامة إلى مجرّد جراحة استأصلت سنوات الضعف الأخيرة. لم يبق في ذاكراتهم منه إلّا سنوات انتصاره؛ واقفًا أمام طابور من عمّاله يوزّع عليهم أجور الأسبوع، أو بين أعيان المنطقة قاضيًا في القضايا العويصة، لا تُردّ كلمته، أو عندما عاد من السراي منتصرًا على الأشباح.

لكنّ الحياة التي غرسها في السراي أخذت تتبدّد. كانت رائحة الموت تتصاعد في كلّ مكان، من الحديقة المهملة، ومن الغرف المظلمة التي أتت الشمس والأمطار على شبابيكها، من المطبخ الذي لم يعد يُستخدم بعد أن استعاضت عنه النساء بكانون بنينه في ركن من الحديقة، تتقافز السحالي بجواره لتختفي في أكوام الحطب وأقراص جلّة الماشية المخزّنة كوقود.

مباركة عادت إلى العديد على سالم. مسعدة تعدّد على عادل، وزينة تستمع إلى رسائل الإذاعة «من فيصل أبو عوّاد إلى الأهل بخان يونس، نحن بخير طمئنونا عنكم» تنصت بكلّ حواسّها، وعندما تستمع إلى أسماء، مثل المدهون والبلعاوي وحمدونة وغيرها، تتوهّج متوقّعة أن تستمع في اللحظة التالية إلى رسالة من

زياد أو رياض، ولا يتمكّن أحد من إقناعها بأنّ الرسائل من لاجئي النكسة لا النكبة.

ـ نكسة، ونكبة شو، ما المدهون وحجازي والبلعاوي مجدليّين جيراننا.

تقول زينة وتبدأ عيناها في السحيح؛ فتهدهدها البنتان اللتان أكملتا تعليمهما دون أن يتقدّم أحد لخطبة أيّ منهما، لا من العشّ ولا من زملاء الدراسة. التحقت مباركة بالعمل محاسبة في محلج القطن بمنيا القمح، راضية بما يتيحه لها السفر اليومي من الابتعاد عدّة ساعات عن نساء السراي الحزانى، وعملت سميحة معلّمة في مدرسة الشهيد سالم. ترى الحاجّة مباركة حفيدتها مقبلة بقامتها الفارعة ورقبتها الطويلة التي ورثتها عن أمّها، فتتأسّف على جمالها الذي يذوي يومًا بعد يوم. وفي اللحظة التي تنسى فيها أحزانها، تداعب الفتاة مستنكرة.

ـ مش عارفة تكعبلي لك راجل؟!

ـ أعمل إيه يا ستّي، كلّ اللي بيشوفوا خدوهم للجيش.

ما ردّت به الحفيدة على جدّتها مزاحًا كان حقيقيًا. لم يكن تبقّى بالعشّ سوى النساء والأطفال والرجال بعمر أبيها، والمكفوفين والعائدين بعاهات من الاشتباكات.

ـ قنديل البنت له وقت وينطفي.

كانت الجدّة مباركة الوحيدة بين النساء التي انتبهت إلى ذبول الفتاتين واحدة بعد الأخرى. لكنّهما لم تكونا استثناء بين بنات

العشّ، بمن فيهنّ سميرة الجحش، التي حصلت على دبلوم التجارة وجلست تنتظر وتزداد كلّ يوم يقينًا بعودة عادل، مثيرة لنميمة النسوة المندهشات من هذا التصميم في قرية صغيرة.

ـ يمكن غلط معاها قبل ما يروح.

لم تلتفت الفتاة إلى الثرثرات، وتمسّكت بانتظار كان صعبًا في البداية، لكنّها استراحت من ضغط أمّها عندما توقّف الخُطّاب عن طرق بابهم، بعد أن ذهب جميع الشباب إلى التجنيد، تاركين لها الوقت اللازم لتكتب خطابًا جديدًا موجّهًا إليه كلّ ليلة. وتراكم الرسائل واحدة فوق الأخرى، وتقول إنّها ستصله في يوم ما، ولكن بعد تأخير، كما كان يفعل في خطابات الآخرين.

استقبلوا بيان العبور بحذر، خوفًا من خديعة جديدة. كان الكذب في الأيّام الأولى من النكسة ماثلاً في الأذهان. وكانت الإذاعة الإسرائيليّة المسموعة جيّدًا في العشّ تؤكّد كلّ يوم أنّ مغامرة مصر بمحاولة اقتحام المانع الترابي الملغّم على الضفّة الشرقيّة سيحوّل قناة السويس إلى بحيرة من الدم ولحم الجنود المشوي بنار النابالم. لكنّ الناس شمّوا رائحة الصدق من البيانات التي صدرت بعد ذلك، ولم يصدر عن الإسرائيليّين تكذيب لها؛ فبدأ الناس في الابتهاج.

فرح العمدة الأخير للعشّ بالثأر، وإن لم يهنأ بالاطمئنان على اكتمال عودة جنود العائلة من الجبهة. كان منهكًا من الصيام وحرّ الظهيرة؛ فتصوّر أنّها خيالات ما قبل الغيبوبة لأنّه لم يلتزم بتعليمات الطبيب الذي حذّره من الصيام. لم يتحرّك من متّكئه، ولم يسأل أحدًا إن كان ما سمعه صحيحًا، لكنّه تأكّد أنّ ما سمعه

وصل إلى آذان الآخرين، وتأكّد من ابتهاجهم أنّه لا يحلم أو يعاني خطرفة الموت.

ـ عقبال ما نفرح برجعة ولادنا.

قال العمدة محمود لأمّه التي جلست تمسّد أطرافه الباردة الثقيلة. تبدو أكثر شبابًا منه، حيث اختار الزمن أن يبري جسمها أكثر ممّا يوهنه. كانت تتضاءل وتدقّ عظامها، لكنّها ظلّت على صلابتها، تتمنّى لو تستطيع فداءه.

ـ يا ريت بيقبل البدل!

تكلّم نفسها، وتعود إلى الصمت، تستذكر من دفنت من الأحباب، وتستبشع بقاءها لتدفن ابنًا وراء حفيد.

عندما توقّفت الحرب بدأ الجنود يعودون، واحدًا بعد الآخر، في زيارات خاطفة، يرجعون بعدها إلى وحداتهم لاستكمال إجراءات التسريح من الخدمة. كلّما رجع أحدهم تحتضنه أمّه بأقلّ صخب ممكن، خوفًا على ابنها من الحسد، أو حرصًا على مشاعر سلفتها التي لم تعرف شيئًا عن ابنها بعد، أو مراعاة لوقار احتضار الجدّ الذي لم يعد يستيقظ إلّا لينام مجدّدًا، وكان يشعر بضجّة عودة الأحفاد كما لو كانت أحلامًا.

عادوا جميعًا ولم يتبقّ غير مصطفى كامل. أخذ أبوه يذهب كلّ يوم إلى الزقازيق، حيث يعلّقون قوائم الشهداء والمفقودين أوّلاً بأوّل. يخرج بعد صلاة الفجر ليكون في الثامنة أمام مبنى المحافظة قبل الزحام. يقف قبل أن يفتحوا الأبواب. لا يجد الاسم في أيّ

من القائمتين، لكنّه يعود بأكياس الفاكهة، ويؤكّد لعزيزة أنّه قابل من طمأنوه عليه. كان يتجالد بمجهود كبير، لأنّ مظهره لحظة عودته يتوقّف عليه إن كانت زُهرة ستتماسك أم ستسقط في نوبة صرع، لا تفيق منها إلّا بعد يوم كامل، وتظلّ مهدودة لعدّة أيّام، بلسان أزرق يؤلمها إذا تناولت أيّ شيء.

نذر لو رجع ابنه سالمًا أن يُعيد بناء ضريح الشيخ الساكت الذي تهدّم وسقط سقفه فوق القبر. وكان كلّ يوم يمضي من دون خبر يُفقد كامل جزءًا من تماسكه، وبدلاً من الفاكهة والكنافة صار يعود بالبنّ وأطقم الفناجيل القيشاني.

- فينك يا مصطفى ردّ عليّا.

يصرخ في جوف الليل، ولا يعود إلى النوم حتى يبدأ نور الصبح في التسلّل، فينطلق إلى الزقازيق. لكنّ الفناجيل دارت بالقهوة في عزاء العمدة. ووقف يستقبل العزاء، مشوّشًا، يردّ بغبطة على المعزّين عندما يتذكّر أنّه في عزاء عمّه وليس ابنه.

بعد عدّة أشهر، وبينما كان كامل في الزقازيق يتفحّص كشوف الغائبين، طرق الباب جنديٌّ في ثيابه العسكريّة؛ فخرجت زُهرة أبو جاموس بشعرها منكوشًا وجلباب وحيد على اللحم.

- مصطفى بيه بيسلّم عليكم وراجع قُريّب.

قال الجندي، فأمسكت به زُهرة تقرصه من ذراعه ومن خدّيه، وتتحسّسه في لهفة.

- إنس ولا جنّ انث يا خويا؟!

ـ أنا محمود الصايم يا خالة، ومصطفى الظابط بتاعي والله العظيم بخير وراجع.

خلّص نفسه منها بصعوبة، قبل أن تدوّي صرختها وتقع متخشّبة. عرفوا بعد ذلك أنّ الجندي عائد من حصار الدفرسوار، الذي قلّل من هيبة النصر، حيث تمكّن الإسرائيليّون من فتح ثغرة في الهجوم المصري، وطوّقوا داخلها جيشًا. لم يكن معروفًا على وجه الدقّة حجم الخسائر في الجيش المحاصر، لذلك لم ترد أسماء ضبّاطه وجنوده، لا في كشوف الشهداء ولا في كشوف المفقودين. بعد محادثات فكّ الاشتباك، تمّ حصر الأحياء. وبدأوا في تبادل الأسرى وصارت عودة مصطفى مسألة وقت؛ إذ لا يستطيع جنديّ من أبناء العشّ أن يمزح في أمر كهذا.

قضى كامل وزُهرة أيّامًا متواصلة بلا نوم حتى تحسّسا الشبح العائد. بصعوبة تمكّنا من معرفة مصطفى داخل طيّات بذلة ميدان على كتفيها الفضفاضتين نسر، بينما يمكن تطويق خصرها الملموم بالقايش بأصابع يد واحدة. عندما اطمأنّا على أنّ الهيكل العظمي الذي احتضنهما هو ابنهما تمكّنا من البكاء، وناما ثلاثة أيّام بلياليها، تاركين للآخرين مسؤوليّة إعادة الكساء اللحمي فوق عظام مصطفى بثلاث وجبات من اللحم والفتّة يوميًّا.

استيقظ كامل بعد أن عوّض أرق الخوف الذي عاشه على مدى أشهر طويلة. وقرّر أن يكون الوفاء بنذره أوّل ما يفعله.

كان الضريح يبدو كومة تراب مخسوفة بين بيوت الطوب الأحمر والخرسانة التي بدأت تحلّ محلّ الطوب النيء والخشب.

ولم يكن قبر الشيخ أقلّ تداعيًا من البناء المنخفض. انتشل كامل بنفسه ما وجده من عظام في الأرضيّة السبخة التي تؤكّد ما يتوارثه العشّيّون من حكايات عن أرض المستنقع الذي أُقيمت عليه القرية. حمل مقطف العظام إلى الدوّار، وعاد ليشارك في الهدم وحفر الأثاث الجديد. وجاءت جرّارات الزلط والرمل والطوب الأحمر، وأخذ البناء بالارتفاع. وبعد الاكتمال وتزويده بأنوار النيون الخضراء، أُعيدت العظام إلى الضريح وأُقيمت ليلة إنشاد تناوب الغناء فيها كلّ المنشدين الشعبيّين بالشرقيّة، الذين لم يغيبوا كثيرًا قبل أن يعودوا للاحتفال بزفاف الأبناء، في حفل صاخب يعوّض سنوات الصمت الكئيب.

ـ تتجوّزوا أخواتكم ويبقى زيتنا في دقيقنا.

هكذا رأت الحاجّة مباركة، وأطاعها الجنود. اختار كلّ منهم من يستلطفها من بنات عمّه وعمّته، وألقى بمنديله عليها. اختار أحمد عبد المقصود الزواج من مباركة محمود، بينما تزوّج يوسف عبد المقصود من سميحة كامل، ومنصور كامل من بديعة وفيق عصفور، وأخوه مصطفى من أختها نجاة. لم يخرج على إجماع التزاوج العائلي سوى عليّ الذي تزوّج من فتاة أُمِّيّة فقيرة، وناجي محمود الذي واصل إضرابه عن «دخول السجن». كان بوسعه أن يدخله قبلهم؛ حيث أُعفي من التجنيد لأنّه وحيد أبويه، وتسلّم عمله في القاهرة بعد تخرّجه طبيبًا بمستشفى قصر العيني، لكنّه كان غائبًا مثلهم عن العشّ بسبب حالة الطوارئ التي ظلّت قائمة بالمستشفيات طوال سنوات الاستنزاف حتى نصر أكتوبر.

قطعت زفّة العرس داير العشّ قبل أن يتوقّف المحتفلون في الساحة أمام السراي، ويستقرّ المنشدون على مقطورة جرّار زراعي أُعدّت كخشبة مسرح لصق السور، وتحتها صفّ من الكراسي للعرسان والعرائس، بينهم عليّ فوق كرسيّه المتحرّك بجوار عروسه التي خلعت حذاءها وحملته في يديها عندما اقتربت من السجّادة تحت أقدامهم. جذب عليّ الحذاء وألقى به تحت قدميها مشيرًا إليها لكي تنتعله، لكنّها ظلت طوال الحفل جالسة على حرف الكرسي، مستغربة جلستها بين شباب وصبايا العائلة.

كان الزفاف الجماعي سببًا للحسد عند البعض وللتندّر عند البعض الآخر.

ـ عيلة راكبة على بعضها!

ـ مش أحسن من ركوب الغريب؟

صارت قراءة فزّورة النسب بين كلّ شابّ وفتاة تسلية للساهرين على المصاطب أو بجوار السواقي بالليل. ولم يعبأ العائدون برايات النصر بالتعليقات. أخذوا يتصرّفون في الفراش بعقيدة قتاليّة عالية وتكتّم لم يعرفه آباؤهم. حتى إنّ مباركة كانت تخرج في الليل ترمي أذنها على أبواب الغرف، فلا تسمع صوتًا ينمّ عن حركة. وعندما ظهرت أعراض الحمل أيقنت أنّ الأمور تجري على طبيعتها، وفسّرت الصمت بأنّ الشباب تعلّموا الحذر من الحرب.

ـ بسّ البنات مالهم؟!

تساءلت، ثم فكّرت مستدركة. تتذكّر أنّها لم تكن تصيح، لكنّ

رجالها كانوا يفعلون ذلك، أمّا شخير مسعدة فلم تنسه العشّ إلّا بصراخها على غياب عادل. انتهت مباركة إلى التسليم بأنّ الدنيا تغيّرت، وبأنّ هؤلاء المساكين أتلفتهم المدارس والحروب، لكنّها تخلّت عن الأسف عندما بدأ بكاء الحياة يطرد بكاء الموت من السراي بعد تسعة أشهر محسوبة باليوم.

أطلقوا على المواليد «جيل الثلاثة وسبعين» وواصل العائدون من الحرب بطالتهم الاحتفاليّة. يحتدم النقاش وتبادل حكايات المعارك على الوجبات، ويمتدّ حتى وقت النوم. كان واضحًا أنّ مرور الحرب لم يكن خفيفًا على أيّ منهم. يقسم أحمد عبد المقصود أنّه في ظهيرة يوم العبور كان يتسلّق على الشبك الذي مدّدته قوّات الصاعقة على خطّ بارليف ورأى ملائكة بجواره تتسلّق خفيفة على الرمل بلا شبك. وهم الذين تصدّوا للنيران الأولى التي أطلقتها المدرّعات الإسرائيليّة.

ـ شفت بعيني ملاك حاضن ماسورة دبّابة، الطلقات بتغربله وهو ماسك زيّ العلقة.

يلمح غمزات يوسف؛ فيقسم غاضبًا أنّ الإسرائيليّين عندما رأوا المنظر أصابهم الرعب لأنّ المتعلّق بماسورة دبّابتهم، كان يحرّف الطلقات عن مسارها من غير أن ينزف قطرة دم، أو يقع، رغم تدويرهم العنيف لمدفع الدبّابة؛ ففتحوا برجها وفرّوا.

ويسأل يوسف مصطفى:

ـ أنا ماشفتش، أنت شفت ملايكة يا سيادة الرائد؟

ـ في العبور ماكنتش فاضي ألتفت. لمّا اتحاصرنا بقى عندي وقت، بسّ مش معقولة الملايكة تتحاصر زيّنا.

يردّ مصطفى مازحًا؛ فيستغفر أحمد، ويتطلّع إلى ساعته، وينسحب خارجًا إلى الجامع. وإمعانًا في الاختلاف بدأ في إطلاق لحيته، وتحاشي الجلسات الجماعيّة، ثم طلب من مباركة أن تتحجّب، وألّا تختلط بالرجال الآخرين في العائلة.

ـ حجاب وفهمناه، طيّب دول أخواتي وولاد أخواتي.

تقول مباركة، ويردّ أحمد:

ـ الأخ غير ابن العمّ. كلّهم يحلّوا لك.

استنكر الآخرون موقفه، لكنّهم تنبّهوا إلى أنّ الصلات تتباعد بينهم. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لتسرّبهم من العشّ واحدًا وراء الآخر؛ ففي ثلاث سنوات امتلأت السراي والداران بأطفال لهم السحنة نفسها، كأنّهم خرجوا من خطّ إنتاج بمصنع واحد، لأنّهم جاؤوا ممّا أسماه ناجي «تزاوجًا ذاتيًّا»، مشبّهًا التزاوج داخل العائلة بانقسام المخلوقات وحيدة الخليّة.

لم يعد هناك ما يمكن بيعه لإعالة هذا العدد؛ فبدأوا في البحث عن وظائف. وتوالت خطابات التعيين في مدارس وجامعات وشركات.

استأجروا شققًا في القاهرة والزقازيق، وحمل كلّ منهم أسرته وأثاث زواجه إلى شقّته، متّفقين على التجمّع في العشّ أيّام العطلات، لكنّ زياراتهم أخذت بالتناقص، حتى اقتصرت على عيدي الفطر والأضحى.

لم يبق في العشّ من جيل العائدين من الحرب إلّا عليّ الذي عاش في السراي، وقرّر أن يفتح الدكّان المغلق، كنس التراب وأزال العنكبوت عن الأرفف التي جهّز بها الجدّ سلامة دكّان القماش. ولم يكن بحاجة إلى أكثر من استبدال متر القياس بميزان لكي يفتتح دكّانه الذي جمع بين بضاعة البقالة والعلافة. ولكنّه أفلس سريعًا؛ فأعاد تجهيز الدكّان مرّة أخرى فأفلس للمرّة الثانية. أغلقه وعاد إلى البطالة والاكتئاب؛ فتبرّع ناجي بتجديد الدكّان.

كانت حركة البيع ممتازة، لكنّ البقالة الصغيرة لا تكسب ما يعوّض استهلاك زوجته هانم التي لا يكفّ فمها عن الحركة، تأكل كلّ شيء. ابتعد في المرّة الثالثة عن البضائع المغرية مثل السكّر والحلوى الطحينيّة والكراملّة، رغم أنّها الأكثر مبيعًا في البقالات، لكن بالنسبة لهانم كان كلّ شيء قابلاً للاستهلاك، حتى البقول مثل الفول واللوبياء تتسلّى بها مثلما تتسلّى باللبّ والفول السوداني.

ـ بتدخّل الحبّ من بقّها وتطلّع القشر من مناخيرها.

يصف عليّ طريقتها في الأكل التي لا تتوقّف عنها حتى وهي تتحاور مع الزبون، كما لو كان يتحدّث عن ماكينة تذرية القمح. وعاش في دورات من الإفلاس ينقذه منها إخوته وأبناء عمّه، عندما يزور أحدهم العشّ فيتبرّع بإعادة الدكّان إلى الحياة من جيبه وحده، أو يطلب من إخوته المساهمة معه، وهم يعرفون أنّه سيفلس مجدّدًا بعد أشهر قليلة.

نزل السادات سلّم الطائرة عائدًا من القدس، وخلفه عشرة من الأسرى كانوا في عداد المفقودين، أخذت الكاميرا تستعرضهم. شهقت مسعدة وارتمت في مكانها عندما رأت وجه عادل يملأ شاشة التليفزيون أمامها.

كان الرئيس فخورًا برحلته، يشعر بأنّه حقّق نصرًا جديدًا بالذهاب إلى الكنيست متحدّيًا الإسرائيليّين بالسلام. ذهب إليهم بجاسوس أفرج عنه حتى لا يدخل عليهم بيد خالية، وردّ الإسرائيليّون على الهديّة بهديّة. أخرجوا له عشرة من بين مئات من الأسرى لم يعترفوا بوجودهم طوال عشر سنوات.

عندما وصل عادل إلى العشّ حاولوا ألّا يصدموه بخبر وفاة أبيه، لكنّه لم يمنحهم متعة الإشفاق عليه، كان يبدو عارفًا بموت سلامة ومحمود، وأوّل ما فعله قبل أن يستريح كان زيارة قبريهما.

لم يفاجأ بأيّ من العلامات التي تركها الزمن على كلّ الآخرين. ولم يدهشه أنّ الفتاة التي تركها في الخامسة عشرة لم تزل تنتظره، وأمام العائلة المتجمّعة حوله طلب منها خطاباته.

ـ هقرا واحد كلّ يوم، زيّ ما كتبتيهم.

استغربت كيف عرف، بينما كان يتشمّم حزمة رسائل يعرف عددها بالضبط، مثلما كان يعرف ما صار إليه جسد سميرة، حتى حلمتا نهديها اللتان تركهما مجرّد بروزين مدبّبين مشوّشين بين الغلمنة والأنوثة صارتا، مثلما قدّر بالضبط، في حجم حبّتي فول. الشيء الوحيد الذي لم يتوقّعه كان ضفائر العانة الرفيعة التي جعلته يصرخ بهجة وخلّفت عنده في الوقت ذاته ألم الخديعة الذي يستشعره مراهن محترف عندما تختلف توقّعاته.

الإسرائيليّون، الذين اكتشفوا فور أسره أنّه مجرّد جندي ناقص التدريب، لم يلحّوا على استجوابه بشأن الحرب. لم يخلعوا أظافره كما فعلوا مع ضبّاط عرفوا مكانتهم، على الرّغم من بذلة الميدان المجرّدة من الرتبة. لكنّهم جرّبوا مع عادل كلّ اللين وكلّ الشدّة ليعرفوا سرّ غرابة سلوكه، استجوبوه، عرضوه على أطبّاء السجن، وعلى أساتذة الطبّ النفسي، والبعثات الطبِّيّة الأميركيّة. لم يكن يشعر بوجود أحد حوله، سواء كان في الراحة أو طوابير التفتيش أو ساعات الطعام والنظافة أو أيّة ظروف كانت. ينفّذ التعليمات بشكل آليّ، لكنّ مشاعره في مكان آخر، يكون صامتًا، فجأة يضحك ويصفّق، ثم يصافح يدًا لا مرئيّة في الهواء، قبل أن ينفض ملابسه. قد يضحك أثناء تعذيب زميل على مرأى منه، يمتعض وينعقد

حاجباه بالغضب أو يرعش إصبعه الوسطى وسط غناء الآخرين في حفل ترفيهي. ينام تحت دفق الماء أو تحت البخّاخة وهم يرشّونه بمبيد القمل. كان الحرّاس يتنصّتون على ملاطفاته للهواء، ويراقبون انتفاخ بنطلونه بين فخذيه؛ فيركله حارس الزنزانة المُستفزّ من غراباته.

ظلّ لغزًا، لأنّهم لم يعرفوا أنّه كان يبدأ يومه بإنشاء رقعة سيجة خياليّة، يلاعب متباريًا افتراضيًّا طوال النهار، إذا انتهى الدور بالفوز يصفّق، وإذا ما انهزم يبرطم ويرفض النتيجة ببذاءاته المعتادة. وفي الوقت المحدّد لإغلاق مكتب البريد في العشّ، يصافح منافسه، ويمشي إلى السراي، ليأكل ويستريح قليلاً، يمزح مع أمّه وأبيه، قبل أن يمضي ملهوفًا إلى سميرة، متأكّدًا أنّها تنتظره كلّ ليلة، يصبّ في أذنيها عسل الكلمات الأكثر بذاءة، فيلين جسدها وتتشكّل تكوّراته تحت يديه. كان الانتظار يدفع بمزيد من الصلصال الساخن إلى جسدها، ويترك له مهمّة تنحيف الخصر وإزاحة ما يكشطه من الظهر والفخذين إلى الإليتين، بينما يأخذ من البطن للنهدين، كان يفعل ذلك حتى تنتفخ الثآليل في أنامله وتنفجر، ولا يجد أطبّاء السجن الإسرائيلي لها سببًا.

لم يكن عادل أو سميرة بحاجة إلى الأسبوع الذي طلبته ندرات مهلة للاستعداد للفرح بوحيدتها. رفضت سميرة أن تمتدّ يد لنتف شعرها. أعدّت المرأة حلاوة السكّر بالليمون وتوسّلت إليها، مستغربة الحياء الذي حطّ فجأة على ابنتها.

ـ ولو تنضّفي إيديكِ ورجليكِ.

تقلب شفتيها رافضة؛ فترجوها:

- **طيّب، اعمليها بنفسك.**

ساقت عليها الجارات والقريبات، لكنّ العروس لم تتنازل. كانت تريد أن يرى أثر الانتظار على جسمها. وكان في عشر سنوات من التأمّل قد توصّل إلى معرفة كلّ شيء، وتقدير كلّ ما تعذّر عليه رؤيته؛ حتى أنّ ملمس جلدها تحت أصابعه لم يختلف عمّا توقّعه. مال يتشمّم بين فخذيها، ليتأكّد إن كانت الرائحة هي التركيبة المدوّخة ذاتها، من عطر الخزامى وفاكهة متخمّرة، التي كانت تملأ أنفه في ليالي استيهاماته لسميرة بالزنزانة. أعاقته الجدائل الرفيعة عن الإبحار بأنفه في الجدول المموّه بين فخذيها. ضحكت مستثارة من ألم تعثّر أنفه في الضفائر التي ربطتها معًا كحزام عفّة تركت له مهمّة فكّه بأسنانه.

اهتدت إليها بفضل صورة في مجلّة لرأس فتاة أفريقيّة، أعجبتها دقّة الضفائر النحيلة التي لا تعرفها المصريّات. وأخذت في جدل شعرها في الموضع الأكثر خفاءً، صفوفًا عرضيّة من الأعكان حتى أعلى الفرج، وصفّين طوليّين على ضفّتي الجدول، جمعت فيها شعر باطن الفخذين حتى الضفّتين.

أزاح صفّي الضفائر إلى الجانبين، كاشفًا عن النواة الورديّة المتحدّية تناطح أنفه. ما إن لمسها حتى تدفّقت نافورة ماء أغرقت وجهه، وبلّلت الضفائر وسالت جداول على فخذيها. أخذ يلعق البلل الدبق ويمتصّه من الضفائر بأسنانه وشفتيه.

الدفق، منحتها الإلٰهيّة التي يعرفها وسلبته حرّيّته قبل أن يقع

أسيرًا في أيدي الإسرائيليّين. كانت بقعة البلل تبدو واضحة بمجرّد أن يبدآ ملاعباتهما مكتومي الأنفاس بجوار أمّها الناعسة. تمضي بظهرها أو تجمع ثوبها بين فخذيها عندما تُضطرّ للوقوف عند وداعه. لكن لم يخطر بباله أن تحتفظ له بالشعر الخشن الذي لمس ذؤاباته عندما كانت زغبًا ناعمًا.

ـ كنت بصبّر نفسي على الانتظار.

قالت ببساطة عندما قصّ بأسنانه ضفيرة وحملها بين سبّابته وإبهامه يتأمّلها. أرته كيف تفكّ الضفائر وتمشط الشعر وتعيد جدله من غير أن تنظر إلى يديها.

أمضيا الليلة في تبادل الابتكارات التي راكمها كلّ منهما طوال عشر سنوات، حتى همدا متعانقي الأذرع والسيقان، مثل كومة رماد لا يومض فيها إلّا زوجا عيونهما القططيّة.

مدّت يدها تحت الوسادة وأخرجت له القلادة الفضّيّة تمرجحها في الهواء، مثلما مرجح ضفيرتها. على أحد وجهيها حروف متداخلة، وعلى الوجه الآخر صورته تحت سطح من زجاج. كانت ترتديها على وجهها المعدني، وعندما يأتي من يخطبها تقابله بالابتسام والترحاب مثلما طلبت أمّها، وفي لحظة اقترابها منه بكوب الشاي تقلب القلادة على وجه عادل بحيث لا يراها إلّا الخاطب، وترتدّ وقد أعادت القلادة بخفّة إلى وجهها الآخر، وتكون هذه الومضة كفيلة بإرسال الخاطب إلى فتاة غيرها. وعندما صار كلّ الخُطّاب المحتملين في الحرب أكملت سنوات الانتظار، مرتدية القلادة على وجه الصورة، لا تخلعها حتى عند الاستحمام.

بصخبهما، أعادا إلى مسعدة ذكرياتها مع عمّه عليّ، تصفر ريح الحرمان في آذانهما فيفعلانها في أيّ مكان وفي أيّ وقت. أخذ يحثّها على تعويض تأخيره واللحاق بأبناء إخوته الذين غطّوا جيل النصر بدفعة مواليد ثانية.

ـ إحنا بقى نقابلهم بجيل السلام.

قال مازحًا، بينما يتسمّع إلى بطنها عندما أخبرته بانقطاع دورتها. ولم تلحقهم سميرة فحسب، بل زادت عليهم. لم تلجأ إلى موانع الحمل، سعيدة بالقطط التي تنجبها بعيون خضراء مثل عيونهما، فكانوا مثل أسرة من المستوطنين نسيها استعمار مرّ بالعشّ.

عاد إلى عمله بمكتب البريد، رئيسًا على ثلاثة من الموظّفين عُيّنوا في غيابه، وتوسّع على أيديهم عمل المكتب الذي لم يعد مكانًا لإرسال وتلقّي الخطابات فحسب، بل خزينة لصرف مرتّبات التقاعد ومعاشات أسر الشهداء. لكنّه لم يدخل المكتب، بل عاد إلى جلسته مع من تبقّى من أصدقائه القدامى، بمن فيهم صهره الذي أقلع عن التدخين مضطرًّا بعد إصابته بجلطة تركت أثرها واضحًا في حركته الواهنة.

لم يغيّر عادل من برنامجه اليومي، وعندما يكون توقيعه ضروريًّا يخرجون إليه بالأوراق ليوقّعها. وبعد عدد من التحقيقات والجزاءات، بسبب نقص في عهدة لا يعرف عنها شيئًا، ترك مصلحة البريد، باصقًا على محقّقين لم يصدّقوه بينما صدّقه الإسرائيليّون، عندما نفى معرفته بأيّ شيء يتعلّق بالحرب.

تدخّل منصور، وحصل له على وظيفة محصّل في أتوبيس عامّ، لم يتجاوز عمله فيها بضعة أشهر، لأنّ الشركة لم تتحمّل الارتباك والخسارة التي سبّبها في كلّ خطّ جرّبوا تشغيله عليه. تجلّت موهبته في سرعة تكوين الصداقات في قرى لم يرها من قبل. يوسّطونه لإقناع السائق بالتوقّف أطول من اللازم في هذه المحطّة أو تلك.

ـ بسّ الواد ياكل لقمة.

يستمهله الرجل حتى ينضج ذكر البطّ الذي ذبحته زوجته لابنها المجنّد، ولن تدعه يذهب قبل أن يأكل من يديها. يساعد أحدهم على الصعود بخروف يمأمئ ويبوّل في طرقة الأتوبيس. يدعوه صاحب مقهى على الطريق إلى كوب شاي مع فصّ أفيون. فإذا احتجّ أحد الركّاب صرخ فيه:

ـ مالك مصروع؟! وراك الديوان؟!

يضرب انتظام الخطّ، ولا يعود أحد يعرف متى يأتي الأتوبيس ومتى يمضي. ولم يتوقّف الضرر عند هذا الحدّ، بل كان يحتلّ المقعد الأوّل كراكب مميّز، يواصل سخريته من الركّاب المتهيّبين الذين يستقلّ بعضهم الأتوبيس للمرّة الأولى في حياته، يسبّ ويبصق عندما يستفرغ أحدهم بسبب الدوار. وعندما ينادونه ليدفعوا له يستمهلهم مرّة وأخرى قبل أن يزعق:

ـ هي الفلوس بتقرّصكم؟!

بعد مدّة من الذهابَ والإياب المجّاني، يتصوّر المسؤولون عن

شركة النقل أنّ الناس كفّت عن السفر على ذلك الخطّ، لكنّ المفتّش يصعد إلى الأتوبيس الممتلئ بالمسافرين، ويكتشف أنّ السرّ يكمن في المحصّل الكسول المتأفّف، يخصمون أيّامًا من مرتّبه وينقلونه إلى خطّ آخر فيتصرّف بالطريقة نفسها، حتى صدر قرار بطرده.

أحسّ بضيق سميرة؛ فاضطرّ إلى تعلّم حرفة تمثّل أقسى هجاء لوسامته وأناقته؛ أتقن إصلاح بوابير الجاز. انتظم في عمله بتبتّل عجيب؛ يرتدي مريلة ويمضي الساعات أمام المواقد التي تهبّب بشرته بدخان الجاز، وفي آخر النهار يعود إلى سميرة التي لم يأخذ الزمن من جمالها، لكنّه طمره تحت طبقة من الحزن أثخن من طبقة القطران على وجهه.

تخلّى عن سهراته، وصار يكافح من خلال القليل الذي يكسبه للحفاظ على مظهر أبنائه، إلّا أنّ الحياة التي عاندها طويلاً منحت نفسها الحقّ في معاندته هذه المرّة؛ أغرقت القرى بمواقد من الصين تعمل بضفائر من الخيط حلّت محلّ المواقد النفّاثة.

وفي يوم استيقظت سميرة ولم تجده بجوارها. بحثوا عنه فلم يعثروا على أثره، بينما يعود المسافرون من المدن بحكايات، يقسم أحدهم أنّه رآه يعمل حمّالاً في سوق الخضار. وما إن يهمّ أبناء إخوته بالذهاب إلى السوق حتى يقسم آخر بأنّه رآه يبيع أمشاط الشعر والإبر ومغلّفات البطاقات في الأتوبيس، وعندما التقت عيونهما أحسّ عادل بالخجل وقفز من الأتوبيس المسرع.

انتظرت عودته شهرًا بعد آخر وعامًا بعد عام، متحمّلة تبكيت

أمّها وعمّتها الفخورة بقوّة بصيرتها.

ـ دي قلّة مسؤوليّة، الحرب كانت وضع تاني.

قالت أمّها، ولم يكن بوسع سميرة الاستمرار في تلقّي صدقات العائلة، وسط غلاء يطحن الجميع. طلبت الطلاق إداريًّا بعد اكتمال خمس سنوات من غيابه، وفي اليوم الذي تزوّجت فيه، عاد إلى العشّ، لينتحب تحت شبّاكها.

لم تنجح شكوى الزوج لأبناء إخوته في جعله يتوقّف عن الطواف حول بيته طوال الليل؛ فاضطرّ الرجل إلى تطليقها والعودة إلى زوجته العاقر متنازلاً عن حلم الإنجاب الذي تزوّج سميرة من أجله، لكنّه في ستّة أشهر كان قد تعلّق بأبنائها؛ فبدأ دوره في الدوران حول السراي لرؤيتهم وانتظارهم في طريق ذهابهم إلى المدرسة وعودتهم منها.

للمرّة الثانية وضع عادل يده في يد عبد السميع الجحش، يقرأ الفاتحة ويردّد كلّ منهما وراء المأذون عقد زواج، لم يتغيّر فيه سوى صفة سميرة، التي صارت «الثيّب» بدلاً من البكر الرشيد. وبعد انصراف المأذون اصطحبها عائدًا إلى الغرفة التي شهدت هذياناتهما. الغرفة نفسها بكلّ تفاصيلها. لكنّ كلًّا منهما لم يجد الشخص الذي يعرفه.

لم تتعرّ من كلّ ملابسها مثلما كانت تفعل لإشعاله دفعة واحدة. خلعت جلبابها فقط، كاشفة عن قميص نوم أحمر. أحسّ بغصّة الهياج المُرّ التي يمكن الشعور بها في سرير عاهرة. أطفأ النور من دون أن ينظر مرّة أخرى إلى القميص الذي يؤطّر تفاصيلَ

لا يحتاج إلى عينيه لكي يراها. استلقت بجواره مباعدة بين فخذيها بكياسة امرأة تعرف أصول الضيافة. مدّ يده إلى نعومة الموضع المنتوف. تذكّر بأسى مفاجأة الضفائر البهيجة ليلة زفافه الأوّل. تجرّد من ملابسه ومزّق قميصها بإحساس منتقم أكثر من أيّ شيء آخر. ألقى بنفسه فوقها، وسرعان ما همد غريقًا وسط بللها. تدهور إلى جانبها، لا يعرف كيف يجعلها تتكلّم عن زواجها من الرجل القصير الذي يكبره بعشرين عامًا، ويكبرها بثلاثين. تمنّى لو تكذب عليه وتقول إنّه لم يمسسها، أن تشتم عليه، أن تسخر من قِصَره، أو من صلعته التي تنام تحت عمامة بطول نصف قامته. كانت تعرف ما يريد من دون أن يتكلّم، لكنّها لم تر ضرورة للإساءة إلى رجل لم يسئ إليها.

أخذت الغيرة والرغبة في التلصّص على لياليها مع الزوج السابق تكبر، وتؤجّج ناره، حتى عاد إلى التحرّش بها أينما كانا، في زوايا البيت، في الغرفة، في الحوش المترب للسراي، وبدا أنّهما وجدا إيقاعهما مرّة أخرى، لكنّها كانت نارًا بلا متعة، شديدة الاشتعال، سريعة الانطفاء، لا تترك وراءها إلّا طعم الأسى في الحلق. بدأ في توجيه الأسئلة المباشرة إليها، وهي لا تذكر اسم الرجل إلّا بتبجيل، باذلة كلّ ما بوسعها لكي تتحاشى البوح بأيّ من تفاصيلهما السرِّيَّة. تحكي عن طيبة الحاجّ سليمان، عن ملاعبته لأولادها وعطفه عليهم، تُلمِّح إلى متاعب صحِّيّة عاديّة لا يمكن أن يستشفّ منها كيف كانت قدرته في الفراش، بينما يتصاعد الغضب على وجه عادل؛ فتسأله مختنقة بدموعها:

ـ عايز تعرف إيه؟

تنخرط في البكاء فيبكي معها، بكلّ تعاطف واشمئزاز وقهر من تعرّضت زوجته لمحنة اغتصاب، دون أن يخمد غيظه من المرأة التي عرف كلّ شيء عنها وهو بعيد في المعتقل الإسرائيلي، بينما ظلّت شهورها الستّة مع الحاجّ سليمان النُصّ معتمة مثل قبر.

أخذت تستثقل اشتعالات عادل وانطفاءاته السريعة، حتى صارت تتحاشى الانفراد به في مكان، محاولة دفعه للتفكير في البحث عن عمل جديد، بدلاً من العيش في السراي على معونات أولاد عمّه وأولادهم. في إحدى زيارات منصور الذي صار رئيسًا لمدينة منيا القمح، وضعت سميرة في يده أصل شهادتها، طالبة منه وظيفة.

ـ أيّ حاجة أستريح فيها ساعتين من عمّك.

حصل لها على وظيفة في سنترال منيا القمح، فصارت تسافر يوميًّا وتعود مهدودة، ملهوفة على أبنائها، تنشغل باحتياجاتهم. ارتدت الحجاب، وبدأت الانتظام في الصلاة، ثم بدأت تمسك بالمصحف في يدها كلّما انتهت من حصّتها في أشغال البيت، تشرع في القراءة بأخطاء تصلحها مباركة حتى ينفد صبرها، فتنهرها:

ـ قومي يا بت يا أمّ شخّة شوفي ولادك.

منذ وفاة الحاجّ محمود، عادت العشّ بلا عمدة. لم ترتدّ مجهولة، مثلما كانت قبل أن تكتشفها بعثة محمّد علي في بداية القرن التاسع عشر، لكنّ الحكومة لم تعد ترى ضرورة للنظر إلى القرى. ولم تتمتّع بحالة المساواة التي عاشتها قبل أن يُثَبِّت الخديوي مكانها على الخريطة؛ بل على العكس، كانت أموال المسافرين إلى السعوديّة وإمارات الخليج تهبّ في الإجازات الصيفيّة لتعصف بالدور الطينيّة، التي تُسوّى بالأرض ويبدأ الحفر لبناء أخرى مكانها بالطوب الأحمر والخرسانة. وعندما وقف الخليج على حافّة الإفلاس بعد تمويل حرب العراق ضدّ إيران، ثم حرب أميركا ضدّ العراق، انقطع الطريق إلى الشرق، لكنّ طريق الشمال انفتح للسفر إلى أوروبا الأكثر سخاء. واشتعلت المنافسة. كلّ مسافر جديد لا بدّ أن يتجاوز من سبقوه في الارتفاعات. عمارات من خمسة وسبْعة طوابق، يشرع الشباب في تأسيسها،

ويسافرون لضخّ مزيد من الأموال، حتى تكتمل، ويعودوا ليسكنوا في طابق أو طابقين مع عائلاتهم، بينما تبقى شبابيك الطوابق الأعلى للشمس والمطر، وتتّخذ الطيور من شرفاتها التي تكاد تتماسّ مع الشرفات المقابلة مكانًا لأعشاشها.

ولم تعد ثرثرات من تبقّى من الفلّاحين على المصاطب عقب صلاة العصر تدور حول البذار أو الحصاد، أو أنسب طريقة لمواجهة آفة أصابت محصولاً، بل حول أسعار الحديد والإسمنت وأحجام قواعد الأعمدة التي صاروا يتبارون في زيادتها. مهندسون من أبناء العشّ يصمّمون العمارات، ومقاولون ينفّذونها، ولا يستغربون طلبات زبائنهم.

ـ عاوزك تحطّ لي اتنين وعشرين عمود.

يطلب أحدهم، ويعرف المهندس أنّه يريد أن يتجاوز عدد أعمدة جاره، بصرف النظر عن مساحة المبنى أو ارتفاعه أو حجم العمود. ولا يكون أمامه إلّا تلبية هذه الطلبات حتى لا يهرب الزبائن إلى مهندس آخر.

أصبح السير في شوارع العشّ كافيًا لمعرفة الدار الحزينة التي لم تنجب ذكورًا يهدمونها ويعيدون بناءها، أو التي هاجر سكّانها إلى المدينة؛ فبقيت مثل عشّة غارقة تحت حارات ارتفعت بطبقات التراب الناتجة عن هدم الدور المجاورة. وصار نطق كلمة السراي كافيًا لإثارة السخريّة من البناء الأصفر الذي تطبق عليه العمارات من كلّ جانب، بينما تداعى سوره، وصارت الكلاب والقطط تجتازه بحرِّيَّة، تنكش بحثًا عمّا تأكله وسط أكوام من ريش

الدجاج وأكياس البلاستيك المتساقطة من شبابيك العمارات المجاورة.

ولم يكن التهدّم وحده ما يثير سخرية أصحاب العمارات من البيت القديم المتمسّك بفخامة اسم «السراي»، بل غرابة سكّانه من عجائز نبتت لكبراهنّ أسنان جديدة على أبواب قرن ثان من عمرها، ورجلين أحدهما كسيح والآخر أقعدته قلّة الحيلة، مع أولادهما الذين تبدو مظاهر الفقر في وجوههم وملابسهم.

اقترب عادل وعليّ كما لم يقتربا من قبل، بعد أن أفلس الدكّان لمرّة أخيرة ولم يتبرّع أحد بإعادة تعميره؛ فأصبحا يقضيان وقتهما معًا، يحاول كلّ منهما الاقتراب من عالم الآخر. تعلّما معًا لعب الشطرنج بدلاً من السيجة، وصار عادل يستطلع الكتب التي يحتفظ بها عليّ. يشعر بأنّه معوّق مثل ابن أخيه الذي لم يحقد يومًا على فقد ساقيه وحرمانه من العمل مهندسًا، لكنّ ألمه هو زواجه من هانم، الذي اعتبره أبلغ إساءة يمكن أن يتلقّاها شخص من الحياة. يخجل عندما يرى الفرق بين مظهر أبنائه وطريقتهم في الحديث ومظهر أعمامهم أبناء عادل، متأكّدًا أنّه الفرق بين الأمّين.

ـ ربّنا بيقول المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وولادي ما ينفعوش زينة في ميتم.

يقول، لمن يلومه على ضجره من أولاده بعد أن يئس من تهذيب سلوكهم أو مظهرهم، لأنّ المرأة التي يصفها بالطويلة «مثل السنة السوداء» تنسف بجهلها كلّ ما يلقّنه لهم. وعندما يمازحونه بأنّه يحبّها، وإلّا كان بوسعه أن يطلقّها، يتساءل بمرارة:

ـ إزّاي، دي زيّ السنطة الفتنة، ما تقدرش تقرب من شوكها المفرّع من الجدور.

على ما في هذا الردّ من كراهية؛ فإنّه يعكس أيضًا تغيّر المعادلة بينهما. كانت قد تخلّت عن الحياء الذي تعاملت به في بداية زواجهما، سعادة البيه والباشمهندس صار يُنادى باسمه، ثم صار بإمكانها توجيه الإهانات والتندّر على عاهته.

أخذ يركّز اهتمامه على نفسه؛ أناقته وثقافته، يكوي ملابسه، يطلب الكتب من أبناء إخوته: روايات، دواوين شعريّة، كتب في السياسة والعلوم، يقرأ في كلّ اتّجاه، كطريقة لذمّها بالإمعان في الاختلاف عنها أكثر ممّا للاستمتاع. وبدأ في كتابة محاولات قصصيّة وشعريّة وخواطر يقرأها على عادل، ويحاصر بها أبناء عمّه القادمين من القاهرة ليبحثوا له عن طريقة لنشرها. وبدأ يراسل بنفسه الصحف، ويتابع الجريدة يوميًّا حتى يئس؛ فاستقرّ على كتابة أزجال يهجو فيها هانم، يلقيها على مسامع من يلتقي به، وتستقبلها هي بمزيج من الاستخفاف وعدم الفهم لما تتضمّنه من إساءات، وأحيانًا بفخر لكونها صارت موضوعًا للأشعار.

ويسأله عادل كلّما رأى بطنها ينتفخ بحمل جديد، كيف يتضاجعان على الرّغم من كلّ هذه الكراهية.

ـ نداء الضرورة، مرّة في السنة.

يردّ بتلقائيّة مقنعة، وكأنّه فكّر بنفسه في هذه المفارقة من قبل، مواصلاً التدهور أمامها وأمام أولاده الذين يحملون مثلها عقول بغال، بدت في تعثّرهم بالدراسة وانعدام التهذيب الذي يتصرّفون به

مع معلّميهم. أمّا هانم فلم تعد تترك لهم فرصة للتندّر بأقواله التي سارت أمثالاً في العشّ، مثل وصفه لها بأنّها «عصاية منعاصة خرا نسوان» أو فتواه بأنها لن تدخل النار بصفتها امرأة؛ بل ستنصهر وتُصبّ أحذية للكافرات يدخلن بها جهنّم!

ـ أهو ده اللّي هو فالح فيه.

تردّ باختصار، ماضية في تثبيت أركان دولتها بمزيد من الأبناء. تنام حتى ساعات متأخّرة، وتتركهم للجدّتين مسعدة ومباركة، تطعمانهم أيّ شيء قبل ذهابهم إلى مدارسهم. أحيانًا لا تجدان غير الخبز والشاي بلبن المعزة. وعندما رأت الجدّتان الحفيد القعيد يتضاءل تحت هموم خمسة صبية، همست لها مباركة:

ـ ياختي كفاية عيال بقى هتموّتيه؟

ـ عايزة بنت وهجيبها، إن ما كانش قادر، الرجّالة على قفا من يشيل.

تأكّدت العجوزان من أنّ هانم معضلة بلا حلّ. ترسلان بأبناء عليّ وعادل إلى المدرسة وتجلسان معًا على الأرضيّة المدحدرة للفراندا، وقد تبادلتا طباعهما. تنظر مسعدة صامتة إلى ما يبدو من فضاء قليل، تحاول اختراق العمارات العالية لتستشفّ ما وراءها من أفق، بينما تحدّث مباركة نفسها بكلّ ما لم تتكلّمه من قبل. تُعيد شريط حياتها من بدايته، وتمضي الساعات تكلّم أمّها، وتتذكّر منتصر والخالة حميدة، وتعلّق على مشاهد لم يرها غيرها.

ـ قال هنلاقي أحسن منّك؟ ليه كنت عميا ولا مكسّحة يا معفور!

تعرف أولاد عليّ وعادل بالشبه دون أن تتذكّر أسماء أيّ منهم، لكنّها لا تكفّ عن سؤال الأولاد والشباب الذين يعودون في زيارات مع آبائهم، ولا يبدو عليها أنّها استطاعت أن تتذكّر ما يعنيه من يردّ عليها بأنّه يوسف أحمد أو سلامة منصور. لا يبدو عليها أنّها سمعت جواب ما سألت عنه، وبعد لحظات صمت تسأل الشابّ.

ـ ماشفتش نجيب ولّا جمال ولاد عمّك؟

ـ ولاد جدّي يا حاجّة، بيسلّموا عليكي.

يعرف الشابّ من آبائه اسمي التوأمين، ابني جدّهم سالم اللذين هاجرت بهما خركليا إلى كندا مع زوجها الثاني.

تتعلّق مباركة بالشابّ فينحني لها، تقبّله، وتعود إلى أحاديثها مع الموتى، ثم تنتبه فجأة إلى الجالسة بجوارها تمصمص شفتيها، تسألها بريبة:

ـ إنت مين ياختي؟

ـ مسعدة يا حاجّة.

ـ مسعدة؟ وساكتة ليه ما بتشخريش يا نتاية؟

ـ وانت ما كنتيش نتاية؟ ولّا بسّ أنا، عشان كان اللّي ف بتاعي على لساني؟!

تعرف مسعدة أنّها ستبدأ في تذكيرها بصخب غراميّاتها مع عليّ، تباغتها قبل أن تردّ:

ـ العصر قرّب، صلّيت الضهر يا حاجّة؟

ـ يا اختي يا ما صلّينا.

تقف مسعدة وتأخذ بيدها كي تشغلها بالوضوء وتمنعها من الغلط. تخلّص مباركة يدها وتربّت على صدرها مستدركة:

ـ زينة!

وتدخل لإيقاظ المرأة الصامتة منذ أشهر.

عندما ماتت أمّها أمعنت زينة في الانزواء، معتبرة نفسها غريبة على العائلة وعلى العشّ كلّها، لكنّها عادت لتجلس مع العجوزين، ممتنّة لإصرارهما على إخراجها من عزلتها. اجتهدت لتثبيت خيوط القرابة مع جيل من العائلة لم يعرف شيئًا عن «الفلسطينيّة الحلوة» كما كانوا يسمّونها. لكنّها منذ أن عرفت باستشهاد رياض لم تعد تغادر فراشها إلّا عندما تدخل مباركة لإنهاضها. تنام محتضنة الجريدة المهترئة على صورة ابنها الذي يعرفه الآخرون باسم «أبو اليُسر»، القيادي في تنظيم حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينيّة الذي اغتيل في قبرص.

استمعت إلى الخبر في الراديو، ولم يعن لها الاسم الحركي الذي يحمله ابنها شيئًا، لكنّ الصحف نشرت تاريخ حياته واسمه الحقيقي، ولم يكن ناجي الذي جاء بالجريدة يقصد شيئًا عندما تركها أمامها بإهمال.

نشرت الصحيفة اسمه الحقيقي: رياض أبو شرخ، وقصّة حياته منذ نزح طفلاً مع خاله إلى سورية، وتلقّيه تعليمه في مدارس

حمص، قبل أن يأتي إلى مصر ليلتحق بكلّيّة طبّ الزقازيق ويؤسّس خليّة الجهاد بها. تغاضى الأمن عن الخليّة الفلسطينيّة في البداية وعندما تسارع انضمام الطلّاب المصريّين إليها، صدر قرار فوري بترحيل رياض.

كان في السنة الرابعة، وغادر إلى سورية مرّة أخرى، ليعيش متنقّلاً بين دمشق وبيروت باسم أبو اليسر، قبل أن يجدوه مقتولاً في غرفته بأحد فنادق الجزيرة التي دخلها بجواز سفر ليبي، باسم عبد السلام الأصفر.

انتهت زينة من القراءة وصرخت صرخة واحدة صمتت بعدها. لم ينجحوا في حملها على البكاء، وظلّت على هذا الصمت. لا تخرج منه إلّا لتناجيه:

- شو هالقلب اللّي ما يحسّ إنّك جنبي؟

طغى ألم فرصة احتضانه المضيّعة طوال خمس سنوات قضاها بالزقازيق على ألم الفراق منذ قذفه زياد فوق الشاحنة، وعلى خبر الموت ذاته.

- هادا كلته ما كان بإيدي، بسّ بالزقازيق؟!

اعتبرت أنّ المصادفات الأخرى عاديّة ويمكن أن تقع، لكن أن يكون ابنها على هذا القرب، ولا يحسّ به قلبها ولو في حلم؛ فهو ذنبها الذي أخرسها وجمّد الدمع في عينيها.

لم يكن الهاربون من حزن السراي إلى المدن أقلّ تداعيًا وهم يقاتلون للعيش مستورين في ظلّ الغلاء المتصاعد. رغم وظائفهم

الجيّدة، لم يعد بوسعهم تلبية أحلام الشباب المتطلّعين إلى تقليد زملائهم من أبناء التجّار والحرفيّين، والعائدين بأموال السفر الذين يقودون السيّارات الفخمة ويرتدون الماركات العالميّة من الملابس وينفقون بجنون.

ـ الراجل ما كدبش لمّا قال أكتوبر آخر الحروب مع إسرائيل.

يقول مصطفى، معلّقًا على المقولة الشهيرة للسادات الذي قاد العبور ووقّع الصلح، وتفرّغ لتربية زبيبة كبيرة في جبهته، وجماعات الإسلام السياسي في الجامعات، فاتحًا المجال لحروب بين المصريّين أنفسهم، بدأت بغربلة جسده بالرصاص في استعراض ذكرى النصر.

تسرّب الأسى إلى صوت الرجل الذي عاد من الحصار مصمّمًا على حبّ الحياة. قاوم مصطفى كامل المرض قدر استطاعته، منتبهًا إلى مفارقة انتهاء الحرب على الحدود، بينما بدأ القتل بالتطرّف أو مرضًا بالفشل الكلوي والكبدي الذي تحوّل إلى قضيّة شخصيّة، لم يتمكّن من الفصل فيها.

وصل مصطفى إلى درجة مستشار، وصار رئيس محكمة، وأخذ بطنه يتضخّم وساقاه تمتلئان بالماء الراشح من كبده، وكان ما يؤلمه كرجل قضاء أن يظلّ موته الذي يراه قريبًا جريمة ارتكبها مجهول بطعام أو ماء ملوّث.

جدّد ارتباطه بالعشّ، يوصله السائق في نهاية الأسبوع ليقضي يومين بعيدًا عن مشاجراته مع زوجته وأولاده، الذين لا يكفّون عن لومه على طريقته في الأكل التي لا تتناسب مع تدهور كبده المُصابة

بالتهاب ڤيروس سي الوبائي. ولم يكن الابتعاد عنهم هدفه الوحيد؛ إذ صار يقضي الساعات في المقابر، يتجوّل بين ممرّاتها، يتعرّف على الجيران الذين سيستقرّ بينهم، يقرأ لهم الفاتحة، قبل أن يستريح أمام مقبرة العائلة ساعة الغروب.

ـ عايز أتعوّد على المطرح.

يقول مبتسمًا كلّما رأوه عائدًا يلهث وينفض الغبار عن جلبابه الواسع. شرع في ترميم مقبرة الأسرة وإعادة طلائها، وزرع بنفسه شجرة توت وواظب على ريّها كلّ أسبوع؛ فأخذت تنمو شبرًا في اليوم، كأنّ شيطانًا ينام بين جذورها.

يضع رأسه في رأس عليّ، ولا ينتهي الحديث عن ذكرياته في سنوات التجنيد، التي يُدين لها بأجمل قراءاته، وبعشقه لأمّ كلثوم وعبد الوهاب وفيروز، أمّا تجربة الحصار فقد علّمته كيف يعيش الحياة بخفّة كما لو كانت دورًا في فيلم أو مسرحيّة. تعايشت نجاة ابنة عمّته، بتسامح أمومي، مع حكاياته عن الفتيات الجميلات اللائي لا تعرف حدود علاقاته بهنّ، بسبب البهجة الصادقة التي تبدو على وجهه عندما يتحدّث عن إحداهنّ.

حتى أبناؤه أحبّوا طريقته في الحياة؛ إذ يرى جوهر الإنسانيّة في الأنوثة، وجوهر العدل في الجمال، ويضحكون عندما يصف بنتًا جميلة بأنّها «أحلى حاجة في الدنيا» بعدها يأتي الطعام الحلو؛ يتفنّن في إعداد طبق السلطة بخطوات توصّل إليها بالتجربة، ويفاجئهم دائمًا بأنواع الخضراوات التي يضيفها. عرف كيف ينجو بأطفاله من سُعار الإعلانات التليفزيونيّة عن البطاطس المحمّرة

والمياه الغازيّة، وتمكّن من تعليم ألسنتهم احترام الطعوم الأصليّة في خلطاته المبتكرة من الخضراوات واللحم والفواكه التي يدفع بها في الفرن بطواجن من فخّار.

ـ خلطبيطة مش بسيطة.

هكذا كان يصف لهم أكلاته، مستحوذًا على دهشتهم الطفوليّة.

لم يعد قادرًا على الوقوف بالمطبخ، وصار أبناؤه يتحاشون طلب الأكل الدسم من أجله، يتمنّون، مثل أمّهم، أن يستمتع بكلّ ما يحبّه، باستثناء الطعام الذي صار يُدخله إلى المستشفى كلّما تخلّى عن الجبن المنزوع الدسم.

يضحك، وهو يحكي لعليّ كيف ضرب ابنه مجدي الذي يشير إليه تحبّبًا بـ «الوغد»، عندما أراد أن يمنعه من الخروج في لحظة غيبوبة، وكيف تآمر مع نجاة لوضع قفل على الثلّاجة، لكنّه لم يعد يكترث بثلّاجة البيت طالما هناك مطاعم لديها خدمة التوصيل.

ـ كلّ ما ألاقي نفسي لوحدي، أطلب نصّ كيلو كباب، آكله وأسلّم نفسي للمستشفى.

كان يتوقّع نوبات الغيبوبة بعد كلّ خروج على قيود الأطبّاء، ويذهب إلى غرفته بالمستشفى ماشيًا قبل أن يُحمل. وكان يعرف أنّه سيدخل في واحدة من تلك الغيبوبات دون أن يعود؛ فوضع بين يدي عمّه عادل لوحًا من الرخام داخل كرتونة مغلقة أوصاه بلصقه على المقبرة في اللحظة التي يفتحونها لاستقباله، نقش عليه عبارة يخاطب بها مشيّعيه: «الحياة معجزة، دعوني أنام، وانصرفوا فرحين لأنّ معجزتكم لم تزل قائمة».

سمعت عطيّة طرقًا على الباب، وعندما قامت لتفتح لم تجد أحدًا. نادت «مين» أجابها «أنا يوسف، قومي ادفني ستّك» وسمعت أقدامًا تتباعد على السلالم.

عندما استيقظت صباحًا، تذكّرت ما حدث بوضوح، لكنّها لم تعرف هل كان حقيقيًّا أم حلمًا، وهل كان من ناداها أبوها الذي لم تره، أم يوسف عبد المقصود، لكنّها استجابت للنداء وأملها أن يكون من ناداها هو الشابّ الذي كان الأكثر هيامًا بها بين شباب العائلة؛ لأنّ هذا يعني أنّ ما مضى من الزمن كان كافيًا للغفران.

ارتدت ملابس سوداء، وأعدّت حقيبة صغيرة، وقادت سيّارتها إلى العشّ. وعلى الرّغم من مفاجأتها بتضاعف حجم القرية وتحوّل دورها إلى عمارات عالية بحوائط طوب بلا كساء مثل عشوائيّات القاهرة، عرفت طريقها إلى السراي المتداعية. ضجيج السيّارة التي توقّفت أمام السور حمل الحاجّة مباركة على التطلّع إلى البوّابة؛

فرأت الواقفة أمامها بحقيبة صغيرة في يدها.

ـ رجعت يا لبوة؟

سألتها بلهجة تبدو توصيف ماض غابر أكثر منها مسبّة؛ لأنّ المرأة التي اقتربت من الستّين، لم يعد لديها إلّا طبقات الإثارة الخفيّة التي تحتاج إلى حدس رهيف لمعرفة ما كانت عليه في شبابها. صارت تشبه، إلى حدّ كبير، صورة مباركة نفسها، عندما عادت بها من إقامة الزقازيق، رضيعة على صدر أختها.

لم تشمّ في السراي رائحة الموت التي تعتقد أنّها ليست سوى رائحة القيء والغائط التي زحفت فيها أثناء الكوليرا. ولم تشمّ خلطة روائح الجبن الرومي والحلاوة الطحينيّة والزيت والسمن التي كانت تهبّ من غرفة الخزين، ولا تهزمها إلّا روائح الطبخ والمهلّبيّة بالفانيليا التي كانت السراي تعبق بها، قبل أن يضعوها فوق العربة الكارو مع قرص الخبز وجرّة الماء غذاء لعمّال المصنع.

لم تكن هناك سوى رائحة عظام قديمة لثلاث من النساء، تشبه رائحة كوافيل الرُضّع.

حتى رائحة القذارة التي أشاعتها هانم في غياب عطيّة لم تعد موجودة، بعد أن غادر عليّ وعادل وراء أولادهم الذين سافروا إلى إيطاليا، وبنوا عمارات على الزراعيّة مباشرة امتلأت بأحفاد لم يعد أحد يعرف عددهم، ولم يبق في السراي سوى مباركة ومسعدة وزينة، اللائي يبدون من عمر واحد، على الرّغم من أنّ عمر إحداهنّ يقترب من مجموع عمر الاثنتين. نظرت عطيّة للنساء الثلاث، وخطر لها أنّ هناك سنًّا لا يعود الزمن بعدها قادرًا على

ترك بصمات جديدة على الجسد.

- هتقفي كده كتير؟

سألتها مسعدة، ومسحت لها بذيل جلبابها مكانًا بجوارهنّ على الدكّة التي غاصت قوائمها في الأرض. جلست عطيّة ووضعت حقيبتها بين قدميها.

- تشربي قهوة؟

سألتها زينة لتكسر صمتًا طال، ولم تنتظر الإجابة، قامت وأحضرت صينيّة عليها كنكة القهوة والسبرتاية وثلاثة فناجين أصابتها بالدهشة، كانت فناجين البيشة المخروطيّة بلا يد، التي لم تعد تُصنع، هي نفسها فناجين جدّها سلامة. أشعلت زينة السبرتاية ووضعت فوقها الكنكة وعاد الصمت نفسه. أحسّت أنّها في لعبة اختبار قوّة بينها وبين الثلاث، تريدهنّ أن يحكين ويردن الاستماع منها، حتى سألتها مباركة:

- مش هتغيّري هدومك؟

أحسّت بأنّ جدّتها ألقت إليها بطوق نجاة. حملت حقيبتها ومضت إلى الداخل. مضين وراءها، وأشارت إليها مسعدة لتتخيّر الغرفة التي تريدها، لأنّ كلّ غرف الطابق الأوّل فارغة؛ حيث ينمن على سرير واحد في غرفة مباركة.

- بناخد حسّ بعض.

أوضحت زينة، إلّا أنّ عطيّة قرّرت أن تنام في غرفتها بالطابق الثاني. عندما وضعت قدمها الأولى خلف العتبة عطست بقوّة من

رائحة التراب والعثّة في الغرفة المهجورة، ووقفت مفعمة بشعور غريب عندما رأت السرير نفسه، والدولاب الذي أخفت فيه الكثير من الأسرار وسط طيّات الملابس، والخطوط المتشابكة كمصيرها التي رسمتها على خشب الشبّاك، عندما كانت تقف خلفه تتسلّى بدوران الشباب تحت غرفتها، وستبقى وقتًا طويلاً بعد ذلك تحاول اختبار قدرتها على وصف خليط الإثارة والخوف والفرح والفضول والقلق الذي انتابها في تلك اللحظة إلى أن وجدت التشبيه المناسب.

ـ زيّ اللّي محبوسة في أسانسير بيقع.

لم تكن متأكّدة إن كان من يستمعون إليها يعرفون معنى الانزلاق المدوّخ في مصعد يهوي، لكنّ هذا ما رأت أنّه يقترب من التعبير عن إحساسها عندما وقفت في مواجهة صباها. أخذت تتبع الرسوم والخطوط التي أُضيفت إلى خطوطها على الشبّاك وأبواب الدولاب والحوائط، محاولة أن تستشفّ شيئًا عن جنس وعمر من سكنوا الغرفة بعدها. أهمّ أثر لمرور الزمن بدا في الصور المنزوعة من المجلّات، التي تؤكّد أنّ آخر من سكن الغرفة صبيّ وليس فتاة؛ حيث حلّت هيفاء وهبي ونانسي عجرم وروبي على الورق المصقول محلّ نجومها عبد الحليم حافظ، وأحمد رمزي، وعمر الشريف، بألوانهم البدائيّة على ورق مطفأ. قضت ليلتها في تنظيف الغرفة، وكأنّها تحاول أن تغذّي نداء بداخلها للبقاء؛ فليس من المعقول أن تبذل هذا الجهد من أجل يوم أو يومين.

كان يوسف أوّل من جاء لرؤيتها بعد يومين من وصولها. لم

تتصوّر أنّه وصل إلى هذا الحدّ من البدانة التي جعلته يبدو أكبر سنًّا منها، لكنّ الوقوف على عتبة الشيخوخة لم يجعل صوته أكثر ثقة. أخذ يتلعثم كما كان يفعل دائمًا عندما ينفرد بها في مكان، ذات التوتّر الذي كان يبدو في خطّه عندما يكتب إليها، وتحسّه في الإيقاع اللاهث لجمل الرسالة غير المترابطة.

أخذت تستمع إليه كالمنوّمة، وأبهجه شرودها متصوّرًا أنّها توصّلت أخيرًا إلى معرفة حجم تعلّقه بها، وبدأت تبادله الشعور ذاته، لكنّها كانت تستمع إلى صوته مندهشة من تطابقه مع الصوت الذي سمعته في منامها. همّت أن تسأله عن زيارة تلك الليلة، لكنّها أحجمت، وأطلعته بدلاً من ذلك على رغبتها في البقاء بالعشّ. وطلبت منه أن يساعدها في إحضار فرشها من الشقّة التي عاشت فيها وحيدة بعد رحيل زوجها.

ـ عبد الفتاح؟!

سألها يوسف، كأنّه يستغرب أن يتمكّن الموت من النجّار، ولم تندهش عطيّة من تذكّره لاسمه بعد هذا الوقت.

ـ لأ، جوزي التاني.

قالت بأسى يشبه الاعتذار عن المغامرة التي غيّرت مصيرها. حملها النجّار إلى بولاق الدكرور، ووجدت نفسها حبيسة فوق بيت يضمّ ورشته في الطابق الأوّل وفي الثاني شقّة زوجته وأولاده، والثالث غرفتان في آخر السطح أمامها فراغ يرشّه آخر النهار ويفرش الحصير، ليستقبل أصدقاءه في الليل. عاشت عامين في الغرفتين المسقوفتين بالخشب بلا كساء، ويسمّيهما «شقّة المزاج».

عندما طلبت الطلاق لم يراجعها وكأنّه كان ينتظر هذا، وانفصلا مثل غريبين التقيا على مفترق طريق. وجدت فرصة للعمل مندوبة تسويق لمستحضرات التجميل، وأرادت أن تكمل تعليمها. كان من المستحيل أن تستأنف دراستها في كلّيّة الطبّ، سحبت أوراقها، سجّلت نفسها بالفرقة الأولى بكلّيّة التجارة. عندما تخرّجت لم تكن بحاجة إلى الشهادة الجامعيّة إلّا كتذكار. تقدّمت في الشركة الخاصّة وتزوّجت محاسبًا فيها، لكنّها لم تنجب.

ـ العيب منّي، لكنّ المرحوم مصباح مرضيش يسيبني.

عاش معها حتى توفّي منذ عشر سنوات. طلبت تقاعدًا مبكرًا كان كافيًا مع معاشها من زوجها لتلبية احتياجاتها البسيطة. عاشت وحيدة، لا تغادر شقّتها إلّا كلّ عدّة أيّام، حيث لم تعد هناك أرصفة تصلح للمشي، تشتري ما يلزمها لأيّام قادمة وتعود بصداع من رائحة الدخان التي تلهب جيوبها الأنفيّة.

توافد الرجال على السراي لرؤية العمّة العائدة. ولم تشعر بينهم بالضيق الذي كانت تحسّه في إقامتها معهم بالدقّي بسبب الاشتهاءات المغلّفة برومانسيّة منافقة، بل بمتعة الإحساس المبهم لبدايات المراهقة في العشّ، حيث لم تكن تستطيع أن تميّز في اهتمامهم الإعجاب الذكوري من الحبّ الأخوي والحماية العائليّة، أمّا هم فلم يكونوا متأكّدين من سرّ انتشائهم في وجودها: هل هو الوله القديم؟ أم أنّهم سعداء لاستعادة صفحة من أعمارهم؟ أخذت زياراتهم تعيد الحيويّة للسراي، يغادرون أحيانًا ويتركون أحفادهم للجدّة عطيّة تتسلّى معهم على أجهزة الكمبيوتر التي أرسلها لهم

آباؤهم من إيطاليا، يدخلون على الإنترنت، وتتطلّع معهم الحاجّة مباركة بشغف على فيض الصور والكتابات، يدهشونها بخريطة الكرة الأرضيّة، ويشرعون في تكبيرها حتى تحتلّ مصر كلّ مساحة الشاشة، ويواصلون التكبير حتى يركّزون على الشرقيّة. وعندما يحدّدون لها موقع العشّ ويشرعون في تكبيره حتى تبدو السراي واضحة، تتمتم بالاستغفار. يطلعونها على بريدهم الإلكتروني، ويفتحون لها رسائل أصدقاء وصديقات من كندا وألمانيا واليابان لم يلتقوا بهم أبدًا، تضرب كفًّا بكفّ.

ـ ما بقاش فيه حاجة تخفى على بني آدم.

تشرد لحظات، تستذكر دهشتها عندما رأت الراديو للمرّة الأولى، وعندما شاهدت الصور في التليفزيون، وتسألهم:

ـ تعرفوا تبعتوا لربّنا رسالة على البتاع ده؟

يعرفون أنّها ستشرع في الشكوى من الموت الذي ظلّ يتخطّاها، بينما ينهكها بفقد الأبناء والأحفاد.

كانت الحاجّة مباركة تجلس على المصطبة أمام السراي، تحت شمس مارس الخجول، عندما هبّت نسمة محمّلة بالرائحة التي تعشّش في ذاكرتها منذ سنين لا تعرف عددها.

أخذت ترهف أنفها. ولم تدع لها الموجات المتكاثفة في كلّ مرّة مجالاً للشكّ، حتى رأت القادم يقترب بحقيبة صغيرة معلّقة في كتفه. شعرت بالدم يتدفّق في عروقها الميتة. ازدادت يداها ارتعاشًا، وأخذتا في التضارب أمام صدرها، وأرسلت شهقة واهنة.

ـ منتصر!

لم يُحتبس صوتها بسبب الوهن؛ وإنّما خوفًا على وقارها، لأنّها، وقد احتملت مهانة القعود، لا يمكن أن تتحمّل مهانة الخرف. استعاذت بالله، بينما كان القادم يواصل اقترابه. أبقت

الدهشة جفنيها المترهّلين مرفوعين إلى آخرهما. وعندما صار أمامها تمامًا أحكمت رائحته حصارها، حتى لم يبق لديها أيّ شكّ.

ضيّقت حدقتيها تتأمّله: القامة الربعة نفسها، الصدر المنفوخ، عنق الحصان، والوجه الأسمر المستدير بغمّازتيه، والعينان كثيفتا السواد والبياض. منتصر بذاته ولكنّه عاد فتى مثلما ذهب. انحنى مقبّلاً اليدين المرتعشتين، بينما أخذت تردّد هذيانها بصوت لم يعد يخرج:

ـ منتصر؟! منتصر لأ، لأ؟!

تعلّقت أصابعها المتقافزة بوجهه تتحسّسه في خبطات مرتعشة. ولم تنتبه كم من الوقت مضى ورأسه بين يديها، قبل أن تردّه بعيدًا عنها في رفق مردّدة:

ـ أعوذ بالله. . أعوذ بالله من الشيطان.

ـ آ أنا منتصر! حفيده، حفيده يا جدّة.

قالها المقرفص أمامها فتوقّفت اهتزازات يديها، وسلّطت شعاعًا متعافيًا من عينيها، من دون أن تتخلّى عن تمتماتها. ولم تسلّم بما سمعته، متشكّكة في قدرة الطبيعة على صنع هذا التطابق. عادت تتفحّصه بحثًا عن علامة يُفترض أن يتركها الزمن، مهما كان مروره، خفيفًا عليه، ويقينها أنّه منتصر، وقد اختبأ كلّ هذا الوقت في مكان لا تصله العثّة التي توغّلت في جسدها.

سوّت له مكانًا بجوارها. أشارت إليه ليجلس. حاصرتها

الرائحة؛ فعادت إلى تأمّلها الذاهل في وجهه. هل يصل التطابق بين شخصين إلى رائحة العرق؟! الرائحة التي لم تجد توصيفًا لها عندما استنشقتها للمرّة الأولى فقالت إنّها رائحة رجل. لكنّها وجدت بعد ذلك متّسعًا من الوقت لكي تشمّها في ناجي، وصارت تُعرف أنّها كرائحة طلع ذكر النخل.

أشارت إلى منتصر فرفعها من تحت إبطيها. أخذت تحجل بين يديه كبطة عرجاء فوق الأوراق المهملة وأكياس البلاستيك التي تملأ الشارع، تساندت على بوّابة السراي، فتحتها، ورفعها منتصر إلى العتبة دون أن يتخلّى عن دعمها من الظهر. انهارت على الدكّة وجلس بجوارها، يتشمّم بسعادة خراء الإوزّ وبعر الأرانب. ويتأمّل البيت الذي يبدو مسقط نور لدائرة من العمارات المرتفعة حوله.

تجمّعت النساء حول الضيف، يستمعن إليه من دون أن يفهمن صلته بالعائلة، لأنّ كبراهنّ لم تكن قد وُلدت عندما هجّ منتصر الجدّ من العشّ، لكنّ لمعة عيني مباركة جعلتهنّ يقدّرن معزّة العائد. أعدّت له مسعدة القهوة وانصرفت عطيّة تجهّز له غرفة، وللمرّة الأولى منذ وفاة نجيّة تذوّقوا طعامًا من يد الفلسطينيّة الحلوة الحزينة التي شمّت في منتصر شيئًا من رائحة فلسطين، وفي يقينها أنّه كان يجب أن يكون حفيدها، لو عاش رياض حياة طبيعيّة كباقي البشر.

غمره شعور بالصلابة، وتأكّد من صدق انطباعه الأوّل لحظة مغادرته الميكروباص الذي أقلّه إلى العشّ، عندما أحسّ أنّه وصل أخيرًا إلى الأرض التي لن يغادر ظهرها إلّا ليسكن بطنها. ولكنّه

أخذ يتحيّن الفرص ليختلي بنفسه ويفتح ألبوم الصور الذي بقي قريبًا منه على الدوام، ليتأمّل صورة زوجته نازك وهي تُطيّر طفلتهما مائسة في الهواء وتتلقّاها بين يديها على كورنيش الكويت، في لحظة سعادة تصوّرا أنّها ستدوم. عندما يطمئنّ إلى وحدته ينخرط في بكائه الصامت شاعرًا بالارتياح لأنّه لم يجد نفسه مضطرًّا لتقديم إيضاحات حول رحلة وصوله، وقد تعلّم من خبراته السابقة أنّ البوح بأحزانه قد يتعس الآخرين دون أن يخفّف من تعاسته.

تطارده صور موتهما بين يديه، عقب أسبوع من التيه في الصحراء نفد فيه جركن الماء والقليل من الزاد الذي حملوه. كان القهر يأكله وهو يرى الطفلة تتضاءل، يتركها مع أمّها في ظلّ السيّارة المغروسة وسط الرمال، ويحوم بحثًا عن أثر لبشر. خطوات ويعود منهكًا من الخوض في اللجّة الرمليّة الحارقة. يجد نازك وقد ألصقت مائسة بصدرها، والطفلة المسكينة التي تهدّل جلدها على عظامها الدقيقة تجاهد كي ترفع جفنيها المجعّدين كجفني عجوز، لتنظر إلى والديها بعينين متسائلتين.

عندما ماتت أطبقت نازك فكّيها الهزيلين، وحفر منتصر حفرة وضعها فيها وأخذ يهيل عليها الرمال برفق، كأنّه يشدّ عليها لحافها في مهدها، كما اعتاد أن يفعل في الليالي الباردة. دفنت نازك الدمية السمراء، التي تحبّها مائسة والتي لم تكن تفارق حضنها، في وضع قائم بحيث يظهر رأسها من الأرض، حتى يهتديا إلى مكانها ليعودا بجثّة ابنتهما إذا ما تمّ إنقاذهما.

لم يكونا في هزالهما قادرين على البكاء، جفّت قنوات الدمع

بعد أن جفّ ريقهما. جلست صامتة بجوار الحفرة، وعاد منتصر يجرّ قدميه حول العربة مراقبًا ومنتظرًا أيّة حركة، في الأرض أو في السماء، وقد اتّخذ من قميصه راية جاهزة للتلويح، لكنّ أحدًا لم يظهر على مدى يومين آخرين.

كانت زرقة السماء وصفرة الأرض تنطبقان في البعيد، بينما تشقّقت الشفاه وبدأ الجلد في التهدّل. لا حشرة تصلح للأكل، ولا طائر في السماء يبشّر بحياة قريبة. لم يعودا قادرين على تبادل كلمات المواساة القليلة التي تبادلاها في الأيّام الأولى. صارا يتخاطبان بإشارات واهنة. حاول إقناعها بشرب بولهما الشحيح، رفضت.

ـ ما أظنّ فيه أهمِّيَّة للحياة بعد هيك ذلّ.

قالت وأغلقت عينيها، ولم يقو على دفنها.

يتذكّر، كما لو كان حلمًا، المروحيّة التي حطّت مثل صقر وحملته بخدر الغيبوبة المريح. أفاق على سرير بين صفّ طويل من الأسرّة وأنبوب المحلول يتدلّى إلى معصمه. من سماء العنبر المستطيل يطلّ عليه وجه نازك جافًا بعينين صار بياضهما هوّة مخيفة.

بدأ في التأقلم مع العائلة، يذهب إلى عليّ الذي يعيش مستقلًّا في الطابق الأرضي من بيت ابنه، يستمع إلى تحليلاته وآرائه السياسيّة، التي جعلتها عودة منتصر تتوسّع لتشمل العرب جميعًا.

ـ المخّ طري زيّ الخرا، وأنا شامم ريحة وحشة في الموضوع.

يقول عليّ بطريقة تُثير ابتسام منتصر أكثر ممّا تُثير من الألم. لم يكن الفرار من الغزو الأميركي للعراق فراره الأوّل، لكنّه يتمنّى أن يكون الأخير.

لم ير منتصر أمّه. وخرج من الأردن إلى العراق طفلاً، لا يتذكّر من حياته في عمّان إلّا لحظة الهروب، عندما أيقظه أبوه في ليلة حارّة خانقة، وحمله بنعاسه ووضعه في سيّارة انطلقت بهما. طلع الصباح في البصرة، التي لم يعرف غيرها. وعندما أحبّ نازك وافق أبوه على زواجهما ممتعضًا، لأنّه عاش عشرين عامًا بقلق ضيف يستعدّ للعوة إلى داره في خان يونس، كي يموت هناك ويزوّج ابنه من فلسطينيّة تفهمه ويفهمها.

بعد أن طالت الحرب مع إيران وأكلت كلّ ما يمكن من شباب العراق، بدأ التحرّش بالمقيمين من الفلسطينيّين والمصريّين لكي يتطوّعوا في الجيش. كتبت نازك إلى خالها المهندس بالكويت لتدبير عقد عمل لمنتصر. لكنّهما لم يمضيا عامين هناك حتى دخل الجيش العراقي الإمارة الصغيرة. عادا إلى البصرة مرّة أخرى، لكنّ الأميركيّين كانوا قد وضعوا الخطّة.

عندما أضاءت القنابل الفسفوريّة سماء البصرة، فتح منتصر الحجاب الذي تسلّمه من أبيه مع مفتاح البيت في فلسطين.

ـ افتحه لمّا يكون آخر حلّ.

الوصيّة التي تلقّاها مريد من منتصر الأب نقلها بدوره إلى ابنه مجيد، الذي نقلها إلى ابنه منتصر قبل أن يسلّم روحه في نوبة ربو. لمّا فتح منتصر التميمة، لم يجدها حجابًا كما تصوّر. كانت مجرّد

ورقة تحمل عنوان العشّ مع اسم مباركة وحكاية الخطوبة المجهضة، ملفوفة بخصلة من شعر أسود، وسرعان ما راحت عيناها تلمعان عندما وضعها منتصر في يدها.

بعد أسبوع من وصوله إلى العشّ، بدأ منتصر رحلات منتظمة إلى القاهرة، يصوّر الأوراق ويضع المستندات التي عاد بها في شبابيك سفارتي الكويت والعراق، مطالبًا بحقّه في تعويضات لم تصله أبدًا عن الممتلكات والأجور التي لم يصرفها في الدولتين، لكنّه واظب على السفر، والعودة ليجد في انتظاره العجوز التي كان يفترض أن تكون جدّته.

أخذت الحاجّة مباركة تجرّب قدرة ساقيها على حملها، وبالاستناد إلى منتصر تمكّنت في النهاية من الوقوف على قدميها. وعادت إلى إصدار الأوامر.

طلبت تنظيف السراي، وخصوصًا الطابق الثاني الذي كانت الفوضى قد سرحت فيه، وعصفت الريح والأمطار بشبابيكه التي تشقّق دهانها، وصار مثل حراشف السمك على خشب اتّخذ رائحة عطن المراكب القديمة، وأمرت بمنح حجرتها البحريّة الواسعة لمنتصر.

أشرفت بنفسها على العمّال الذين أعادوا طلاء الحوائط، والشبابيك الزرقاء المميّزة وتبليط الأرضيّة من آخر مصنع في بلبيس ينتج البلاط التقليدي من الإسمنت المزخرف بأغصان وزهور. وبعد اكتمال الترميمات أُعيد تشجير الحديقة بعد تنظيفها من أكوام القمامة وأخنان الطيور وكوانين الوقود المهجورة التي أقامتها النساء

قبل أن يحملن أسرهنّ إلى البيوت الجديدة.

جلست الحاجّة مباركة في الفراندا تتأمّل السراي التي نفضت، بسهولة، عشرات السنين عن كاهلها وعادت شابّة، غير أنّ أحدًا لا يستطيع أن يُعيد إليها أصوات من رحلوا عنها. من الداخل يتناهى إليها صوت الشيخ مصطفى إسماعيل الذي تعشقه، يصدح بسورة يوسف، عندما بلغت التلاوة مجلس النسوة (قالت فذلكن الذي لَمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونًا من الصاغرين) سرحت مع التلاوة وتمتمت:

ـ جاتك ستّين خيبة، حدّ كان سألك؟

انتبهت إلى وجود منتصر، عندما ارتفع صوته بالضحك. توجّهت بحديثها إليه:

ـ المعفورة جابت لنفسها رقعة مدى الحياة.

وعاد الوهن إلى عينيها. سألها منتصر:

ـ قدّيش حبّيتي سيدي يا ستّي؟

لم يكن يقصد السؤال حقيقة بل ليتأكّد من أنّها لا تزال على قيد الحياة، وقد رأى في وجهها الشحوب الذي رآه لحظة وصوله إلى العشّ. تزايد ارتعاش يديها وهتفت:

ـ الله يفحر روحه، أبويا، مطرح ما راح.

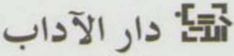
قالتها، ثم دخلت إلى صمتها، إذ لمعت في عينيها صفحة، لم تنجح الأيّام في طيّها أبدًا.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

يستأنف هذا العمل، بخبرة فنيّة عاليّة، تقاليد «رواية الأجيال»، التي تمزج بين حقبة تاريخيّة واسعة، من تاريخ مصر، والزمن الإنساني الذي يتكشّف في مصائر شخصيّات مختلفة. تعود هذه الرواية، وباقتصاد لغوي مدهش، إلى بدايات القرن التاسع عشر، وتتوقّف في الزمن الراهن الذي نعيش. وهي لا تقصد التاريخ لذاته، وإنْ كانت تقبض على ما هو أساسي فيه، بقدر ما تجعل منه مرجعًا «خافت الصوت»، يعلن عن تحوُّلات الإنسان وأحاسيسه ومآسيه، التي تأخذ أشكالاً كثيرة.

ربطت الرواية بين أحوال الريف المصري، المحكوم بتقاليد قاهرة، ومأساة الإنسان، بصيغة الجمع، التي تتكشّف في التداعي والصدام المفاجئ مع غير المتوقَّع، وفي الحظ العاثر الذي لا يقبل التفسير.

سرد الروائي حكاياته بأسلوب متميّز، خالقًا شخصيات واضحة الملامح، تتفاعل جميعًا، منتجة خطاباً روائيًا خصيبًا ومتعدد المستويات.



هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-191-0
9 789953 891910